

ملف العدد:

أ.د. عبد الرحمن الحجي

شيخ مؤرخي التاريخ الأندلسي



العدد الخامس

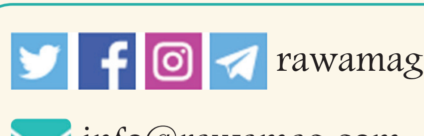
كانون الثاني (يناير) 2022م – جمادى الآخرة 1443هـ

مجلة فصلية تعنى بموضوعات
العلوم الإنسانية والنصوص الأدبية



صدرَ هذا العددُ بدعمٍ من أحَد رُعاة الثقافةِ شكرَ اللهُ لهُ إحسانَه

تتشرَّف المجلَّة باسْـتقبال المَقالات الثقافيَّة مِـن أصحـابِ الأقـلام الرَّزينـة والأفـكار الرَّصينة، في مَجال العُلوم الإنسانيَّة، بالإضافة إلى النُّصوص الأدبيَّة بأجناسِها المتنوِّعة.


rawamag

info@rawamag.com


www.rawamag.com



هذه المجلة:

هـي مجلة عراقية المنشـأ عربيـة الطرح، فصلية مسـتقلة غيـر تابعة لأية جهــة، تُعنى بموضوعات العلوم الإنسانية ونشر النصوص الأدبيـة، تسـعى إلـى أن تكـون في مَصـافّ المجلّات الرَّصينة، التي تبقى خالدة بما حوته مـن صَفو الفكر وعَذب الأدب ونقاء الثقافة.. ينهل منها الجيل بعد الجيل.. تروي عُطاشَـى العلـم والأدب، فينعكـس رواؤهم منهـا إلينا، وإلـى سلاسـل بني آدم مـن بعـد.. وما هذا بضربٍ من الأمنيـات، إنما هو عمل، وبالعمل يتحقق الأمل.

ومن حَقِّ القـرَّاء وعدٌ بأنَّ مجلَّتهم هذه لن تتنازل عن هذا المسـتوى، حتى لو لم تَنشر إلا مقالـة واحدة، تحافظ بها علـى مكانتها التي تنبع من مكانة العلم سموًّا ورِفعة، أو أنْ تُوقِفَ مشـوارها بعـزةٍ وكرامـة، دون أن تهـويَ إلى القاع، أو تجاريَ السفَهَ الذي ينبو عنه ما صَحَّ مِن العقول والطباع.

يقـوم علـى تحريـر المجلـة شـبابٌ آمنوا بالكلمـة وأيقنـوا بخطورتهـا، فأخـذوا على عاتقهم حمل رايتها.

أمّـا كُتّابُها فهُـم ثلّة من أصحـاب الأقلام الرزينة والأفكار الرصينة من المثقفين والأدباء والعلمـاء، وكل مَن سـلك سـبيلهم من الكتّاب الواعدين هواة الأدب والثقافة، فترحب المجلة بمشـاركاتهم، ليسـلكوا السـبيل الموصل إلى مصاف المتقدِّمين.

ضوابط النشر:

تتشـرف المجلة باستقبال مشاركاتكم في مجالات العلوم الإنسـانية، كما تسـتقبل النصـوص الأدبية، على أن يكون ذلك ضمن معايير تم رسـمها لتظل في المستوى الذي يسمو بها في عالَم الثقافة.

والمجلـة لا تضـع الحواجـز والحجُب أمـام هواة الكتابة والأدب، الراغبين بنشر مشاركاتهم المتواضعة؛ فلو لم يجدوا مَن ينشــر لهـم، لَتوقَّفوا عن المضي في درب القلـم، ولَانْقطعَ سـبيلُهم نحـو تطوير مهاراتهم وصقل مواهبهم ثم الوصول إلى مصافّ المحترفين.

وأهمّ ما تشترطه المجلة في النشر من حيث المنهج العام:

- ألا تكـون المشـاركة قد أخذَت سـبيلها في نشـرٍ مُماثِل مِن قبل.
- وأن تكون المشــاركة متصفة بالجدّية، والمعالجة الهادفة.
- وتنأى عن الاتّصاف بالعَبثية.
- وتتنزّه عن الاسْتلاب.
- ولا تعتدي على الحرّيات.
- ولا تثير النعرات الطائفية والقضايا السياسـية والغرائز الجنسية وسائر طبائع السوء.

أما من حيث الشكل والبناء، فتشترط المجلة:

- ألا تتجـاوز الدراسـة ٥٠٠٠ كلمـة، ولا تتجـاوز المقالة ١٥٠٠ كلمة، وكل ما دون ذلك جائز.
- أن تكون المادَّة مدقَّقة خالية من الأخطاء اللُّغوية والإملائية والطباعية.

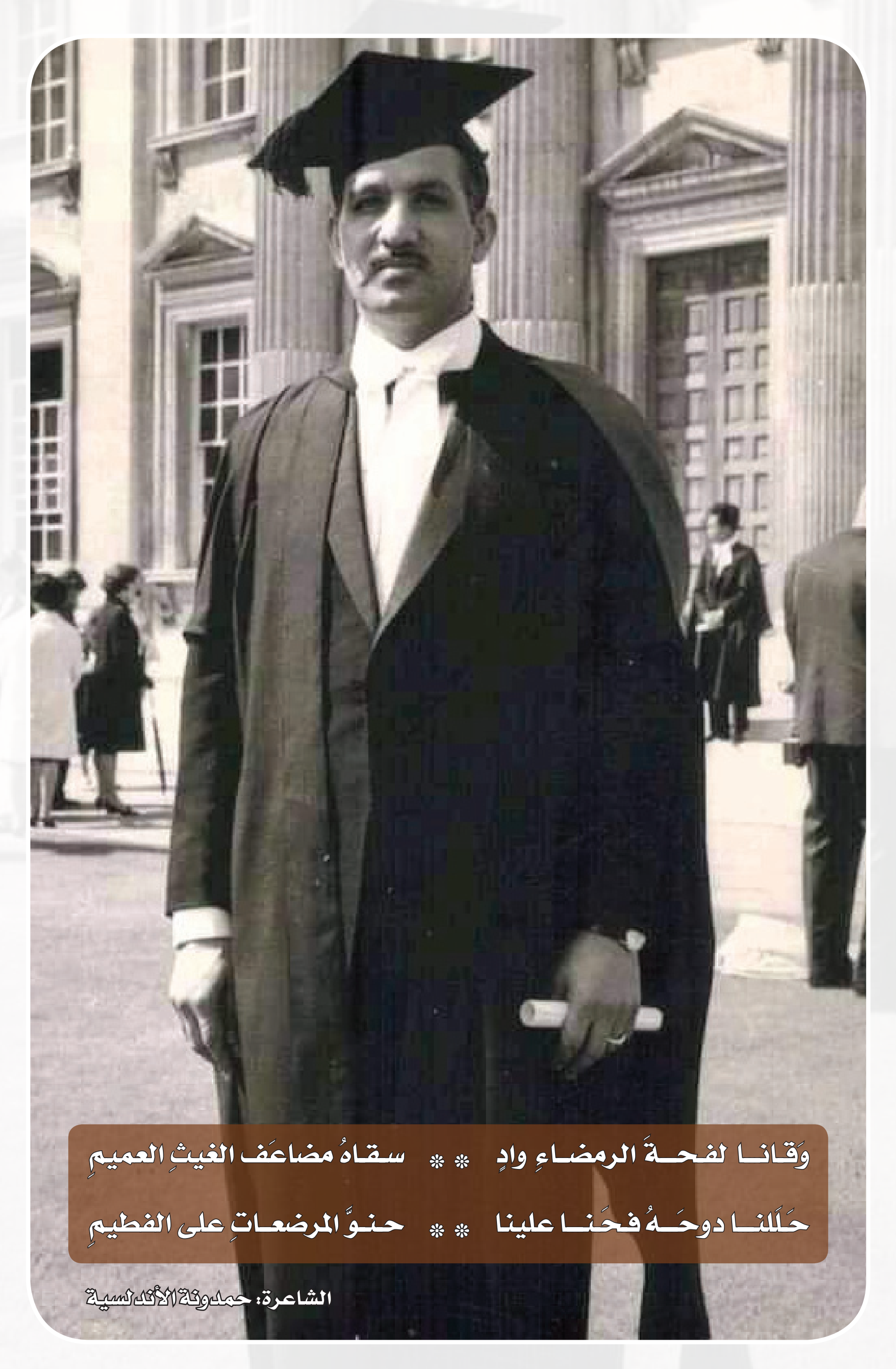
فما لم يتوفر على هذه الشروط فنعتذر عن عدم نشره، شاكرين تفهّمَكم.

محتويات العدد









أ. د. عبد الرحمن الحجي (جامعة كامبريدج - بريطانيا ١٩٦٦م)



ديباجة العدد

الحمـد لله المنعـم المتفضـل بالأفضال كلِّها، والصلاة والسـلام علـى نبيه الداعي إلى الخيرات ومُكمِّلها. وبعد:

فمِـن نِعـم الله علينـا أن أعاننا على أن نواصل المشـوار ونبدأ عامًـا آخَر من عمُر مجلّـة روى، وهذه النعمة مـا كانت لولا أنْ سـخّر اللهُ لهـا أناسًـا يصبرون على نشـر العلم ويتواصون على إصلاح الأدب، فمنهم المتعـاون بقلمـه، ومنهم المتعـاون بعلاقاته، ومنهم المتعاون بنقده ونصحه، ومنهم المتعاون بماله، ومنهم المتعـاون بالمراجعة والتدقيق، إلى غير ذلك من أنواع التعاون التي لم يكن لها أي مقابل مادّي، إنما الجميع متطوع في سـبيل تحقيق غاية المجلة في نشـرها العلم وعنايتها بالأدب، على نحوٍ ينأى عن الفساد الذي نعيشـه في عامّة المَجـالات الحقيقية والافتراضيـة -إلَّا مـا شـاء الله-. وبمثـل هـذه الفئة من النـاس تنهـض الأمة، ذلك أنّهم مؤمنون بفاعلية الوعي والتثقيف، وأن للكلمة شأنًا لا يدانيه شأنُ غيرِها.

ويبقى الحِمل الآخَر علـى عاتق القرّاء، وهم كفة الميـزان الأخرى والطرف الذي لو لم يتفاعل مع الأول لَخسـر الميزان؛ فالقرّاء -علـى الرغـم من قلّتهم بالنظـر إلى حجم الأمّة- هم مؤثِّرون في سـائر الميادين، وهذا من خصائصهم التي بها يتميّزون.

ويأتـي هـذا العـدد الجديـد مـن العام الجديـد، في إهـابٍ جديد ومَوضـوعٍ وحيد، ذلكم هـو مَوضوع (الأندلـس)، بالتزامن مع ذكـرى احتفـالات الموتورين وأهـل التعصب وحفَدة المجريمين، بسقوط آخر معقل للعرب والمسلمين، في الأندلس، تلك البلاد العظيمة، التـي شُـيِّدَت على أيـدي عظمـاء فتحوها

بالحقّ، وأنقذوا سكّانها الأوَّلين من بطش الجبّارين، وعاشوا معهم سالمين مسالمين، وصاروا شعبًا واحدًا يُضرب به المثل في الرقيّ وحُسن التعايش، وأقاموا فيها حضارةً فريدةً تضاهي حضارة إخوانهم في الشرق وتتفوّق عليهم، وكانت قبلةَ سائر بلدان أوربا، يَفِدون إليها لطلب العلم وغيره...

ثمَّ هاهم اليوم يرقصون على جراح أهلها، متجرّدين عن إنسانيتهم التي يتغنّون بها ويعيبون مَن لم يقرّها -بحسب قوانينهم!-، فيُحْيُون أعياد انتصار آبائهم الغاشمين، وقادتهم الخائنين، من الملوك ورجال الدين، الذين ما عرف التاريخ أسوأ مثالًا مِن جرائمهم.

ومن هذا المنطلَق جاء هذا العدد، ليحيي الذكرى على عكس ما أرادوا، تخليدًا لتاريخِ هذه الحضارة وأهلِها، وترسيخًا لعقيدة النصر واسترجاع الحقّ، وردًّا على كُلّ مَن يحتفي بهذا الحدث الإجرامي وما تلاه مِن تشريدٍ وملاحقةٍ وإذلالٍ وإكراهٍ ومحاكمَ تفتيش!!!!

وقد تنوّعت مواد العدد في طَرْقِها لموضوع الأندلس، على صعيد البناء الإنشائي، أو المحتوى المتناوَل؛ فأما البناء فتنوّع بين مقالة وخاطرة وشعر وقصة، وأما المحتوى فتنوّع بين متناولٍ القضية من ناحية تاريخية لهذه الحضارة، وبين متناول قضية سقوط البلاد في أيدي الغاشمين، وبين متناول بعض أعلام تلك الحضارة...

وأهمّ ما يميّز هذا العدد هو الملف الخاص الذي يستذكر شيخَ مؤرخي التاريخ الأندلسي: العلامة الأستاذ الدكتور عبد الرحمن علي الحجّي، الذي وافته المنية في مثل هذا الوقت من العام الماضي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجعلَ في الأمّة خلَفًا له-. وقد كَتَب في هذا الملف بعضُ كبار أصحابه وبعضُ تلامذته ومحبّيه المخلصين، منهم: فضيلة الأستاذ الدكتور عماد الدين خليل، ومعالي الأستاذ الدكتور قيس آل الشيخ مبارك، والأستاذ الدكتور صالح السنيدي، والدكتور خالد الشطي، والدكتور عامر ممدوح، والأستاذ عبد الواحد عبد الجبار التركي، والأستاذ نادر وثير، والأستاذة فاتن مصطفى. واكتملت زينة هذا الملف بمقالةٍ حافلة سطّرها نجله الكريم: الدكتور أحمد عبد الرحمن الحجي، إضافةً إلى حوارٍ قيّمٍ أجراه معه الأستاذ أبو الحسن الجمال. مع تاج المقالات في هذا الملف: مقالة أندلسية خالصة من مقالات العلامة عبد الرحمن الحجِّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ترى النور أوَّل مرة -إذْ

لم تُنشَـر من قبل-، متضمّنـة خواطر عدّة من خواطره الأثيرة، ذات المشـاعر الوفيرة، والفوائـد الغزيـرة، والتأمـلات المثيرة، مع قصيدةٍ لهُ نظَمَ فيها تغزُّلَه بقرطبة الأمجاد.

أما الدراسـات الأندلسـية، فقد اغتنى هـذا العـدد بدراسـة قَيِّمَة أعدَّهـا العالِم الجليـل الأسـتاذ الكتور محمّـد علي دبّور، تناولَ فيها مصادر التأريخ للمدن الأندلسية حتـى نهاية القرن الثامـن الهجري/ الرابع عشر الميلادي.

وأمّا المقالات الأندلسـية، فقد سـطّرها نخبة من أصحاب الأقلام الحرّة: الأسـتاذ الفاضل يوسف نابارو (حفيد الأندلسيين)، وسـعادة الأسـتاذ جابـر خليفـة جابـر، والدكتـور عامـر ممدوح، والأسـتاذ محمد الصـاوي، والأسـتاذ أبو الحسـن الجمال، والكاتب محمد زياد الفناطسـة، والأسـتاذ الدكتور عمر القيام، وعمر السنوي.

وأمـا النصـوص الأدبيـة الأندلسـية، فتنوعت بين الشعر والنثر، فجاءت نصوصًا تشـفي العليل وتروي الغليـل، أبدعتها أيادٍ حملـت هـمّ الأمـة، تبتغي أن ترفع شـأنها وتنير دربهـا، تلك أيادي: الأسـتاذ الدكتور جمـال بن عمار الأحمـر الأنصاري (حفيد بني الأحمر من حكّام الأندلس)، والدكتورة إيمان عبد الهادي، والدكتور صفاء الشمري، والشـاعرة كوكـب البـدري، والقاصة لمياء أحمد، والأديبة زينب الأزبكي.

نسأل اللّه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أن يَشكر للجميع مَسـعاهم، ويقرّ عيونهم برؤية بعض آثارهم الحسَنة، ويوفّقنا جميعًا لما فيه صالح أمتنا.

رئيس التحرير





ملف العدد:

العلامة عبد الرحمن الحجي في ذكراه السنوية الأولى



خواطر مسجدية أندلسية

أ.د. عبد الرحمن علي الحَجِّي (*)

منزلة الأندلس وأغوارها:

الأندلس كلمة تعدّدت مدلولاتها وتنوّعت إيقاعاتها، على كثرتها فهي مطربة كأدبها، عذبة كمائها، ندية كجوها، مخضرة كحدائقها، مزهرة كحضارتها. ولها، مع كل ذلك، وقع مؤثّر ومعبّر، في نفس كل مسلم.

تشارك في ذلك أسباب كثيرة، مستنبطة مستخرجة. فهل منها أنّها أول، أو من أوّل، ما ضاع من بلاد الإسلام، وبعد طول إقامة للمسلمين فيها، أو لكثرة ما لقي المسلمون على أيدي الأعداء، احتمالا وجهادا، ضد الصليبية الأوربية ومحاكم التفتيش الكنسية والحكومية، الإسبانية والبرتغالية والبابوية؟

فلعلّ كلّ هذا وغيره، جعل الأندلس بهذه المكانة والإثارة والتعلق، مما يجعلنا نقول، بأمل يتبعه عمل، في ضمير المستقبل، مرددين ما قاله كتّابنا، حين يذكرونها: ردّها الله للإسلام وردّ الإسلام إليها.

ولربما يكون وقعها أوسع من ذلك، مكانًا وإنسانًا، فهي ضربٌ على حبال، وصالُها النفس، تثير نغمًا على وتر مشدود، أو صوتًا يخرجه فمٌ ممسوك، أو جَلجلة تنبثق من قلبٍ مجروح.

(*) مقالة بقلم الراحل سطَّر فيها بعض خواطره وشِعره وبنات فكره، تُنشر أول مرة، خصَّنا بها نجلُه د. أحمد عبد الرحمن الحجي، مشكورًا، وقال في توصيفها: (كتب الدكتور عبدالرحمن علي الحجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الخواطر تعليقًا على أمسية أندلسية أقيمت في ثمانينات القرن الميلادي الماضي، عرَض فيها القائمون مشاهدَ وصورَ آثارٍ أندلسية).

كلّ ذلـك يمتـزج بصوَر مبهمـة غائمة، أو صيَـغ واضحة ناضحة، بـالإدراك والاعتبار، قويَ بما حـدث ودار، من خلال معلومات في الورد والإصدار.

كانـت هـذه بعـض الخواطـر الفيّاضـة، تدفَّقت حين عرضت أمام الحضور في أمسية أندلسية: مشاهد من مسجد قرطبة الجامع، بأعمدتـه المعتدلة القامة، الرشـيقة القوام، الحمّالـة لما فوقها، بقوة وأمانة والتزام، تتوّج رؤوسـها فرحـة نشـوانة، لسـقفها الجليل، يشرئب نحو صمتها التاريخي البارد الظليل، فيه أسراب الحمام ترسل وتسربل بالهديل.

ألا تراهـا خيـر علامـة وعلاقـة، تربط الماضـي بالحاضـر نحـو مسـتقبل مشـرق، يقيّـض اللّه لـه مَـن يكرمه، ويشـرّفه بحمل هذه الأمانة الكبرى. أصل الإنسـانية، ومنقذ الحياة، وهـادي الركب إلى البـر العميم، في الحياة وفي الأخرى دار النعيم.

نهضت هناك خواطر توالت، مدلية بمعانٍ كثيرة، مبتهجة مؤملة مؤهلة. فمسجد قرطبة الجامع يطل على النهر الأمير وواديها الكبير، ومياهـه ذات الصوت الجهير، وعلى صفحته اليمنـى، ما يـزال دولاب ناعورها التاريخي. كان ينقل الماء إلى حيث الحياة، حدائق فيحاء وبساتين غناء، ماجت ولمعت، وأشجارًا وثمارًا وأزهارًا، تحفّ بالمسجد وتميل عليه تعانقه.

فالمسجد القرطبي الجامع وبقية المساجد، أيها الإنسـان، تنظر إلـى صورتها، معروضة أمام ناظريك على الشـرائح، وأبلغ منها زيارة تشـهدها عيانًـا، تتفـق لهـا المعانـي في تلك النظرات منك وإليك. أهيَ عتاب أم لقاء بعد غيـاب، أو دعوة من الأحباب؟ كلّ ذلك واضح في بيان، أيّ بيان!

هذا المسجد القرطبي الجامع، وأمثاله في المراجع. كم امتلأت أروقتها وصحونها بأجيال المصلين، متراصين بالمناكب والأقدام كالبنيان المرصوص، مشدودين بحبل الإيمان. هي عين الصفـوف التـي اصطفت للجهـاد، بعد جهاد النفـوس. أعلنتهـا منـارات الحيـاة الكريمة، وشقّت طريقها إلى برّ الإيمان، بنور القرآن.

هـذه المسـاجد كـم أظلّـت أروقتهـا في حلقـات الـدروس، تشـق كلمـات الأسـاتذة والشـيوخ، بهدوئها وهديرها، حالك الأجواء ومغاليق النفوس، لتستقر بذور الحياة، طفح الحـق بنـوره فأنارهـا وملأ الـدروب تجارة رابحـة، فأغناهـا وحماهـا بقوافـل الدعاة. هذه المسـاجد علـى الدوام نابضـة بالحياة، تناديك لتمد إليها أياديك، وتسـقيك ينابيعها فترويك، تنهض إنسـانًا كريمًـا وبانيًا رحيمًا وعدلًا مستقيمًا.

قرطبة الأمجاد والأنجاد:

ولَكَم أشاد الجغرافيون والمؤرخون والكتّاب والأدباء والشعراء بقرطبة، ذات المجد العريق، الّتي ماجت ساحاتها بأعلام الأخيار والأبرار، من كل الميادين. وكذلك بالمسجد الجامع الأبيّ، واحدًا من مفاخر قرطبة العديدة، بل والأندلس كلها، والعالم الإسلامي أجمع. قرطبة ذات المفاخر والمزاهر والمنائر، العالية بارتفاعها، بنائها ونِدائها.

وخلال الكتابة والتنقيح لهذا البحث، جال قلم كاتب هذه السطور خصيصًا، بأبيات سافرة غامرة جاهرة، بالإشادة بها وبمسجدها، كان ذلك، والقلم يجري، رفيقًا بيدٍ حنون، وأنامل الحب فوق أوتار ثابتة أصيلة متناسقة، تطلق برشاقة نغمات رقيقات، بخفة وعذوبة، تدعوك لقراءتها بعناية.

قرطبة الأمجاد تيهي على الورى
في كل يوم فاتح وشهيدُ

أنتِ التي قد قدَّمتْ فلذاتها
مواكب الفتح هاتف ونشيدُ

أم بأرحام البطولة أنجبت
في كلّ بيتٍ سيدٌ وعميدُ

رحم الحضارة قد ملت باحاتها
من كلّ صنفٍ عابدٌ ورشيدُ

ذاك على فلم الحياة موجّهٌ
في ظلّ شَرعٍ أسّه توحيدُ

والمسجد الميمون يهتف بالذي
يسعى إلى إنقاذه ويعيدُ

يا موطن العلم الأصيل بديمةٍ
تروي بها تلك الدروس جديدُ

ماءٌ زلالٌ لذةً من شاربٍ
تشفي بها أنفاسهم وتفيدُ

تروي لنا من كلّ أمرٍ حجةً
فيها الحقائق طارفٌ وتليدٌ

وتقيم مجد الحق طاب حماتهُ
في راية المقدام وهو سديدُ

مكانة المسجد وامتدادها:

فالمسجد أساس العمران في المدينة المسلمة، وأساس كلّ حياة وعمران في كافة الألوان في المجتمع المسلم. مثلما تكون عمارة النفس وطهارة القلب أساس كلّ شيء في الحياة. يدخل المسلم المسجد بهذه الروح، فيغدو مأوى الطاهرين وموئل الصالحين، ينطلقون منه لتعمير الحياة بألوان الخير والأفانين. ويوم قامت الحياة الإسلامية نما كل شيء بسرعة مذهلة، وبنوعية مؤهلة نادرة خيرة، كان منها هذه العمارة المسجدية وغير المسجدية.

فهي تعبير عن عمارة النفس الإنسانية بنور اللّه والتجمل بشرعه والاتباع لمنهجه. فكان هذا الجانب الفنّي أحد واجهات العمارة المادية، تتلمس فيها آثار الخير وضياء البصيرة ونور اليقين، التي أقامتها العمارة الإنسانية بشرع اللّه المبين.

كانت لتلك المشاهد المصورة التي عرضت لمسجد قرطبة الجامع وقصر الحمراء بغرناطة الفيحاء، خواطر كامنة مثارة، جرت على النفس واللسان في الأمسية الأندلسية، أتاحت الفرصة لتسطير هذه المعاني، قوية الحقائق فوّاحة الأعاجيب الكامنة في النفس المترعة، العاشقة لمقوماتها الربانية، ترجو ثواب اللّه وتدعوه أن تكون عنده مقبولة.

إنّ بقاء هذه الآثار حتى اليوم رغم الأهوال والنكبات، شملت وعمت وطمت، دليل على أصالتها، ويا لهول ما لقيت من العنت والإرهاق، مثلما لقيت حضارة الإسلام ومجتمعاته وعلومه، وما لقي الإسلام إنسانًا وبنيانًا وعمرانًا في كلّ لون.

عمارة الإنسان وأصالته:

تمثلت هذه الأصالة الإسلامية في هذا المتبقى من عمارة البنيان، مثلما تمثلت في سلّم من الإنتاج الفكري، ثمرة عمارة القلم والبيان، كما تمثلت في بقية ما تبقى من ولاء في عمارة الإنسان، في إطار الحنين إلى الإسلام.

وحين صدر قانون الحريات الدينية أو المذهبية - في سنة ١٩٦٧م في إسبانيا، أعلنت ستمئة أسرة إسبانية أنّها ما تزال مسلمة! اللّه أكبر، هذا الدين حين يستقرّ في النفس ويملأ القلب ويقبل عليه الإنسان.

كان ذلك كذلك، رغم ما أذهبت تلك الطواغيت عن كلّ ما يمتّ للإسلام بصلة. وفي كلا الحالين تجري إرادة اللّه وحكمته وهو أحكم الحاكمين: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [سورة يوسف: ٢١].

رأينا في صور الشرائح في تلك الأمسية جانبًا من الفنية في الحياة الإسلامية، فيما تبقّى من العمارة الإسلامية الأندلسية، كانت فائقة وعلى غير مثال. فيوم انطلق المسلمون يحملون الدعوة إلى كلّ مكان، ما كانوا يملكون من هذه الأمور شيئًا، ولكنهم بسرعة مذهلة وبهمة عالية تعلموا وعلّموا، فأقاموا كلّ لون من الهندسة المعمارية وغيرها، لأنّهم أوّلا عمّروا نفوسهم وحياتهم بالإسلام، وابتنوها بشرع اللّه، وأقاموها على كتاب اللّه، سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وبقيادة رسول اللّه ﷺ. فأنشأوا كلّ ألوان العمارات على أحسن مثال، فنا وقوة وبراعة.

فيا لروعة هذا الدين، إنّه معجزة أنزل الله كتابها، وحيًا من لدن عليم خبير، وحمّلها رسول الله ﷺ، وأوحى إليه وآتاه النبوة فكانت خيرًا وبركة على أهل الأرض أجمعين، مسلمين وغير مسلمين، مهما عقّها العاقّون وتنمّر البغاة الظالمون.

إنّ فنية البناء التي شهدناها شرائح، لمسجد قرطبة الجامع، وبعض أحياء الحمراء، كانت رائعة بألوانها وأزهارها فما من مثيل. لكنها على الواقع الميداني أجمل وأوقع أثرًا، رغم أنّ المتأخر من القرون الطويلة العسيرة كان قاسيًا جافيًا منهكًا، مرّت بها بعد دفء حنين وحب رصين.

قيام مسجد قرطبة الجامع ووصفه:

فالمسجد الجامع بقرطبة ابتدأ بناءَه عبدُ الرحمن الداخل سنة (١٧٠هـ = ٧٨٥م) وأقام قبلتَه من قبلُ التابعيُّ الجليل حنش بن عبد الله الصنعاني (١٠٠هـ = ٧١٨م) مهندسُ المساجد ومقيم المباني في الغرب الإسلامي، أحد المجاهدين في فتح المغرب والأندلس.

وصف العديدُ من الجغرافيين المسلمين، لا سيما الأندلسيين، مسجد قرطبة الجامع، بأوصاف جميلة يستحقها، وقد يربو عليها.

فأورد المقّري (١٠٤١هـ = ١٦٣١م) صاحب نفح الطيب، مضامين ومنقولات شيقة. أمّا الشريف الإدريسي (٥٦٠هـ = ١١٦٥م)، فلقد قدّم في نزهته وصفًا جيدًا ودقيقًا لمسجد قرطبة الجامع، الذي تلقّى العلم فيه، فقال بأنّه: «يحار فيه الطرف ويعجز عن حسنه الوصف».

وهو كما وصَف إن لم يكن أكبر وأكثر. حيث أوردَ في كتابه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، عبارات شتى تظهر ذلك، أثناء تفصيلات شرحه لمبانيه ومواقعه وجمال معماريته. فيقول: «وفيها المسجد الجامع الذي ليس بمساجد المسلمين مثله بنية وتنميقًا وطولًا وعرضًا... ولهذا المسجد الجامع قبلة تُعجز الواصفين أوصافها وفيها إتقان يبهر العقول تنميقها... ومع يمين المحراب المنبر الذي ليس بمعمور الأرض مثله... ولهذا الجامع عشرون بابًا... وللجامع في الجهة الشمالية الصومعة (المئذنة) الغريبة الصفة الجليلة الأعمال الرائعة الأشكال التي ارتفاعها في الهواء مئة ذراع... ويصعد إلى أعلى هذه المنارة بدرجين أحدهما من الجانب الغربي والثاني من الجانب الشرقي إذا افترق الصاعدان أسفل الصومعة لم يجتمعا إلّا إذا وصلا الأعلى منها».

البناء بناء الإنسان والافتخار به:

إنّ السموّ في الفنّيّة المعماريّة يناسبه سموّ أكبر في أمور الحياة، لأنّ فيه فنّيّة الفطرة التي لم تُرد أن تصبّ يومًا في الإطار المادي، وهي عجب، زال أكثرها بزوال ناسها الذين خلّفوها. كما أنّ الإنسان عمومًا، وفي العبادة، لا يغتني بالمظهر دون المخبر، وهو الأساس، فإنّ القوة في هذه الناحية تتمثل في مخبرها وحقيقتها وثمرات أعمالها.

وهذه الآثار القائمة ليست خير ما كان موجودًا، منها ومن غيرها، وإنّما هي بقية لبعض أوجُه التعبير عن كوامن الخير ودوافع البِر، في بناء كريم وسَمْت رائع رصين، أقامه الإسلام في حياة الإنسان.

فابن حزم القرطبي الأندلسي (٤٥٦هـ = ١٠٦٤م) يفخر بذلك، على كل موقع من بلاد، خارج العالم الإسلامي، معبّرًا عنه مناديًا:

يا جوهر الصين سحقًا فقد
غنيت بياقوتة الأندلس

حافَظوا عليها وافتدَوها وهرَعوا لنصرتها، وهو ما علينا اليوم القيام به، مثلَما قاموا، مشاطر الركب الميمون ونهتف معتزّين!

سحقًا وبعدًا لمذاهب الشرق والغرب معًا، ومهلًا لحضارتهما وكلّ حضارة أخرى، يوم اكتفيتُ واغتنيتُ وسَموتُ بالإسلام وحضارته، فإنّ قيمة الحضارة بما تحمله من قِيَم إنسانية فاضلة، وتلك لا تكون إلّا بالارتباط بالله تعالى والأخذ بمنهج الإسلام. وإن كنّا نقدّر كلّ قيمة ونَعرف قَدْر كلّ علمية، ولا نبخس الناس أشياءهم.

والدعوة هنا إلى إقامة القيم الإنسانية، للانتفاع بما توفر للإنسان وسخر الله سبحانه له، في حقائق علمية ومكتسبات مادية وأدوات تقنية. وحضارة الإسلام يوم امْتلكتْ الحقائق الفاضلة، سعتْ بسرعة إلى توفير كلّ ذلك، بسبقٍ مشهود لذلك العصر، استبقت به القرون.

دراسة هذه الجوانب:

إنّ هذا اللون من الفن، وكلّ ألوانه الأخرى، بأبعادها وامتدادها، بحاجة إلى خدمة وعناية حين دراستها بصدق، مثل العمل بمقتضياتها ودراستها، لا بد أن تكون ضمن الإطار الإسلامي، إحياءً لهذا الجانب وخادمةً له، وعاملةً من أجله، ابتداءً من النفس الإنسانية، وهذا هو الاحتفال الحق الذي نريد.

ففي الإسلام والعيش في أجوائه، كما تحلّق الروح والفكر والنفس، يحلّق البدن والحياة بالارتقاء. إنّ الارتقاء المادي، نوعًا



وكمًّا ولونًا، سيكون واضحَ الشكل قائمًا على الأساس الأُخروي، إنساني النزعة طاهر الاتجاه نبيل الهدف.

إنّ أية محاولة لتجريد هذه الأمور من صفتها وصبغتها الإسلامية، ومن ارتباطها الربّاني، عَملية غير علمية، مهما كان الغرض والجهة. ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [سورة البقرة، ١٣٨].

إنّ هذا الفن المعماري أحد الوجوه لفن الحياة الكريمة الإنسانية الربانية، وحيدة فريدة، الفن المؤثر، تنظر إليه الحياة لتحيا به بعين الأمل، تقوم على الإيمان الذي هو «ما وقر في القلب وصدّقه العمل» كما ورد في حديث الرسول ﷺ.

ماذا علينا عمله؟

والآن ونحن في بداية القرن الخامس عشر الهجري -نهاية عقده الأول- أقام ويقيم المسلمون الاحتفالات المتعددة له. وهو أمر لم يعتده السلف الصالح، لأنّهم كانوا في حفل دائم يحتفلون في كل تصرفاتهم وسلوكهم وجهودهم، يَحيون لدينهم، وقد زينوا به حياتهم بميادينها الواسعة.

لعل هذا القرن الحالي، إن شاء اللّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، تُقبل فيه أعلام الإسلام وترتفع راياتنا متقدّمة بحضارته إلى الأنام، وهو الاحتفال الحق بهذا القرن وبكل قرن.

ولعل بادرة الصلاة في مسجد قرطبة الجامع، بدايةٌ لعودته إلى المرابع والطلائع الإسلامية، التي نرجو لها اتساع عملها، لتحيا بنور اللّه وتنطلق به بين الناس، هادية بهديه.

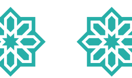
الآن وقد مرّ على فتح الأندلس (٩٢هـ = ٧١١) -بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير وطريف بن مالك وغيرهم من القادة والجنود العاملين المجاهدين- ثلاثة عشر قرنًا من الزمان، فكان الفتح الأول، ليأتي القرن الحالي بالفتح الجديد، إن شاء اللّه رب العالمين، على أيدي المؤمنين من كل لون وجمع، ليرتبطوا برباط الإسلام ويرفعوا رايته ويتمثّلوا دعوته ويفتدوه بحياتهم، بعد أن باعوها له رخيصة، بحبٍ وصدقٍ وفداء.

﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾

[سورة الروم: ٤-٥].

لقد صدق اللّه العظيم وعده.







عبدُ الرَّحمن الحَجِّي: سِيرة ومَسيرة

د. أحمد عبد الرحمن الحَجِّي(*)

حين طُلِبَ مِنّي كتابة هذه السطور عن حياة والدي، الدكتور عبد الرحمن الحَجِّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، تَرَدَّدتُ في الموافقة بادئ الأمر، رغم فرحي الكبير بهذه الدعوة الكريمة من قبل هيئة تحرير المجلة، فضلًا عن تكريسهم هذا العدد لغرض الوقوف عند محطات في سيرة الراحل ومسيرته الفذة والفريدة في خدمة التاريخ الإسلامي والأندلسي. مردُّ هذا التردد الذي انتابني هو تَهَيُّبي من كتابة مقال عنه يحمل توقيعي، أَحْسَسْتُ في ذلك شيئًا من الجَرْأة في السماح بأن يقترن اسمي المتواضع باسمه الكبير.

لكنني في الوقت نفسه أحببتُ هذه المهمة التي أُنيطَتْ بي، ثم لم يسعني إلا الإسراع في أخذ قلمي والشروع في كتابة هذه الكلمات حين بَدَأتُ أتَخيّل والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقرؤها مبتسمًا. بل ذهب خيالي إلى أبعد من ذلك، بدأتُ أتَخيّل دموعه تتساقط فرحًا بما يقرأ، إذ كان لا يتمالك نفسه في مثل هذه المواقف التي يسمع فيها كلمات دافئة تحمل في طياتها شيئًا من الوفاء، حتى أنه كثيرًا ما كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يستعير بيتًا من الشعر في التعبير عن قرب الدموع منه، كأن هذا البيت الشعري نُظِمَ خِصِّيصًا ليصف تساقط دموعه، من إحدى عينيه لِتَنْضَمّ إليها الأخرى سريعًا:

بكت عيني اليسرى فلما زجرتها
عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا

(*) أستاذ العلوم المالية المشارك، جامعة كيبيك – مونتريال – كندا.



الحَجِّي والأندلس:

الحَجِّـي والأندلـس صنـوان، ولقـد اسـتحقَّ بجـدارة ما أُطلق عليـه من ألقاب عديدة بُعَيد وفاته: فارس الأندلس وعاشق الأندلس وشـيخ المؤرِّخين الأندلسيين. لقد أحَبَّ الوالد الدكتـور عبد الرحمن الحَجِّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ التاريـخ الإسـلامي أيمـا حـب، وبالأخص الأندلسـي منه، وعشق الأندلس عشـقًا حقيقيًـا. كان الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتنفس الأندلس، ويعيش هموم أسلافه المورسكيين ومعاناتهم مع محاكم التفتيش. كثيرًا ما كنا نـراه غارقًـا في أفكاره، ليبدأ سـيل دموعه بالنزول. وحين نسـتقصي نعرف أنه يتذكر مشـاهد المورسـكيين وهـم يُحَرَقـون أمام السـلطات الكنسية في أحفالها «الإيمانية»، قابضـين علـى دينهـم يورِّثونـة جيـلًا بعد جيـل وهـم تحـت وطـأة محاكـم التفتيش الغاشـمة. لَكَـم كان يسـوؤه مَن يسْـتَخِف بآلام المورسكيين وجهادهم ومصابرتهم، بل يلومهـم ويتخذ من قضيتهـم مثالًا على من أضاع دينه وديـاره باللهو واللعب والرقص! وكثيـرًا مـا يأتي هـذا الاسـتخفاف واللوم ممّـن لا يكاد قرأ عن الأندلس غير مطالعة سـريعة. أشْعُر أن رحيل الوالد زاد القضية المورسكية يُتْمًا في هذه الأيام، نسأل اللّه أن يعوضها بمن يسـير على هذا الدرب ويرفع لواء هذه القضية الإنسانية العادلة.

جـاء حُبُّـه هـذا للأندلـس طبيعيًا دون تكلّـف، إذ هو يشـعر حقيقةً أنـه من رفقة وصحبـة ابـن حيـان وابن حزم الأندلسـي ويحيى بن حكم الغزال، قذف به الزمان في العراق، لكنه عاد أدراجه إلى الأندلس (أرض الآباء والأجداد -كما كان يسـمّيها-)، وشاء اللّه أن يُدْفَـنَ فيها؛ في مَجْريطها (مدريد)، التـي يحلو له تلقيبها بـ: «العاصمة الأوربية التي بناها المسلمون». لعله كان خلال رحلة «العـودة» تلك إلـى الأندلـس يَتَقَفَّى خُطى العديد من أسـلافه المَشـارقة الذين وفدوا الأندلس، لا سيما البغدادي أبو علي القالي الذي قدم إلى الأندلس واسـتقر فيها حتى وفاته، رحمه اللّه تعالى. هكذا كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يتلمس الإسـلام وأثره في كل حركة أو وقفة له في إسبانيا حتى آخر يومٍ له.

الانطلاقة العلمية:

دفعه هذا العشـق المتدفق أن ينطلق من حقول الفلاحة في المقدادية بمحافظة ديالى في العـراق في خمسـينات القـرن الميلادي

الماضي، متوكلًا على الله بمُكنَته البسيطة، حاملًا بساط نومه في حقيبة سفره، ليستقر به الحال لدراسة الدكتوراة في أرقى جامعة عالمية: كيمبرج، التي قضى فيها شتاءه الأول بمعطف صيفي، ولكن كان ذلك بالتأكيد بعد أن مَرَّ بمحبوبته الأندلس، فكان أول لقاء جمعهما عام ١٩٥٩م، لم تسأم مشاعر ذلك اللقاء من جلب السعادة له حتى أواخر أيامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والإعجاب والفضول لنا حتى اليوم. وكان نتاج هذه الرحلة باهرًا والحمد لله: أطروحة أنيقة راقية في موضوعٍ غاية في التَخَصُّص والتعقيد: «العلاقات الدبلوماسية الأندلسية مع أوربا الغربية خلال المدة الأموية»، دراسة عميقة استُمِدَّت من مصادر باثنتي عشرة لغة، قال فيها مشرف البحث في جامعة كيمبرج الدكتور جون هوبكنز بأنه لو أتى أي باحث ولو بعد مئة عام، فإنه لن يضيف إلى البحث في هذا الموضوع حرفًا واحدًا. يُذْكَرُ أن الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو أول من حَمَلَ شهادة الدكتوراة في مدينته المقدادية، وذلك وفق ما ذكره أحد أهالي المقدادية لنا مؤخَّرًا. كما ذُكِرَ أنه أول من حمل دكتوراة في التاريخ الأندلسي في العراق.

إقدام وتصميم منذ نعومة الأظفار:

قبل عشرة سنوات تقريبًا، وفي صبيحة أحد الأيام، تبادر إلى سمع الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ وَصْفُ أحدِ أنصاف المثقفين لواحدٍ من كتبه بأنه «إنشاء»! أثار ذلك التَجَنِّي الكثيرَ من الحزن والألم عنده رَحِمَهُ ٱللَّهُ. أعاد له هذا الوصف (إنشاء) شيئًا من الذكريات الطريفة حول هذه الكلمة، يوم كان طالبًا في دار المعلمين في الأعظمية ببغداد. ذلك أن مدير الدار عاقب جميع طلبة السنة الثالثة الأخيرة بسبب هَرجٍ ومَرجٍ بَدَر منهم في حافلة المدرسة خلال رحلة علمية، وذلك بخصم درجات من السلوك. أحجم مجموع الطلبة عن الذهاب إليه للتفاهم معه حول رفع هذه العقوبة فلم يفعلوا خوفًا من قسوة المدير، وطلبوا من الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ القيام بهذه المهمة. وافقهم، ولكن بشرط أن يكونوا معه في كل الأحوال. وبعد موافقتهم على هذا الشرط، ذهب الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى مدير الدار، وكان جالسًا في غرفة الأساتذة، قال له: «يا أستاذ، هذه العقوبة الجماعية كانت بأسباب لا ظل لها من الحقيقة»، وإذا به يقول له بعنف وقوة باللهجة العراقية: «إنتَ تتعلم إنشاء براسي، تعال معي إلى



مكتبي»، وكان جازمًا في توقيع هذه العقوبة التي تحول دون العمل، فبدأ الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ يكلِّمه محاججًا، فاستمعَ إليه، فأخذ يهدأ، ثم قال الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ له: «يا أستاذ، لا بد أن تستمع إلى حججنا وذلك إذا جاءك شخص وعينه مفقوءة فلا تحكم له، فلعل الشخص الثاني عيناه الاثنتان مفقوءتان»، وإذا به يضحك وتنفرج أساريره، فيقول للوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو مبتسم: «خلاص سأرفع هذه العقوبة عنكم»، فشكره وانصرف بين إعجاب الطلبة وفرحهم وشكرهم.

فَتْحٌ عِلميٌّ:

وفي إحدى جولاته عن المخطوطات أيام دراسته الدكتوراة أوائل ستينات القرن الماضي، يَسَّر اللّه له فتحًا علميًا كان باكورة نتاجه العلمي الواعد. كانت علاقته قد توثَّقَت مع القائمين على مكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد والتي تقبع على كنز ثمين من المخطوطات الأندلسية النادرة، ومَرَدُّ العلاقة الوثيقة تلك هو تكرار زياراته الجادة لهم. وبسبب تلك العلاقة الناشئة، سُمِحَ له بشكل أو بآخر بتصوير جزء من كتاب «المقتبس» لابن حيان، في وقت كان مجرد الاطلاع على تلك المخطوطات يُعَدُّ من أصعب المهمات، إن لم يكن من مستحيلاتها. فأخذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ صورة المخطوط تلك وسارع بتحقيقها وطباعتها عام ١٩٦٥م في طبعة صَدَّر لها الدكتور إحسان عباس فَرِحًا ومُشيدًا بجهود هذا المُحَقِّق الناشئ والباحث الواعد، ثم تبين لاحقًا أن نسخة مدريد المُسَرَّبة من المقتبس هذه هي صورة وحيدة لأصل في مكتبة سيدي حمودة بالجزائر فُقِدَ لاحقًا. وبهذا يكون تحقيق الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهذا المخطوط هو بمثابة إنقاذ له من الضياع. ثم تزامن صدور هذا التحقيق المُدَوِّي مع مؤتمر علمي أُقيمَ في مدريد، قال له فيه -ممازحًا- حسين مؤنس، مدير المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد آنذاك، أن عملك هذا كان كقنبلة انفجرت في أروقة هذا المؤتمر!

الحَجِّي علامة فارقة في تاريخ الأندلس:

يمكنني أن أقول بارتياح: إن مشهد التاريخ الأندلسي بعد عبد الرحمن الحَجِّي ليس كَقَبْلِه. لقد كانت مادة التاريخ الأندلسي قبله مادة خامًا لا يحسن استخدام مصادرها المتخصصة ومخطوطاتها إلا مَن تَبَحَّر وتَعَمَّق في هذا التخصص، حتى كُتُب المعاصرين التي سبقت عمله بقليل كانت تميل إلى التخصص والأكاديمية التي لا تجد القبول الواسع لدى العامة.

فلتوفيق الله له رَحِمَهُ ٱللَّهُ يمكن أن نعزو جزءًا غير يسير من حركة تحويل تلك المادة الخام إلى أخرى قابلة للاستهلاك والعرض للأقل اختصاصًا وللعامة الذين يعتريهم الفضول في التعرف على هذا المقطع المهم من تاريخنا. وكتابه «التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة» يعد حجر أساس في التحول الذي شهده حقل العمل هذا.

لقد ملأ هذا الكتاب فراغًا كبيرًا، فطُبع أكثر من عشر مرات وغدا مقررًا دراسيًا في العديد من الجامعات، ولقد سقى عطاشًا بماء زلال أنقذهم بفضل الله من اللجوء إلى مياه آسنة متعفنة بالشبهات يسقون عطشهم بها، وإن بدت براقة في ظاهرها.

ومن العلامات الفارقة التي تركها هذا الكتاب -رفقة غيره من أعماله رَحِمَهُ ٱللَّهُ- أنه أظهر جرأة لم تكن شائعة في مواجهة أعتى الشبهات التي أُلصِقَت بتاريخنا زورًا وبهتانًا، مواجهةً مسلحة بالدليل العلمي الواعي المنصف، دون أن يُرهبه شيوع هذه الشبهة أو تلك، أو كونها جاءت على لسان أحد المستشرقين المعروفين مثلًا، ويكون رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذا قد بث جرعات من الأمل والشجاعة في أروقة البحث العلمي في عالمنا العربي والإسلامي.

لطالما أُعجب والدنا عبد الرحمن الحجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالفضل أبي رافع، ابن ابن حزم الأندلسي، الذي قال بعد وفاة أبيه (ابن حزم) أنه أحصى مؤلفاته فوجدها ٤٠٠ مجلد بحوالي ثمانين ألف صفحة. وإذا اعتبر عبد الرحمن الحجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ نفسه من رفاق ابن حزم، فلا يسعنا -برًا بوالدنا- إلا أن نقف موقف الفضل أبي رافع، مشيدين بما تركه والدنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ من تركة علمية كبيرة: قرابة ثلاثين كتابًا مطبوعًا وأكثر من عشرة كتب شبه جاهزة



للنشـر، جعلها اللّه شـفيعةً له يـوم القيامة كما كان يدعو اللّه تعالى دائمًا.

لم يبحث يومًا عن عمل، إنما عن ميدان:

لـم تكـن دوافعـه في كل تلـك الأعمـال شـخصية على الإطـلاق، بـل كان كل همه خدمـة دينه من خـلال رعاية تاريـخ أمتّه، كان عالمًا بـروح الفارس المحارب الذي آلمته سيطرة الشبهات على تاريخ أمته حتى غدت من المُسَـلَّمات، فحمل سـيف هـذا التاريخ مستندًا على أقوى الأدلة العلمية، فسقطت بحمد اللّه الكثير من تلك الشـبهات بضربة واحـدة من هذا السـيف العلمي التاريخي. وقد ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أكثر من مرة أنه يَعُدُّ عمله في التاريـخ مـن العبادة وأنه نـوع من أنواع الجهاد. لقد سـلك طريقًا وعرًا شَحَّت فيه الرفقـة، ولم يكـن رَحِمَهُ ٱللَّهُ يبالي لذلك، وقد جلبـت له تلـك الجرأة وذلـك التجرد للعلم الكثير من المتاعـب التي أجبرته على حمل حقيبته من مكان إلى آخر!

نجد أنفسـنا في اتفـاق كبير مع من قال لـه في أحد الأيام الصعبة: لو أن أحدًا أنفق نصف جهـودك في دراسـة التاريخ الأوربي الحديـث لَنُصبت له التماثيـل النصفية في سوح الجامعات الأوربية، ولسُمِّيَت القاعات المتعددة باسمه، إلا أنه كان دائمًا ما يرد بأن هذه المظاهر لا تهمه ولا يحسب لها حسابًا، وأنه لا يألم لفقد منصب أو أي مزية دنيوية، فهـو لا يبحث عن «عمـل وإنما عن ميدان» يوصل من خلاله رسـالته. والحق أنه لا بد لمن يعرفه ويخبر تصرفاته أن يدرك منها ما يؤكد ذلك. لقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ ينفق السـاعات بعد السـاعات من وقته، مع البسـطاء قبل غيرهـم، يصـب العلم صبًا لـكل من يطرق بابـه، لا سـيما مـن يتوخى فيهـم الصدق والإخلاص في العلم والتوجّه. نرجو أن يكون فيما أدخره اللّه له خير عوض، ولعله شاطرَ الكثير من أعلام التاريخ الأندلسـي كطارق بن زياد وموسـى بن نصير بشـيء من هذا الظلم الدنيوي، والذَين جمعهما مع غيرهما في كتابه الجميل «المظلومون في تاريخنا».

ووجدنا في ملاحظاته التي كتبها رَحِمَهُ ٱللَّهُ، التبرير التالي لعدم رغبته في نشر مذكراته التـي كتب أكثرها ثم تثاقـل في المضي بها: «مـا كنـتُ أبحث عـن الشـهرة ولا أريدها، فقـط أريـد أن يعـرف المسـلم تاريخه من خلال ما أقدمه له».

رفيقة دربه أول اللاحقين به:

كانت وفاة الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مدريد يوم ١٨ يناير ٢٠٢١م مفاجئة، إثر أزمة قلبية دهمته. وما هي إلا بضعة أشهر حتى لحقت به الوالدة الحبيبة النجيبة، أم بلال، منال عبد اللطيف الربيعي، في ٥ سبتمبر ٢٠٢١م، بعد معاناة من كورونا وتبعاتها دام قرابة الشهرين والنصف. كان أحدهما للآخر خير رفيق في مشوار الحياة، ولعل ثمة إشارة لهذا القرب بينهما في سرعة رحيل والدتي بعد والدي. لقد شاء الله العلي القدير واختار والدي ووالدتي أول الراحلين منا عن هذه الدنيا، لعله الحكيم (سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ) شاء ذلك لأنهما أكثرنا قربًا منه واستعدادًا للقائه، فعسى أن يكون ذلك تذكيرًا لنا بالعودة إليه سبحانه والاستقرار والاستمرار على الطريق إليه، فلا فلاح حقيقي في هذه الدنيا إلا على هذا الطريق، نسأل الله أن نكون وإياكم من سالكيه.

كانت أمي رَحِمَهَا ٱللَّهُ تعمل دومًا دون توقُّف، كالساعة. تَجَمَع عملها التربوي الشَّاق في الصباح مع أعباء المنزل الكثيرة بعد الظهر، فضلًا عن مساعدة والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المساء، لا سيما في كتابة كتبه وتنظيمها. كل ذلك قَدَّمَتْه بِصَدْرٍ رَحب، لا تكاد تذكره، وما كُنّا لنَعْرِف شيئًا عَنْه لولا إشادة والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ المستمرة بِكَرَمِها ووَقْفَتِها معه في مشوار الحياة. كثيرًا ما كان يذكر والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ويُشِيد بكتابتها مسودة كتابه «التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة» بيدها مَرَّات خمس. إليها أَهْدَى الوالدُ إحدى أوائل كتبه وأكثرها أهمية: «نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي»، أهداه إليها بهذه العبارات الرقيقة: (إلى الَّتي أَحْسَنَتْ صُحْبَتي، وتَبْذِلُ جُهدَها في معاوَنتي، وَفاءً وتَقْدِيرًا .. إلى زوجتي).

الإهداء

إلى التي أَحْسَنَتْ صُحْبَتي

وتَبْذُلُ جُهْدَها في مُعاوَنَتي

وَفاءً وتَقديراً ...

إلى زوجتي .

صفحة الإهداء في كتاب «نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي»

ثـم كَتَبَ لها من الشِـعْر أرَقَّه، لا سـيما تلـك القصيـدة التـي كَتَبَهـا لهـا ولأُختـي الكُبـرى ابتهـال (وحيدتهمـا يومَها)، وذلك حين بَعُدا عنه بسبب سفر طال أَمَدُه. كانت تلك القصيدة أول تجاربه الشـعرية الجَادَّة، جاءت بعنوان: «زوجتي منال».

من أبياتها[١]:

حبيبة قلبـي هَـيًّـا تعـالـي
فـأنـتِ أنيسـي وكُـلّ مآلـي
أنـا لا أُطيـق عنـكِ بِعـادًا
بـين غُربتـي ووحـش الليالي
أمَـا عَلِمـتِ الحُبَّ كيـف بَراني
أضنـاني شوقًا وأساء حالي
فـلا نـومٌ يطيـبُ ولا طعـامٌ
ولَـمْ يَـرْوِنـي مـاءُ الـزلالِ
قَضَيتُ الصيـفَ منتظرًا لقاءً
مَلَلتُ الصيفَ وعيشًا في الجبالِ
تَهيـمُ النفسُ في آفـاقِ شـوقٍ
بـين شـرقٍ وغـربٍ في تـوالِ
أَقْـرِضُ الشعـرَ فيـكِ ولسـتُ
كثيـرَ القـوافي رَبيـبَ خيـال
لا جعـل اللهُ سـاعةً وهـي تَمرُّ
دونمـا ذِكْـرُكِ يَحْـتـلُّ بـالي
ووليـدَتُـنـا صُـبِّـرْتُ عنـها
سِـتًّا مِن الشـهورِ دون «ابتهالِ»
فـلا بَعُـدْتُم بعـد اليـوم عني
ولا بَعُـدْتُ عنكـم يـا «منالـي»

مسيرة.. بالمتابعة جديرة:

لطالمـا تمنّـى الوالـد رَحِمَهُ ٱللَّهُ إطـلاق مركـز بحثي لدراسـات التاريخ الإسـلامي والأندلسي، وسـعى لذلك عشرات السنين، ولكن حالت دون تحقيقه المُكنةُ المادية. بدأت هـذه الفكـرة في ثمانينات القـرن الماضي، إذ نُشِـرَت معـه حينها مقابلـة في صحيفة البيـان الإماراتيـة، يـوم ٩ مـارس ١٩٨٥م، تحت عنوان: إعادة كتابة التاريخ الإسلامي، مشـروع يتكلـف مليـون دولار. وبعد مرور سـنين دون تحقـق هـذا الهـدف، مضـى الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ بفكرة مختصرة لكنها تسـير في هذا المضمار نفسـه، وهـي مجلة علمية مُحَكَّمَة لنشـر دراسـات رصينة في التاريخ الإسـلامي. وبالفعل، صدر العدد التجريبي مـن هذه المجلة، تحت عنـوان «البذور»، إلا أنها بِدَورها كذلك لم يُكتب لها الاسـتمرار، مع أسف شديد.

(١) أبقينـا علـى الأبيـات كمـا أوردَها نجلـه الكريم الدكتـور أحمـد الحجي، مع ما فيها من كسـر في الـوزن، لأنها تمثـل مرحلة مهمة مـن حياته كونها أول تجاربـه، ولها دلالات يسـتفيد منهـا المهتمون بسيرته رَحِمَهُ ٱللَّهُ. (التحرير)



الاتحاد — صفحة (٥) — ●● الإمارات ●● — السبت ٩ مارس ١٩٨٥

إعادة كتابة التاريخ الإسلامي

مشروع يتكلف مليون دولار

«دراسة التاريخ لها أهمية علمية كبرى.. في الشهادة على مدى حضارة الأمم وتقدمها.. وتأكيد مجدها القديم».. كلمات قالها الدكتور عبدالرحمن الحجي أستاذ التاريخ الأندلسي بجامعة الإمارات.. أثناء مشاركته طلاب الجامعة في رحلتهم إلى الأندلس التي زاروا خلالها الآثار الإسلامية بأسبانيا «الأندلس».

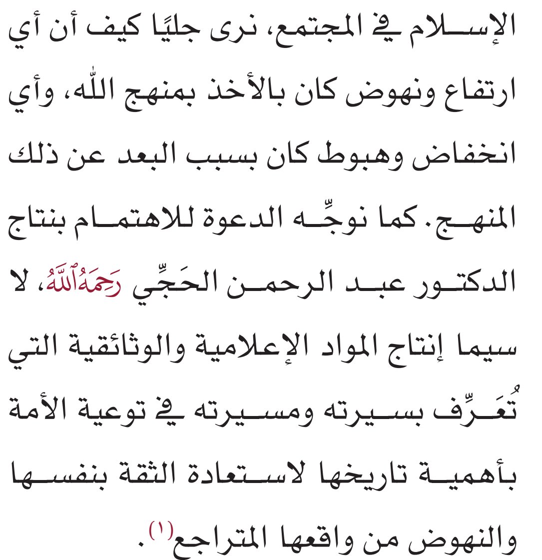
• تحقيق: عبدالرحمن نقي

• د. عبدالرحمن الحجي

كل صباح

مدرس خاص جدا

واليوم نُجَدِّد الدعـوة لتبني هذه الفكرة المهمة من قِبَل المؤسسات والأفراد، فتاريخنا الإسلامي جدير بهذا الاهتمام. إنه الصورة العمليـة للإسـلام، مـن خلالـه نـرى أثـر



الإسـلام في المجتمع، نرى جليًا كيف أن أي ارتفاع ونهوض كان بالأخذ بمنهج اللّٰه، وأي انخفاض وهبوط كان بسبب البعد عن ذلك المنهـج. كما نوجِّـه الدعوة للاهتمـام بنتاج الدكتـور عبـد الرحمـن الحَجِّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لا سيما إنتاج المواد الإعلامية والوثائقية التي تُعَـرِّف بسـيرته ومسـيرته في توعية الأمة بأهميـة تاريخها لاسـتعادة الثقة بنفسـها والنهوض من واقعها المتراجع[1].

(١) حسـاب أ.د. عبـد الرحمـن الَحجِّـي في تويتـر وفيسـبوك تحت مُعَرِّف: aaelhajji وفي يوتيوب: abdulrahmanelhajji








الدكتور أحمد الحجي وذكرياته مع والده أ. د. عبد الرحمن علي الحجي

حوار: أبو الحسن الجمال(*)

رحل المؤرخ الكبير، الأستاذ الدكتور عبد الرحمن علي الحجي، في ١٨ يناير ٢٠٢١، بعد رحلة حافلة بالأعمال الجليلة في مجال تاريخ المغرب والأندلس، وقد ذاعت شهرته في الشرق والغرب، وعرفته دوائر البحث العلمي. ومؤلفاته وأبحاثه في التاريخ والفكر والحضارة الإسلامية تشهد على تفرده وموسوعيته، وكان يتسلح خلال هذه الرحلة بالصدق والإخلاص.

ولد في المقدادية، بمحافظة ديالي، بالعراق الشقيق عام ١٩٣٥، وتعلم في مدارس العراق، ثم ولى شطره إلى مصر المحروسة ليتعلم في كلية دار العلوم بالقاهرة، وتحرج فيها عام ١٩٥٩، ثم حصل على الدبلوم العالي من جامعة مدريد المركزية عام ١٩٦١، وعلى الدكتوراه من جامعة كمبردج بالمملكة المتحدة عام ١٩٦٦، في رسالة بعنوان «العلاقات الدبلوماسية الأندلسية مع أوربا الغربية خلال المدة الأموية»، وقد عمل في العديد من الجامعات العربية، وهو أحد مؤسسي جامعة الإمارات العربية المتحدة، ثم استقر به المقام في مدريد منذ عام ٢٠٠٠ وحتى رحيله في بداية عام ٢٠٢١، وكان يحلو له أن يطلق على الأندلس: أرض الأجداد، وعن مدريد: أول مدينة أوربية يؤسسها المسلمون.

وقد أمد المكتبة العربية بالعشرات من الكتب العلمية التي تنوعت بين التأليف والتحقيق وشملت التاريخ الأندلسي والفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية وعلم التاريخ، والسيرة النبوية، من أهم مؤلفاته:

(*) كاتب ومؤرخ مصري.

«التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة»، و«تاريخنا مَن يكتبه؟»، و«نظرات في التاريخ الإسلامي»، و«تاريخ الموسيقى الأندلسية»، و«أندلسيات»، كما حقق سفرًا من كتاب «المقتبس في أخبار الأندلس» لابن حيان القرطبي، ويتحدث هذا الجزء من المقتبس عن خمس سنوات (٣٦٠-٣٦٤هـ = ٩٧١-٩٧٤م) من أيام الخليفة: الحَكَم الثاني، المستنصر بالله (٣٥٠-٣٦٦هـ = ٩٦١-٩٧٦م). نُشر هذا الجزء عن نسخة منقولة عن الأصل. وغيرها من الأعمال...

وكان لزاماً أن نقترب أكثر من حياة الدكتور الحجي ونتعرف إلى كواليس حياته من خلال أقرب الناس إليه ابنه الدكتور أحمد الحجي، أستاذ العلوم المالية المشارك، جامعة كيبيك في مونتريال، كندا، في حوارنا هذا، الذي عرجنا فيه بين حديث الذكريات الحافلة والتي تثير في النفس الشجن.

❁ فقلت له: لماذا اتخذ الوالد مدريد مقامًا في أخريات حياته؟

- الحقيقة أن علاقة والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بإسبانيا كانت دومًا وثيقة، والأمر كذلك بالنسبة لكل أفراد العائلة. لا يخفى على الجميع أن مرد هذه العلاقة الخاصة مع هذا البلد الجميل هو تخصص الوالد بالتاريخ الأندلسي وعشقه للأندلس، كان دومًا يسميها أرض الآباء والأجداد، أما مدريد فيحلو له تلقيبها بالعاصمة الأوربية التي بناها المسلمون.

> علاقة والدي بإسبانيا كانت دومًا وثيقة، والأمر كذلك بالنسبة لكل أفراد العائلة

كان حقيقةً يشعر أنه أندلسي قذف به الزمان في العراق، فكان لزامًا عليه أن يعطي أرض الآباء والأجداد حقها من الوفاء والزيارة والتفقد. أذكر مرة يوم كنا في العراق وأنا طفل صغير أيام الحصار الجائر الذي فُرِضَ على هذا البلد، سافر والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى الأردن ابتداءً، ثم بعد أيام اتصل بنا مما بدا أنه مكان آخر، سأل أختي مآب التي كانت تكلمه على الهاتف، هلا حزرتِ أين أنا؟ لم يَكُن من الصعوبة عليها تعليل نبرة السعادة في صوته رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنه في المكان المُحَبَّب إلى قلبه: إسبانيا، فأجابته بسرعة بديهة: أنت يا أبي في أرض الآباء والأجداد، فضحك عاليًا حتى أنني سمعت الضحك من الهاتف عبر مسافة عشرة أمتار تفصلني عنه، أظنه استحسن هذا الرد من أختي مآب.



أما عن سبب إقامته الدائمة في مدريد والتي بدأت منذ حوالي عام ٢٠٠٠م، فهذه هي الفترة التي بدأ يدخل بها مرحلة التقاعد، فمعرفته بإسبانيا ولغتها وحبه لها، فضلاً عن حمله لجنسيتها، جعل الاستقرار فيها أمرًا منطقيًا في ظل الابتعاد شبه القسري عن بلدنا الأم العراق بسبب ما أَلَمَّ به من مآسٍ وكوارث في العقود الأخيرة.

عَشِقَ الوالدُ الأندلسَ، وكان يسمّيها أرضَ الآباء والأجداد، أما مدريد فيحلو له تلقيبها بالعاصمة الأوربية الّتي بناها المسلمون

❁ ما السبب الذي دعاه كي يترك العراق مسقط رأسه؟ وهل كان يحن إلى العراق للرجوع ذات يوم؟

- غادر الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ العراق بشكل متقطع منذ ستينات القرن الميلادي الماضي، في إعارات متعددة من جامعة بغداد، للمملكة العربية السعودية وللإمارات العربية المتحدة (التي ساهم في تأسيس جامعتها) وللكويت. لا يخفى عليكم صعوبة الوضع في العراق آنذاك، لا سيما للمستقلين سياسيًا مثل والدي، كان يجد حرية أكبر في العمل خارج العراق ومقدرة أكبر على المساهمات والمشاركات العلمية دون عوائق كبيرة.

العراق هو بلده الأم الذي يحتل في قلبه موقعًا خاصًا، لقد نشأ في تلك الأرض، في حقول الزراعة في محافظة ديالى، وظل ذلك المكان والقصص التي دارت فيه في أفكاره ليل نهار يشارك بها كل من جالسه.

غادر الوالد العراق بشكل متقطع منذ ستينات القرن الميلادي الماضي، في إعارات متعددة من جامعة بغداد

❁ ما الأعمال التي أنجزها في الغربة؟

- كثيرة، كان دائم التحسين والتعديل والإضافة على كتبه، وبالإضافة إلى ذلك أنجز العديد من الكتب والمواد الجديدة. لطالما تمنّى الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ إطلاق مركز بحثي لدراسات التاريخ الإسلامي والأندلسي، وسعى لذلك عشرات السنين، ولكن حال دون تحقيقه المُكنة المادية. بدأت هذه الفكرة في ثمانينيات القرن الماضي، إذ نُشِرَت معه حينها مقابلة في صحيفة البيان الإماراتية يوم ٩ مارس ١٩٨٥م تحت عنوان: إعادة كتابة التاريخ الإسلامي، مشروع يتكلف مليون دولار. وبعد مرور سنين دون تحقق هذا الهدف، مضى الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ بفكرة مختصرة لكنها تسير في نفس هذا المضمار، وهي مجلة علمية

مُحَكَّمة لنشر دراسات رصينة في التاريخ الإسلامي. وبالفعل، صدر العدد التجريبي من هذه المجلة، تحت عنوان «البذور»، إلا أنها بدورها كذلك لم يكتب لها الاستمرار، مع أسف شديد.

تمنّى الوالد إطلاق مركز بحثي لدراسات التاريخ الإسلامي والأندلسي، وسعى لذلك عشرات السنين، ولكن حال دون تحقيقه المُكنة المادية

الأمل -كل الأمل- أن تأخذ تلك الفكرة طريقها نحو التحقيق، سواء كانت من خلال مركز بحثي تتبناه جامعة تكون مهمته العناية بالتاريخ الأندلسي، أو من خلال مجلة علمية متخصصة في التاريخ الأندلسي، وإن كانت بعدد واحد سنويًا، يضم هذا العدد بضعة بحوث مُحَكَّمَة، أو من خلال كلتا الفكرتين هاتين. يكون لهذه المجلة لجنة علمية من المعروفين في التخصص. كما نتمنى إفراد جائزة بحثية باسم الراحل رَحِمَهُ ٱللَّهُ تُمنح لبحث متميز في التاريخ الأندلسي، وممكن أن تُرفَق بالمجلة المقترحة أعلاه، وفي هذه الحالة تُمَنَح هذه الجائزة لأفضل بحث في عدد المجلة، حسب رأي اللجنة المُحَكِّمَة.

❁ كيف كانت طقوسه عندما كان يكتب ويقرأ؟

- كانت أيامه عمومًا ليس فيها الكثير غير القراءة أو الكتابة، حتى أن والدتي (منال، أم بلال، رَحِمَهَاٱللَّهُ) كانت دومًا تمازحه وتقول له: فقط أخبرني متى سوف تتخرج؟ كان يعمل بهمة الشباب حتى آخر يوم، بمعدل ١٥ ساعة يوميًا، كانت طريقته في الكتابة أن يحضر المادة والأفكار ويبدأ بكتابة المسودة، نسخة بعد أخرى يبقى يعدل فيها، كان دقيقًا جداً فيما يكتب.

كانت أيامه عمومًا ليس فيها الكثير غير القراءة أو الكتابة

وقبل أن يبدأ عهد الطباعة في الكومبيوتر (التي تعلمها وأتقنها بعد تجاوز السبعين من العمر)، كانت والدتي رَحِمَهَاٱللَّهُ، رفيقة دربه، هي من تساعده في كتابة كتبه، يملي عليها كلمة كلمة وهي تكتب، رغم أعباء عملها الشاق طوال اليوم. كانت تعمل دومًا دون توقُّف، كالساعة. تَجْمَع عملها التربوي الشَّاق في الصباح مع أعباء المنزل الكثيرة بعد الظهر، فضلاً عن مساعدة والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المساء، لا سيما في كتابة كتبه وتنظيمها. كثيرًا ما كان يذكر والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ويُشِيد بكتابتها مسودة كتابه «التاريخ

الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة» بيدها مَرَّات خمس. رحمهما الله وجزاهما عنا خيرًا.

كانت الوالدة تُقَدِّم هذا بسرور ومَحَبَّة. لا تكاد تذكره، وما كُنّا لنَعْرِف شيئاً عَنْه لولا إشادة والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ المستمرة بِكَرَمِها ووَقْفَتِها معه في مشوار الحياة. إليها أَهْدَى إحدى أوائل كتبه وأكثرها أهمية: «نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي»، أهداه إليها بهذه العبارات الرقيقة: (إلى التي أحْسَنَتْ صُحْبَتي وتَبْذِلُ جُهدَها في معاوَنَتي، وَفَاءً وتَقْديراً.. إلى زوجتي). كما كَتَبَ لها من الشِعْر أرَقَّه.

> والدتي كانت ساعده الأيمن وكان يُشِيد بكتابتها مسودة كتابه: «التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة»

❁ الهموم التي كانت تنتابه في هذه الفترة؟

– كان الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتنفس الأندلس، ويعيش هموم أسلافه المورسكيين ومعاناتهم مع محاكم التفتيش. كثيرًا ما كنا نراه غارقًا في أفكاره، ليبدأ سيل دموعه بالنزول. وحين نستقصي نعرف أنه يتذكر مشاهد المورسكيين وهم يُحَرَقون أمام السلطات الكنسية في أحفالها «الإيمانية!»، قابضين على دينهم يورِّثونه جيلاً بعد جيل وهم تحت وطأة محاكم التفتيش الغاشمة. لَكَم كان يسوؤه مَن يسْتَخِفّ بآلام المورسكيين وجهادهم ومصابرتهم، بل يلومهم ويتخذ من قضيتهم مثالاً على مَن أضاع دينه وديارَه باللهو واللعب والرقص! وكثيرًا ما يأتي هذا الاستخفاف واللّوم ممّن لا يكاد قرأ عن الأندلس غير مطالعة سريعة. أشْعُر أنّ رحيل الوالد زاد القضية المورسكية يُتْمًا في هذه الأيام، نسأل الله أن يعوضها بمن يسير على هذا الدرب ويرفع لواء هذه القضية الإنسانية العادلة.

> كان الوالد يتنفس الأندلس، ويعيش هموم أسلافه المورسكيين ومعاناتهم مع محاكم التفتيش

الحَجِّي والأندلس صنوان، ولقد استحقَّ بجدارة ما أُطلق عليه من ألقاب عديدة بُعَيد وفاته: فارس الأندلس وعاشق الأندلس وشيخ المؤرِّخِين الأندلسيين.

❁ هل ترك الحجي أوراقًا أو مؤلفات أو أبحاث لم ترَ النور بعد؟

– حين سُئِلَ الفضل أبو رافع، ابن ابن حزم الأندلسي، عن مؤلفات أبيه (ابن حزم) بعد

وفاتــه، قال إنــه أحصى مؤلفاتــه فوجدها ٤٠٠ مجلـد بحوالـي ثمانين ألـف صفحة. وإذا اعتبـر عبـد الرحمـن الحجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ نفســه من رفاق ابن حزم، فلا يسـعنا -بِرًا بوالدنــا- إلا أن نقــف موقـف الفضل أبي رافـع، مشـيدين بمـا تركـه والدنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ من تركـة علمية كبيرة: قرابـة ثلاثين كتابًا مطبوعًا وأكثر من عشـرة كتب شبه جاهزة للنشـر، جعلها الله شـفيعةً له يـوم القيامة كما كان يدعو الله تعالى دائماً. وجواباً على سؤالكم: نعم، ترك الكثير من الكتب التي لم تطبع بعد، منها كتاب: «الإعجاز»، و«القضاء والقضاة في الأندلس»، و«النموذج الأندلسي في تطبيق الشـريعة الإسـلامية»، و«انتشار الإسـلام في الأندلـس»، و«المورسـكيون في المخطوطات والمصادر الأندلسية»، وغيرها الكثير.

❁ هل كان الإسـبان يقـدّرون مكانتـه أثناء مقامه هناك؟

- نعم، لا سـيما المستشرقين المنصفين. أذكـر مـرةً زيارتـه لقسـم اللغـة العربيـة والدراسـات الشـرقية بجامعـة مدريـد كومبلوتنسـي ليسـأل عن صديق له، فسـأل امرأة كانت تجلس خلف مكتبها في القسـم، فأجابته عن مـكان ذلك الصديق ثم أتبعت جوابها بسـؤال عن اسـم الوالد؛ فأجابها: عبد الرحمن الحَجِّـي، فإذا بها تقف خلف المكتب، كانت قد سمعت عن والدي وأعماله في التاريخ الأندلسي كثيرًا دون أن تلتقي به، أشـادت به وبعلمه، وقالت لـي: أبوك عالم كبير. عرفنا لاحقًا أنها أستاذة ومستشرقة إسـبانية معروفة اسـمها «ماريا خيسـوس فيجيـرا» كان ذلك الموقـف الطريف فاتحة علاقة قوية نشأت بينهما.

❁ مَـن مِن الشـخصيات التـي كان يتواصل معها ويقابلها وتحج إليه في مدريد؟

- كان يسـعد بـكل مَـن يطـرق بابه من الزائريـن للأندلس، العديـد كانوا يتصلون بـه حين يصلـون إلى مدريد، يكـرم كل من يقصده ويحثهم على زيارة الآثار الأندلسية ويزودهم بالكثير من المعلومات والكتب.

> كان يسـعد بـكل مَـن يطـرق بابـه مِـن الزائرين للأندلس

❁ هل عاش أحد من أولاده في جلبابه؟

- نعم، أخي أيمـن كان يعيش في مدريد معـه، أمـا نحـن أبنـاؤه الآخـرون فكنا في زيارات متتابعة له.

❁ الأيـام الأخيـرة في حيـاة الدكتـور عبد الرحمن الحجي كيف تتذكرها؟

– كمــا ذكـرتُ، كانـت حياتـه كلها عمل دون تذمـر ولا ملـل، إلا أن هــذه الوتيـرة بدأت تتســارع أواخر أيامــه حتى أصبح لا يبقى جالسًــا معنا على الطعام حتى انتهاء الجميع، وهو أمر كان معتادًا وحريصًا عليه فيما سبق. كان يأكل قليلاً ويسارع بمغادرة المائـدة إلى طاولة العمل. في آخر سـنة من عمره بـدأ بوضع اللمســات الأخيـرة على كتابة مــادة في إعجاز القـرآن والنبوة، كان يفكـر في هذا الأمــر ليل نهــار، باله يجول في إعجــاز القــرآن وعظمــة الخالــق، كأنه كان يســارع إلى لقــاء ربه ويســتعد لذلك. كان يعمــل بهذا الكتاب حتى ٤٠ دقيقة قبل وفاته، ترك الكتاب وخرجنا أنا وهو نمشي في الحــي، فكانت الوفــاة أثناء تلك الجولة. كان في أواخــر الأيام يفكر حتى في نومه في أمر هــذا الكتــاب، عندما أصحــو صباحًا أجــده قــد قطع شــوطًا كبيـرًا في الطباعة علــى الكومبيوتر، وإذا مــا صحونا في الليل نجده يقرأ الكتب المحيطة بفراشــه ويأخذ الملاحظــات. حتى عندما كنت أسَــلِّم عليه صباحًــا، أتذكـر أنّ رده كان يأتــي ســريعًا أواخــر الأيام (دون أن يفقد شــيئًا من دفئه وإحساسه وحنانه)، كان يلفّ رأسه تجاهي، يقول مســرعًا: أهلا حبيبــي، ويعود ليكمل الكتابة.

❁ كيف نقيّم تجربة الدكتور عبد الرحمن الحجي بعد الرحيل؟

– لــم تكــن دوافعــه في أي مــن أعماله شــخصية على الإطــلاق، بــل كان كل همه خدمــة دينه من خــلال رعاية تاريــخ أمتّه، كان عالمًا بــروح الفارس المحارب الذي آلمته سيطرة الشبهات على تاريخ أمته حتى غدت من المُسَــلَّمات، فحمل ســيف هــذا التاريخ مستندًا على أقوى الأدلة العلمية، فسقطت بحمد الله الكثير من تلك الشــبهات بضربة واحــدة من هذا الســيف العلمي التاريخي. وقــد ذكــر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أكثر مــن مرة أنــه يعتبر عملــه في التاريــخ من العبــادة وأنه نوع من أنواع الجهاد. لقد سلك طريقًا وعرًا شَحَّت فيــه الرفقة، ولم يكــن رَحِمَهُ ٱللَّهُ يبالي لذلك، وقــد جلبت له تلــك الجرأة وذلــك التجرد للعلم الكثير مــن المتاعب التي أجبرته على حمل حقيبته من مكان إلى آخر!

> كانت مادة التاريخ الأندلسي قبل الحجي مادة خامًا لا يحسن استخدام مصادرها المتخصصة ومخطوطاتها إلا مَن تَبَحَّر وتَعَمَّق في هذا التخصص

يمكنني أن أقول بارتياح: إن مشهد التاريخ الأندلسي بعد عبد الرحمن الحَجِّي ليس كَقَبْلِه. لقد كانت مادة التاريخ الأندلسي قبله مادة خامًا لا يُحسن استخدام مصادرها المتخصصة ومخطوطاتها إلا مَن تَبَحَّر وتَعَمَّق في هذا التخصص، حتى كُتُب المعاصرين التي سبقت عمله بقليل كانت تميل إلى التخصص والأكاديمية التي لا تجد القبول الواسع لدى العامة. فلتوفيق اللّه له رَحِمَهُ ٱللَّهُ يمكن أن نعزو جزءًا غير يسير من حركة تحويل تلك المادة الخام الى أخرى قابلة للاستهلاك والعرض للأقل اختصاصًا وللعامة الذين يعتريهم الفضول في التعرف على هذا المقطع المهم من تاريخنا.

وكتابه «التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة» يُعد حجر أساس في التحول الذي شهده حقل العمل هذا. وقد طُبع أكثر من عشر مرات وغدا مقررًا دراسيًا في العديد من الجامعات، وسقى عطاشًا بماء زلال أنقذهم بفضل اللّه من اللجوء إلى مياه آسنة متعفنة بالشبهات يسقون عطشهم بها، وإن بدت براقة في ظاهرها. ومن العلامات الفارقة التي تركها هذا الكتاب، رفقة غيره من أعماله رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أنه أظهر جرأة لم تكن شائعة في مواجهة أعتى الشبهات التي لُصِقَت بتاريخنا زورًا وبهتانًا، مواجهةً مسلحة بالدليل العلمي الواعي المنصف، دون أن يرهبه شيوع هذه الشبهة أو تلك، أو كونها جاءت على لسان أحد المستشرقين المعروفين مثلاً، ويكون رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذا قد بث جرعات من الأمل والشجاعة في أروقة البحث العلمي في عالمنا العربي والإسلامي.

❁ هل كُرم الدكتور الحجي بما يليق في وطنه وفي الدول الأخرى؟

– نجد أنفسنا في اتفاق كبير مع مَن قال له في أحد الأيام الصعبة: لو أن أحدًا أنفق نصف جهودك في دراسة التاريخ الأوربي الحديث لنُصبت له التماثيل النصفية في سوح الجامعات الأوربية، ولسُمِّيَت القاعات المتعددة باسمه، إلا أنه كان دائمًا ما يردّ بأن هذه المظاهر لا تهمه ولا يحسب لها حسابًا، وأنه لا يألم لفقد منصب أو أي مزية دنيوية،

فهو لا يبحث عن «عمل وإنما عن ميدان» يوصل من خلاله رسالته. والحق أنه لا بد لمن يعرفه ويخبر تصرفاته أن يدرك منها ما يؤكد ذلك. لقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ ينفق الساعات بعد الساعات من وقته، مع البسطاء قبل غيرهم، يصب العلم صبًّا لكل من يطرق بابه، لا سيما مَن يتوخى فيهم الصدق والإخلاص في العلم والتوجّه. نرجو أن يكون فيما ادخره اللّه له خير عوض، ولعله شاطَرَ الكثير من أعلام التاريخ الأندلسي كطارق بن زياد وموسى بن نصير بشيء من هذا الظلم الدنيوي، والذَين جمعهما مع غيرهما في كتابه الجميل «المظلومون في تاريخنا».

ووجدنا في ملاحظاته التي كتبها رَحِمَهُ ٱللَّهُ، التبرير التالي لعدم رغبته في نشر مذكراته التي كتب أكثرها ثم تثاقل في المضي بها: «ما كنتُ أبحث عن الشهرة ولا أريدها، فقط أريد أن يعرف المسلم تاريخه من خلال ما أقدمه له».

إلا أننا مع ذلك نعتقد أنّ عمله لم يذهب سدًى، وحاشا للّه أن تكون عاقبة الأمر كذلك لمن نحسبه مخلصاً في عمله في سبيل اللّه ومتحررًا من أي قيد دون ذلك.

> إرثُ والدِنا الراحلِ كبيرٌ، والمسؤوليةُ كبيرةٌ على كلِّ المهتمِّين بالتاريخ الأندلسي أنْ يُولوا هذا الإرثَ اهتمامًا يستحقه

❁ هل من الممكن أن تعاد طباعة أعماله في قابل الأيام؟

– نعم، هذه من الأعمال التي سوف نسعى لها إن شاء اللّه. إرث والدنا الراحل كبير، والمسؤولية كبيرة على كل المهتمين في التاريخ الأندلسي أن يولوا هذا الإرث اهتمامًا يستحقه.

كما نسعى لإنشاء موقع إلكتروني بمواصفات فنية متميزة يكون مظلةً ومرجعًا للكثير من الأعمال المتعلّقة بالوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ. مثلاً: جمع مئات المقالات والبحوث المتناثرة في صفحات المجلات والصحف، لحفظها من الضياع أولاً، ثم لتقديمها بشكل مُيَسَّر لجميع المهتمين، ووضع ملفات وروابط المواد الصوتية والمرئية.








جهود الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الحَجِّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التاريخ الأندلسي

أ. د. عماد الدين خليل (*)

ثلاثة من كبار المؤرخين المعاصرين أنجزوا مؤلَّفاتهم القيِّمة عن التاريخ الأندلسي، فانتشرت في الآفاق ولَقيت رواجًا وقبولاً كبيرًا لدى القراء والباحثين: محمد عبد الله عنان، والأستاذ الدكتور حسين مؤنس، والأستاذ الدكتور عبد الرحمن الحّجِّي، رحمهم الله وأسكنهم فسيح جَنَّاته، على ما قَدَّموه بإخلاص عن تلك الحلقة المتلألئة من تاريخ أمتنا الإسلامية في الأندلس، في السياقين السياسي والحضاري.

لكن ما يميِّز الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الحَجِّي عنهما هو التزامه بالمنهج الإسلامي الأصيل في عرضه للتاريخ الأندلسي، واعتماده القِيَم الموضوعية العادلة في تقييمه لما فعله الأجداد في الساحة الأندلسية، وردوده العلمية على مقولات المستشرقين التي جانبت الصواب. ويكفي أن يرجع المرء إلى كتابه «التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة» وإلى تهميشاته الغنية وقائمة مصادره العربية والإفرنجية وإلى عرضه الرصين الذي لم يترك فيه شاردة ولا واردة إلا وضعها تحت مجهره الفاحص المُحَلِّل، الذي أوصله إلى شبكة قَيِّمة من التحليلات والنتائج بخصوص العديد من حلقات التاريخ الأندلسي التي طالما ثار حولها الجدل والنقاش.

ليس هذا فحسب، بل إن منهجه المُحْكَم هذا يمضي للتعامل مع العديد من مراحل التاريخ الأندلسي والعلاقات الخارجية لخلفائه وأمرائه، ومعطياته الحضارية الخصبة.

(*) أكاديمي ومؤرخ وكاتب وناقد، من العراق.



فما يزداد قراؤه إلا إعجابًا وتقييمًا لهذا الباحث الإسلامي الجاد الذي عرف كيف يكشف النقاب عن جوانب عديدة من هذه الصفحة الرائعة في تاريخنا الإسلامي.

هذا، إلا أن الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الحَجِّي هو ثالث ثلاثة من جيل المؤرخين العراقيين الإسلاميين الذين طالما أشاد ببحوثهم الخصبة في ساحة الكتابة في التاريخ الإسلامي الطلبة والباحثون والمتابعون: الأستاذ الدكتور أكرم ضياء العمري، والأستاذ الدكتور عبد الرحمن الحَجِّي، والأستاذ الدكتور عماد الدين خليل. كلهم انطلقوا من البؤرة ذاتها: المنهج الإسلامي الأصيل الذي يرفض التدليس والتشويه، والذي يسعى إلى عرض الوقائع والأحداث بأقصى درجات الحيطة والعلمية والموضوعية.

ومن يدري، فلعل هؤلاء الثلاثة في جهدهم المكافح في البحث التاريخي لما يزيد عن الستين عاماً، وإنجاز عشرات المؤلفات في ساحاته، يعطون الدرس لمن سيجيئ بعدهم بضرورة مواصلة العمل والانكباب على التأليف، حتى وهم يدخلون مرحلة الشيخوخة ويواري بعضهم التراب، فلعل ذلك يشفع لهم عند خالقهم جلَّ في علاه يوم الحساب، مصداقاً للآية الكريمة:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة إبراهيم: ٢٤، ٢٥].

رحمك الله أيها الأخ الغالي وتَقَبَّلَك في الصالحين. لقد سبقتنا إلى الآخرة، فلعلك تساهم مع كل الأحبة في أن تكون شفيعنا هناك يوم يُكتَب علينا مفارقة هذه الدنيا الزائلة التي لا تساوي شروى نقير.

لقد تلقيتُ نبأ وفاتك بطبقتين من الحزن: حزن الناس بفقد أحبابهم. وحزني المضاعف عليك أيها الأخ والصديق. لقد غبتَ عني أخيرًا فكسرتَ ظهري، فما أنا وأنت إلا أخوة مدّوا حياتهم من بدئها حتى أقصاها من أجل إعلاء كلمة الله، والدفاع الموصول عن الحقيقة التي غابت عن أذهان الكثيرين. فما كان منا إلا أن نشحذ أقلامنا عبر واحدة من أوسع الجبهات في الجدل والملاحقة بين أبناء هذا الدين وخصومهم من الفجرة والمارقين. ترى هل أدّينا الفريضة التي طَوَّقنا بها أعناقنا، وأمضينا أعمارنا في سبيل

نصرتهـا؟ عِلْم ذلك عند الله. ولسـوف تكون وفاتك بمثابة المفتاح الذي ستتلقى بواسطته الجواب. أما أنا فعَلَيَّ أن أنتظر ربما سنوات لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة. وحينذاك سوف ألحق بك وسوف أقف خاشعًا منحنيًا خجولاً أمام الله -جل في علاه لتلقِّي الجواب-. تُرى كيف سيكون؟ إنّ أوصالنا لترتعد وهي تتذكر اللّحظة الفاصلة، لحظة الحسـاب العسـير، ومَـن يدري، فلعلنا نخرج مرفوعي الرؤوس.. لعلنا! فمن يدري؟!

أيها الأخ الغالي، دعواتي لك صباح مساء أن يتقبلك الله في الشهداء والصديقين، وأن يتقبَّـل منك جهد عُمُـر كامل في الدفاع عن عقيدته. مُمَحِّضًا تخصصه في التاريخ للرد على الخصوم والأعـداء، وقبل هذا لتقديم جملـة مـن الأعمـال البنائية التـي اعترف الجميع بقـوة منهجها في البحث والتحقيق، فسلام عليك. ولا أقول وداعاً، ولكني أقول إلـى اللّقـاء في يوم قريب.. إلـى اللقاء أيها الأخ والصديق.








في ذكرى العلامة عبد الرحمن الحجي

أ.د. قيس بن محمد آل الشيخ مبارك(*)

لقد عرفتُ أستاذنا القدير، العلامة الجليل الدكتور عبد الرحمن بن علي الحجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ربما سنة أربعِمئةٍ وألف، حين اشتريت كتابه «التاريخ الأندلسي» وكنت للتَّوِّ انتهيت من قراءة «الحلل السندسية» لشكيب أرسلان.

وكنتُ معجبًا بالحلل السندسية، غير أن إعجابي بالتاريخ الأندلسي كان ذا معنًى آخر، فلم أجد فيما قرأتُ مَن كَتَب بهذه اللغة، فقد كان دقيقًا في تصوير الوقائع، حيث يصف الواقعةَ بدقة عالية، ويشير إلى ما يحتفُّ بها من أحداث، مما يسبقها أو يلحقها، ويذكر أسبابها ومقدماتها، ويشير إلى تداعي العلماء والصلحاء، ويذكر كيف كان العلماء في المقدمة، ليكونوا قدوةً لغيرهم.

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعرض أقوال المؤرخين ويقارن بينها، وكأنها ماثلة بين عينيه، ثم يستخرج الصواب فيما يظهر له، بأمانة علمية، فرغم أنه لايُخفي ما يُكِنُّه في نفسه مِن عاطفةٍ جيَّاشةٍ، غير أنه لا يعدل عن الحقيقة.

وكانت لغة الكتاب لغةً عربية فصيحة، وعباراتٍ رائقة، وأسلوبٍ رصين واللغةُ أداةُ التعبير والتصوير، فهي وعاءُ الفكرة، فما أحوج المؤرخ إلى دراسة اللغة العربية، ليُحسن الكتابة بها، فإن المؤرخ كغيره من

(١) عضو هيئة كبار العلماء في السعودية (سابقًا)، وأستاذ الفقه وأصوله بجامعة الملك فيصل.

المختصين في علوم التربية والاجتماع وغيرها، إذا لم يُحسن التعبير، فقد يُفسد المعنى، و(قد) -هنا- للتكثير.

وبعد سنوات من قراءتي لهذا الكتاب، كنت في زيارة لمدينة الشارقة، فاتصلتُ بأستاذي التَّقيِّ النَّقيِّ الشيخ حمد رقيط -حفظه الله وبعين عنايته تولاه-، أطلب زيارته، فرحَّب بي، وحين ذهبتُ إليه، فوجئتُ بالدكتور عبد الرحمن الحجي عنده، وكان معهما رجلٌ ثالث من السودان، حيث جرى حديثٌ طويل بيني وبين الدكتور عبد الرحمن، وأني أعرفه منذ زمن، وتحدثنا حول الأندلس وأخبارها، فوجدتُه بحرَ علمٍ يُعَبُّ عُبابه، وسألته رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن بعض ما أشكلَ عليَّ في تاريخ الأندلس، فطربَ جدًا، وكان سعيدًا أنْ رأى فيَّ مَن يعرف كيف تؤكل كتف الاستدلال، مسرورًا برؤية من يشاركه همَّه، فصار المجلس لي وله.

وقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذا همٍّ كبير، وكنت أرى ذلك في حديثه، وأتذكر قول جدِّي لأمِّي، وخال والدي، الشيخ عبد العزيز بن حمد المبارك:

وأَتعبُ نفسٍ نفسُ حرٍّ تعشَّقَتْ
جسامَ المعالي وَهْيَ ذاتُ يدٍ صِفرِ

وقد أبلغني يومها أنه عازم على الانتقال والاستقرار في الأندلس، وأنه سيتفرغ للتاريخ الأندلسي، وأخبرني أنه فوجئ أنه لا يمرَّ به نهارٌ، إلا ويكتشف بالأندلس أثرًا، وفهمت منه أنه اختار المقام في قرطبة، لكن لا أدري ما الذي جعله يستبدلها بمدريد.

وأخبرني يومها أنه ينوي إصدار نشرة يسميها «البُذور» ينشر فيها أحوال الأندلس وأخبارها، وبعد صدورها، أرسل إلي عددًا منها، واستمر التواصل بعدها بيني وبينه، ولقيته مرة أخرى في أبو ظبي، وبعدها صار التواصل عبر الهاتف فقط، حيث كان يعيش في الغربة، والغربة ليست عيبًا يعابُ به، وإنما العيب على أمَّةٍ لمْ يجد فيها مثلُه مستقرًا، فضلًا عن أن تستفيد من علمه وتدعمه في جهوده، ورحم الله القاضي أبا محمد، عبد الوهَّاب بن نصر البغدادي حيث يقول:

وكم قائلٍ: لو كان وُدُّك صادقًا
لبغدادَ لم ترحل، وكان جوابيا:
يقيم الرجالُ الموسرون بأرضهم
وترمي النَّوَى بالمقترين المراميا

وقد كان آخرُ لقاءٍ لي معه في شقَّته البسيطة في مدريد، يوم الأحد السادس عشر من شهر الله المحرم ١٤٤١هـ،

الموافق ١٥ سبتمبر ٢٠١٩م، برفقة الشيخ الداعية الدكتور عبد اللّه بن أسامة السَّيِّد الدوماني الحسني.

وكان لقاءً قصيرًا جدًا، لأني رأيته متعبًا، ومعه ابنُه النجيب أيمن، الذي فرَّغ نفسه لخدمة أبيه في الغربة، فقد كان الدكتور عبد الرحمن بعيدًا عن زوجه وابنتيه، فهنَّ يُقِمْنَ في أبو ظبي، وقد طلبتُ منه في هذا اللقاء بحثه المعنون بـ: «انتشار الإسلام في الأندلس» والذي لخص فيه حقيقة الفتح الأندلسي، بقوله: (إزالة الحواجز مِنْ أمام الشعوب لتختار -حسب قناعتها ورغبتها وتوجهها، دون عوامل أخرى- بعد أن يَتَعَرَّفَ أهلُها على الإسلام، لذلك كان فتحًا إنسانيًا، وبدايةً لحدَثٍ حضاريٍّ فريد لإسبانيا وأوروبا، ثم للعالَم) فبادر بإرساله إليّ بالبريد الآلي بكل سرور.

وقد كان لقائي معه لقاءَ مودّعٍ، فخرجت من عنده والألم يعتصرني، أني لا أملك له شيئًا، فقد كنت أظنُّ أني لن ألقاه بعدها إلا في جنة الخلد -إن شاء اللّه تعالى-.

ورحم اللّه عبيد اللّه بن الحسين حين قال:

من لم يَذُقْ فُرقةَ الأحبابِ ثمَّ يَرَى
آثارَهم بعدهم لم يَدْرِ ما الحُزْنُ

وإذا كان مكانه بيننا كبيرًا، وكان فَقْدُه علينا أليمًا، وعلى أهله وأولاده ومحبيه، فإن عزاءَنا فيه، أنه في خير، وإلى خير، وليس لنا إلا ما يُرضي ربَّنا، الصبر والدعاء، فهو إلى الدعاء أحوج منه إلى الثناء.

وقد ذكر العلماء أن في التعزية ثلاثة أشياء:

أحدها: تسلية أهل الميِّت وحضُّهم على الصبر والرضا بالمقدور.

الثاني: الدُّعاءُ للمَيِّتِ وَالتَّرَحُّمُ عَلَيْهِ والاسْتِغْفارُ لَهُ.

الثالث: الدُّعاءُ لأهل الميِّت بالثَّواب وحُسْن العُقبى والمآب.

وإن مِن التقوى ومِن أداء الفرائض أن نقول عند المصائب: إنا للّه وإنا إليه راجعون.

فَثِقُوا يا أهله ويا أحبابه بِاللّهِ وارْجُوه؛ فَإِنَّ المُصَابَ مَنْ حُرِمَ الثَّوَاب، وإن في اللّه عزاءً من كلِّ مصيبة، وخَلَفًا من كلِّ ميِّت، وعوضًا من كلِّ فائت.



مع الدكتور الحجِّي: ذكريات ومواقف

أ. د. صالح محمد السنيدي [*]

الدكتور عبد الرحمن علي الحجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قامةٌ من قامات المختصين بالتاريخ الأندلسي، فرَض نفسه على هذه السَّاحة بمؤلفاته التي غطت جوانب مهمة في هذا الاختصاص، ثم رسَّخ هذا المفهوم بحضوره على الساحة التي استجدَّت أخيرًا، وهي وسائل التواصل الاجتماعي، فاقترب كثيرًا من قرائه والمهتمين بالأندلس فكرًا وحضارة، وهو ما عجز عنه آخرون ربما لهم الإسهام نفسه في المجال نفسه، بالإضافة إلى وجوده على أرض الأندلس الذي منحه حضورًا وقبولًا أكثر، لا سيَّما وقد عزَّز ذلك بجولاته في نواحي الأندلس والكتابة من أرض الحدث معززًا حديثه بالصّوَر الحية.

(*) أكاديمي ومؤرخ وناقد، من السعودية.

بدأت علاقتي بالدكتور الحجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع بداية اهتماماتي الأندلسيَّة، وتوطدت عندما اخترت موضوعي للماجستير عن دولة بني جهور بقرطبة (٤٢٢هـ - ١٠٣١م/٤٦٢هـ - ١٠٧٠م) التي قامت على أنقاض الدولة الأموية[٢]، فقرأتُ كتابه: التاريخ الأندلسي من الفتح حتى السقوط، وسمعتُ من بعض الزملاء الذين درَّسهم في جامعة الملك سعود بالرياض عن فضله وعلمه وتعاونه مع الطلاب الباحثين، ومع رحلة البحث والتنقيب لجمع المادة العلمية في بداية الألفية

(٢) وقد طبعتُه أخيراً بعنوان: **حكومة الإنقاذ في قرطبة بعد انهيار الدولة الأموية: دولة الجَهاورة**، الرياض ٢٠١٧م.



الخامسة عشر الهجرية/ الثمانينات الميلادية، اتجه نظري مع زميل عزيز كان يبحث هو الآخر عن دولة بني ذي النون في طليطلة إلى دولة الإمارات حيث يقيم الدكتور الحجي في مدينة العين ويحاضر في جامعتها، لتوجيهنا وإرشادنا فيما يخدم موضوعنا، وفعلًا كان اللقاء ممتعًا، فقد استقبلنا بالترحاب وأرشدنا إلى مظان بغيتنا وما يخدم موضوعنا، وظلَّ أثر هذه الشخصية عالقًا بالذهن، مما جعلني أتابع إصداراته وما يجود به قلمه، وتتابعت رحلاتي مع الزميل المذكور إلى القاهرة والإسكندرية وقابلنا خلالها أقطاب هذا التخصص أمثال: عبد العزيز سالم، والعبادي، ومؤنس، ومحمد عبد الله عنان، رحمهم الله جميعًا.

لكن كانت المفاجأة عندما تسلمتُ إدارة المركز الثقافي الإسلامي بمدريد (١٩٩٧-٢٠٠٤م) -بعد سنين طويلة من اللقاء الأول، وبعد حصولي على الدكتوراه من جامعة غرناطة- باستئذان الدكتور الحجي للدخول عليَّ في مكتبي، فرحبتُ به أيما ترحيب، وأفادني أنه استقرَّ بمدريد بعد انتهاء تعاقده مع جامعة العين، وأنه متفرغ لبحوثه ودراساته، استمرت لقاءاتنا بعدها نتدارس بعضًا من القضايا الأندلسية، لكني لمستُ منه سوء أحواله المادية، وعند سؤاله عن ريع كتبه التي ينشرها وهي كثيرة، أجاب بأنَّ المردود ضئيل، فدور النشر تنشر كتبه وتطبع من ورائه دون مردود يذكر حسب منطوقه.

توالت لقاءاتي به وفتحتُ معه موضوعات عدة منها: تحقيقه لأحد أجزاء مقتبس ابن حيان، وحقيقة ما يقوله عنه إميليو جارثيا جومث Emelio Garcia Gomez بأنه سطا على المخطوط الذي كان يعمل على تحقيقه، وذلك في مقدمة نشره لهذا الجزء باللغة الإسبانية[١]؛ فروى لي القصة بأنه كان يتردد على مدريد أثناء كتابة رسالته للدكتوراه التي

(١) نشره بعنوان: El califato de Córdoba en el «Muqtabis» de Ibn Hayyān Anales palatinos del califa de Córdoba al-Hakam II, por ʻĪsā Ibn Ahmad al-Rāzī (360-364 H. = 971-975 J. C.) / traducción de un ms. árabe de la Real Academia de la Historia por Emilio García Gómez, Madrid 1967.

كانت عن «العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وأوروبا الغربية[١]» في بريطانيا، وعندما وجد هذه المخطوطة القيمة[٢] التي لم تنشر بعد أراد تصويرها، فأفاده المسؤول بأنه لا يسمح له بذلك، ممَّا حدا به للتردد على المكتبة ونسخها كتابةً[٣]، ثم عمل على تحقيقها وعرضها على إحسان عباس الذي راجعها ونسقها وقام بنشرها.

تكررت الزيارات والمواضيع المطروحة، فطرح عليَّ مشروعًا يريد له الدعم، وهو إصدار مجلة تهتم بالدراسات التاريخية والأندلسية بشكلٍ خاص، إلا أني حاولتُ ثنيه عن المضي بهذا المشروع إشفاقًا عليه، لأنَّه يحتاج لمصاريف عالية والعائد ضئيل، والناس اتجهت إلى الإنترنت وما يقدمه من وجبات خفيفة وسريعة ومجانية، لكنه لم يأبه لكلامي، فقد وضع الموضوع برأسه وقرر تنفيذه، وبعد غيبة ليست بالطويلة تفاجأتُ به وهو يحمل أوراقًا في يده..

❁ خيرًا أستاذنا الكريم؟

❁ هذه مسودة العدد الأول من المجلة، وقد أسميتها «**البذور**» وأريد منك المشاركة في تحريرها وشراء أعدادٍ منها لمكتبة المركز.

فعرفتُ أنَّ الرجل ماضٍ بالمشروع لكنه يحتاج إلى التمويل ولا يريد أن يطلب، وفعلًا اشتريتُ منها أعدادًا نقدتُه ثمنها (مرفق صورة لها ولمحتواها) ولا أدري هل صدرت بشكل نهائي أم لا؟ لكني لا أظن ذلك، لأنَّ التَّسويق في الخارج صعب، والجالية في إسبانيا متواضعة الإمكانيات، إلا إذا أصدرها في بلدٍ عربي كلبنان مثلًا.

(١) نشر أصل الرسالة باللغة الإنجليزية، لكنه ترجم أخيراً ونشر بعنوان: **العلاقات الدبلوماسية الأندلسية مع أوروبا الغربية خلال المدة الأموية**، أبو ظبي ٢٠٠٤م.

(٢) كان أصل هذه المخطوطة في الجزائر بحوزة ورثة سيدي حمودة بقسنطينة، وقد نسخها المستعرب الإسباني فرانثيسكو كوديرا Francisco Codera وأودعها مكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد.

(٣) ذكر في مقدمة هذا الجزء الذي حققه من المقتبس بأنه نسخَه بعد الاستئذان، وبمساعدة أحد أمناء المكتبة خوسيه لوبث دي تورو Jose Lopez de Toro انظر: **المقتبس في أخبار بلد الأندلس**، تحقيق: عبد الرحمن علي الحجي، ط. دار الثقافة بيروت ١٩٦٥م، ص١٨.



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه

البُذُور

مجلة التاريخ الإسلامي وحضارته

تاريخية متخصصة فصلية / محكمة

العدد التجريبي

شعارها

﴿ فهل ينظرون إلا سنةَ الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً * ﴾ سورة فاطر 43.

مضمونها / هدفها:

" أمة كانت الحياة لها ميداناً، وملأت جوانبها أماناً - جعلت مرابعها بستاناً - كيف لا تحوز لها اليومَ في العالم مكاناً ؟!!"

غلاف مسودة المجلة



محتويات المجلة

- الافتتاحية: كلمة البذور وتحيتها
- آمال ذاهبة وآيبة
- كتاب حول مجلة البذور موجّه للمهتمين بالتاريخ الإسلامي وحضارته بالعربية وبالإنجليزية (في آخر المجلة)
- البذور: عمقها وأبعادها
- التاريخ الإسلامي همومه ورسومه
- اقتراح تأسيس المعهد الإسلامي للتاريخ والحضارة
- إعادة كتابة التاريخ الإسلامي (مشروع يتكلف مليون دولار)
- إقبال في جامع قرطبة ... ... أبو الحسن الندوي (رحمه الله)
- في مسجد قرطبة: قصيدة للشاعر محمد إقبال
- صحابيات عالمات بالقرآن ... ... الدكتورة هدى القباطي
- روايات التاريخ الإسلامي ... ... الدكتور عبد العزيز صغير دخان
- عوامل تحريف التاريخ الإسلامي ... ... الأستاذ الدكتور محمد أمحزون
- مع الذكرى ...آهات وإهابات ... ... قصيدة للشاعر بهاء الدين الأميري (رحمه الله).
- مكمن الأصالة
- الموريسكيون في المصادر والمخطوطات الأندلسية ... ... الدكتور عبد الرحمن الحجي
- حقيقة تاريخية أندلسية ... ... لأحد المستشرقين
- الفتوحات الإسلامية ... ... للدكتور محمد ضياء الدين الريس
- السفارات ومكانتها في التاريخ الإسلامي ... ... تحرير: مجلة البذور
- ما هو التاريخ ؟ ... ... يحيى محمد أمين كاظم (الإمارات)
- صفحات مطوية من حياة محمود شيت خطاب ... الشيخ عبد الجليل إبراهيم الفهداوي
- يحيى الغزال ...الشاعر الحكيم السفير الأندلسي ... ... تحرير: مجلة البذور

محتويات العدد

مجلة (البُذُور) ـ العدد التجريبي 1421هـ /2000م (1)

بسم الله الرحمن الرحيم

حامدين ومصلّين

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين

كلمة(البُذُور) وتحيتُها

أخي القارئ الكريم: نزفّ إليك بهذا العدد التجريبي من مجلة (البُذُور) هذه البشرى بتحقيق هذا الأمل القديم الجديد، بكلّ محتوياتها المبهجة بل وحتى اسمها (البُذُور) بما فيه من تتابع وتتابع واستتبات، فكان الاسم محققاً ومرفقاً مدققاً ذي المباسم والمياسم في أنسام وأنسال بواسل في قوافل، تغدو في علم الله تعالى ورعايته ورحمته ينابيع الخير ينشء المرابع الخضراء في أرض يحلّ فيها النماء محلّ القفر والقفراء يرفل بكريم النماء.

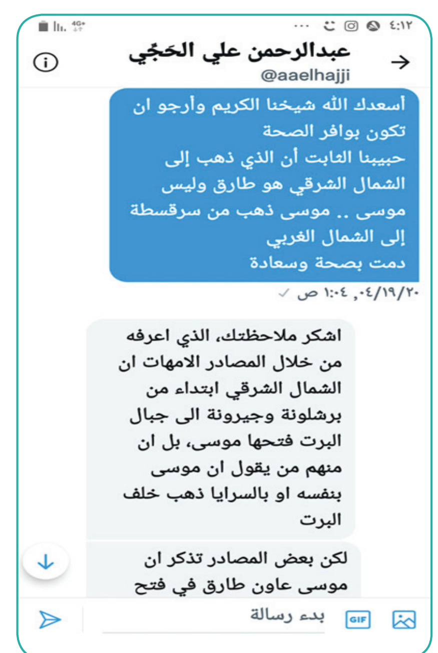
فهذا العمل الذي بين يديك وليدٌ، خرج بعد مخاض شديد. يحمل بداية المسيرة تتهادى ــ ولا تتهاوى، إن شاء الله تعالى ــ متجاوبة لتقديم التاريخ الإسلامي وحضارته بثوبها الحقيقي التي طال الظلم عليه بقدر ما أناخ الزيف عليه من كلكله والتجبيل لصوره وحجبه بركام الشبهات. وهو يمثّل فرحة تزيدنا لله شكراً وعرفاناً لنعمائه لنزداد حمداً وسجوداً. تصل إليك بعد أن مرّت وعبرت واجتازت كلّ المعوّقات المتنوّعة المثبطة المهبطة، اخترقتها لتقدم إليك، رافعة راية الحقّ الموثّق والحدث المحقّق والتصوّر المدقّق ــ تجاوزت كلّ

الصفحة الأولى من مقدمة العدد

وفي أحد الأيام كنتُ منغمسًا في العمل اليومي الذي تتطلبه إدارة المركز، وإذا به يدخل عليَّ مرتبكًا على غير عادته، فرحبتُ به وأخذته بالحديث لأعرف ما وراءه، فقال لي بلا مقدِّمات: لقد قررتُ بيع مكتبتي!! وبما أني أشاركه الاهتمام البحثي والعلمي والارتباط بالكتب والمكتبات، فقد أحسستُ بشعورٍ غريب، كيف لا؟ وهي مكتبتي التي نظمتُها وجمعتُ شواردها ونوادرها على مدى

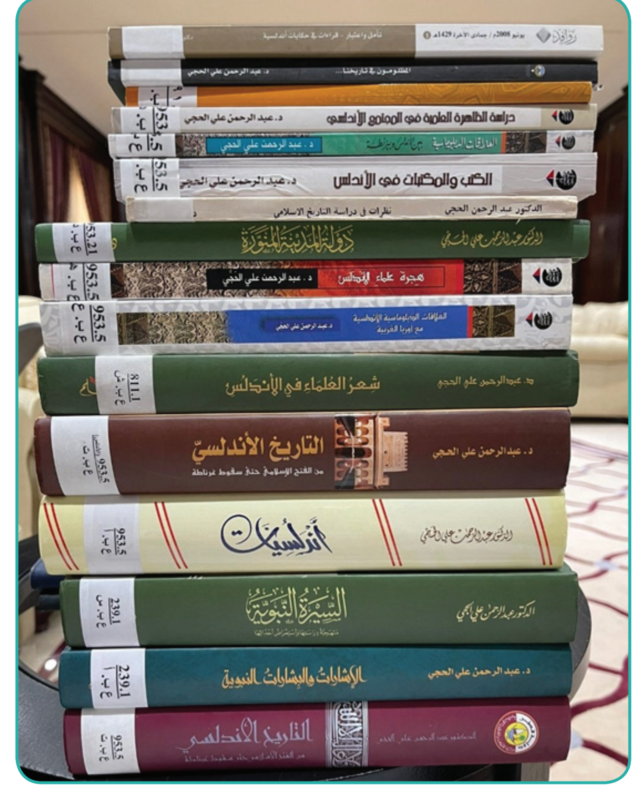
سنين مديدة وأعتبرها بمكانة أولادي، ولا أظن صاحبي بأقلَّ مني حبًّا وارتباطًا بمكتبته، وبخاصةٍ أنه ما زال يلجأ إليها ويستشيرها فيما يحرِّر ويكتب من بحوث؛ حاولتُ أن أثنيه عن قراره بعد أن عرفتُ أنَّ الدافع هو مسيس الحاجة، وقلتُ له لعلَّ الأمور تتيسَّر قبل أن تتخذ هذا القرار، وكان في نيَّتي أن أبحث له عمَّا يسدُّ حاجته وتبقى له مكتبته، لكنه أصرَّ على قراره رافضًا أيّ مساعدة وملحًّا على بيعها، وبما أني على معرفةٍ بها وبما تحويه من نفائس، وبخاصة مطبوعات مراكز البحوث الإسبانية التي نفدت من السوق، فقد وافقتُ على شرائها رغم الثمن الباهض الذي طلبه فيها، فمكتبة المركز كانت فقيرة وتحتاج إلى تعزيز محتوياتها خاصة التاريخية منها، ومكتبتي الخاصة بحاجةٍ إلى بعض نفائسها لا سيَّما الإسبانيَّة منها. وعند استلامها من شقته في أحد أحياء مدريد، ظهرت عليه علامات التأثر وكأنه يودِّع عزيزًا، فطلب مني استثناء بعض محتوياتها التي كنتُ أطمحُ في اقتنائها، لكني وافقتُ على طلبه إدراكًا مني لما تختلجه نفسه من مشاعر الفقد، ولعلمي بحاجته الماسة لمثلها.

كانت حواراتنا تدور حول قضايا كثيرة منها مسائل أندلسية محلّ اختلاف، نتَّفق أحيانًا ونختلف في أخرى، فمثلًا: لماذا اعتمد التَّفسير الديني لدوافع أحداث ومجريات التاريخ الأندلسي في كتابه: التاريخ الأندلسي؟ فمع تسليمي له بصحَّة هذا التفسير في البداية ومع النخبة الأولى من جيل الفتح الأندلسي الذين كانت نواياهم صافية ودوافعهم سليمة، لكن جيل الخلَف شابت نواياهم دوافع أخرى امتزجت فيها الأنانية والشعوبية تارةً والقبلية والإقليمية في أخرى. كما دار الحديث حول قضيَّة تاريخية أندلسيَّة أخرى، وهي مَنْ فتح الشمال الشرقي لإسبانيا أهو طارق أم موسى؟ فهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرى أنه موسى، بينما ما توصّلتُ إليه في بحثي عن فتح الأندلس، هو أنهما تقاسما المهمَّة: طارق اتجه بمن معه إلى الشمال الشرقي وموسى أخذ منحى الشمال الغربي (مرفق صورة جانب من هذه المحادثة في مراسلة خاصة بتويتر).



ظلت الاتصالات بعد أن غادرتُ مدريد لكنها كانت في نطاق السَّلام والمعايدات، وقليل ما تتناول الجوانب العلميَّة، إلا أنه طلب مني في أحد اتصالاته بحثًا لي عن: «دور يوليان في فتح الأندلس» الذي أرجعته إلى فرضيَّة إسلامه[1]، وكان لنا نقاشٌ قبل ذلك في هذا الموضوع.

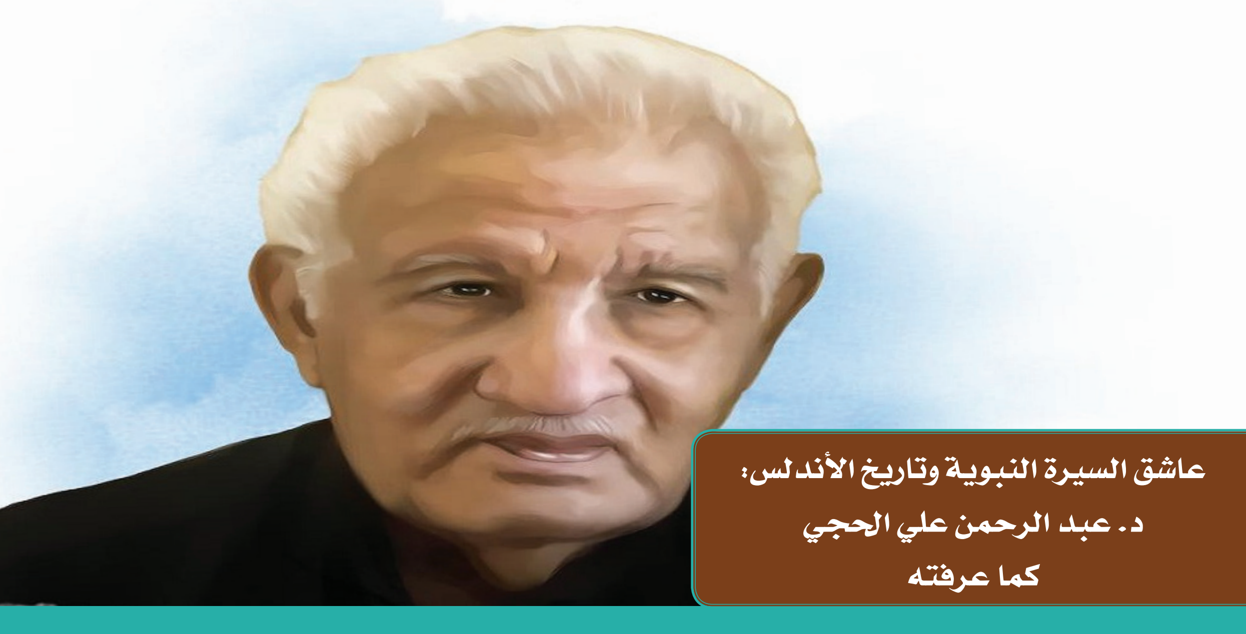
رحم الله الفقيد وأسكنه فسيح جنانه، وبارك الله جهود (مجلة روى) في التَّعريف بهذا العلَم الفذّ ونشر محامده، فجزاكم الله خير الجزاء.



من مؤلفات الدكتور الحجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ



(١) نشرتُه في مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض سنة ١٩٩٦م، وهذا رابطه لمن يريد الاطلاع عليه: يوليان وفتح الأندلس: عرض جديد لقضية قديمة https://docdro.id/8jb3sAx ومطروح في صفحة الإهداء بموقعي على الإنترنت.



عاشق السيرة النبوية وتاريخ الأندلس: د. عبد الرحمن علي الحجي كما عرفته

د. خالد يوسف الشطي (*)

هذه مناسَبة للكتابة عن عاشق السيرة النبوية الشريفة وتاريخ الأندلس: الدكتور عبدالرحمن علي الحجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما عرفتُه، والذي أفنى حياته دفاعًا عن القرآن الكريم والسنة النبوية، وتاريخ المسلمين وحضارته، وقد نذر نفسه لتوثيق سيرة رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم، وسيرة بلاد الأندلس والحديث عن حضارتها وازدهار تاريخها.

وقد رافقتُ د. عبد الرحمن الحجي سنوات طويلة، فقد كانت معرفتي به منذ أن كان أستاذًا بجامعة الكويت، من عام ١٩٨٥ إلى عام ١٩٨٨، حينما كان يُدَرِّس التاريخ الإسلامي في كلية الآداب، وكنتُ وقتها طالبًا في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الكويت، وكان يتنقل بين منتديات الكويت وملتقياتها ودواوينها، متحدثًا عن تاريخ المسلمين المجيد، وخصوصًا تاريخ الأندلس، وقد كان يتحدث بأسلوب أدبي رفيع، وبنبرة فيها شوق وحنين للتاريخ الإسلامي، حيث كان حديثه يأخذ بمجامع القلوب لمستمعيه ومتابعيه.

ومنذ أن دخل الكويت عام ١٩٨٥م وجد ضالته في أبناء الكويت المحبين للتاريخ والحضارة الإسلامية، ورغم انتهاء فترة تدريسه في جامعة الكويت عام ١٩٨٨ وانتقاله للتدريس في جامعات أخرى، إلا أنه ظل يتردد إلى دولة الكويت حتى عام ٢٠١٩، وذلك قبل وفاته بعام واحد، محاضرًا في دواوينها ومجالسها ومنتدياتها، ومقدِّمًا

(*) رئيس مركز الكويت لتوثيق العمل الإنساني–فنار.

برامجــه الإذاعيــة والتلفزيونيــة في وزارة الإعلام ومتنقلًا بين مكتباتها ودور نشــرها يؤلف الكتب ويُعدّ البحوث.

وقــد تلقفــه أبنــاء الكويــت داعمــين له ومشــجعين، وشــاكرين لجهــوده الرائعة في خدمة الإسلام والمسلمين، وقد سجّل مئات الحلقات التلفزيونية والإذاعية، وألقى مئات المحاضرات والنــدوات، وأصدر العديد من كتبه وأبحاثه في مكتبات ودور النشــر بدولة الكويــت، وكان يتردد علــى الكويت في العام مرتين على الأقل، قادمًا من مقر إقامته في مدينة مدريد بأسبانيا.

وقــد حاولتُ قــدر جهدي دعــم برامجه ومشــاريعه، وأسســت معه مركــز ابن حزم في أغســطس ٢٠١٥م، وهــو مركــز تطوعي يوثق تاريــخ الأندلس وحضارتــه، وقد فرح به أشــد الفرح، وقد افتتحنا أنشــطة المركز بمحاضرة رائعة ألقاها بنفسه عن الحضارة الأندلسية في مســجد الدولة الكبير، والتي حضرهــا جمــع غفير أشــادوا بمحاضرته، لكن انشــغال أعضــاء مجلــس إدارة المركز بأعمالهــم المتعــددة، وانشــغالي بتأســيس مركز فنار لتوثيق العمل الإنســاني حالَ دون استمرار أنشطة المركز.

كمــا اجتهــدتُ معــه محاولًا جمــع كتبه المتناثرة في المكتبات ودور النشر لإصدارها في موســوعة متكاملــة، وأخذنــا الإذن مــن بعض دور النشــر لإعادة طباعتها، حيث قد نفدت منه بعض كتبه، وقد استطعنا جمعها من جديد.

كمــا بذلتُ جهــدي لجمــع محاضراته وندواته وبرامجــه الإذاعيــة والتلفزيونية لتكــون في موقع إلكتروني، ليســتفيد منها الباحثــون والمهتمــون بالســيرة النبويــة وتاريــخ الأندلــس، حيث قــد تخصص في هذين المجالين بإتقان، وقد أبدع في توثيق الســيرة النبوية الشــريفة علــى صاحبها أفضــل الصــلاة والســلام، كمــا أجاد في توثيــق تاريــخ الأندلــس بــكل تفاصيلــه وأحداثه، مُســتلهمًا منه الــدروس والعبر، كمــا حاولت مســاعدته في إعــادة طباعة بعض إصداراته ومشــاريعه المستقبلية من الكتــب والإصــدارات والبحــوث والبرامج الإذاعية والتلفزيونية...

لكنَّ قِصَــر مدة مكوثــه في الكويت عند زياراتــه الأخيرة كانت تحــول دون مواصلة استكمال هذه المشاريع.

وقد رحل د. عبد الرحمن علي الحجي عن الحياة، وخلّف إرثًا عظيمًا من إصداراته الرصينة وكتبه القيّمَة ومحاضراته الرائعة، خاصة فيما يتعلق بتاريخ الأندلس التي عشقها طوال حياته وعاش آخر عشرين سنة من حياته على أرضها، مستنشقًا هواءها، ومطلعًا على مبانيها وأحيائها، لكنه لم يستطع تحقيق كل طموحاته، فقد كان يطمح إلى تأسيس مركز إسلامي في أسبانيا أو بريطانيا لتوثيق كامل التاريخ الأندلسي، وكانت لديه العديد من البحوث والكتب والإصدارات التي كان يكتبها ويجمعها ويؤلفها، لكنه فارق الحياة دون إصدارها.

وكم تمنيت أن يقوم أحد رجال الأعمال أو المؤسسات الثقافية الكبرى في العالم العربي والإسلامي بتقديم إمكاناته المادية والإدارية ليُمَكِّنه من تأليف إصداراته وإعداد مشاريعه العلمية.

وكم من علماء الأمة اليوم أمثال د. عبد الرحمن الحجي، الذين لديهم طموحات لخدمة الإسلام والمسلمين، لكنهم يعانون قلة الدعم لتنفيذ مشاريعهم العلمية والبحثية الكبرى.

ولعل هذه المقالة تُحرِّك وتشجِّع رجال الأعمال والجمعيات والأوقاف الخيرية والمراكز الثقافية لدعم علماء الأمة ومُفكّريها.

رحم الله الدكتور عبد الرحمن علي الحجي الذي غادرنا في ٥ جمادى الآخرة ١٤٤٢هـ الموافق ١٨ يناير ٢٠٢١م، بعد حياة حافلة بالعطاء والهمّة والنشاط إلى آخر أيام حياته، وبارَكَ في ذريته، وسخَّرَ من أبنائه وذريته ومن أبناء الأمة مَن يوثّق تراثه الكبير، ويكمل مشاريعه التي كان يطمح إلى تحقيقها.

وفي الوقت الذي نستذكر فيه مآثر الفقيد د. عبد الرحمن علي الحجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإننّا ندعو لزوجته ورفيقة دربه السيدة منال الربيعي (أم بلال) التي غادرت الحياة بعدَه في سبتمبر عام ٢٠٢١م، وقد شاركته همومه وأحزانه وتطلعاته خلال خمسين عامًا، وكانت تكتب له كتبه ومؤلفاته بخط يدها، فهو يُملي عليها وهي تكتب، وقد مكثَت معه ستة سنوات فقط في إعداد كتاب «التاريخ الأندلسي»، داعيًا المولى عَزَّوَجَلَّ أن يرحمهما ويجمعهما في دار السرور والخلود.

والحمد لله رب العالمين.



عبد الرحمن الحجي: الأستاذ والإنسان

عبد الواحد عبد الجبار التركي(*)

تمر السنين عابرة فوق جدار العمر تسابق الزمن لتضعنا في نهايته، أو أشرفت على نهايته، وكأن ما أرويه الآن لم يكن العام الدراسي ١٩٦٧ / ١٩٦٨ عندما كانت أعمارنا بحدود ٢٢ سنة أو أكثر بقليل جدًا.

في الصف الرابع، قسم التاريخ / كلية الاداب / جامعة بغداد: عندما لاحظنا أن في الجدول الدراسي مادة جديدة هي التاريخ الأندلسي، وجاء يوم السبت الساعة الثامنة والنصف صباحًا عندما دخلنا إلى قاعة الدرس ودخل علينا شاب وسيم، شاب لا يتجاوز عمره عن أعمارنا نحن الطلبة سنوات قليلة، ليقدم نفسه لنا، إنه عبد الرحمن الحجي أستاذ مادة التاريخ الأندلسي التي ستكون المادة المقررة لنا هذا العام، وأنه كما علمنا عنه أول أستاذ عراقي حصل على درجة الدكتوراه في تاريخ الأندلس.

الأستاذ عبد الرحمن الحجي مدرّسًا:

كانت الحصة الأولى هي التعريف بنفسه وبالمادة التي يدرّسها والمصادر التي نعتمد عليها، مذكرنا أن المصدر المهم الذي يجب أن نقتنيه عن التاريخ الأندلسي مؤلفه الدكتور محمد عبد الله عنان.

ولثقته بنفسه العالية وبمادته العلمية قد نال إعجاب الجميع، وكانت حصة الدرس من

(*) تربوي، وباحث في التاريخ، من العراق.

الحصص المحببة لنا لنلتقي بالأستاذ القدير وهو يشير لنا على الإيجابيات التي قدمها الحاكم العربي لبلاد الأندلس والتي أصبحت منارًا للعلم التي يقصدها أغلب أولاد ملوك أوربا وأصبحت جامعات قرطبة وإشبيلية وغرناطة مدنَ إشعاع حضاري وعلمي للعالم أجمع.

ويذكرنا أستاذنا الكبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالأخطاء الجسيمة التي أضعفت البلاد والتي أدت إلى تحويله إلى دويلات متناحرة بسبب الطمع في السلطة بالتآمر والتناحر وبيع الذمم للأعداء، والذي أدى بالتالي إلى كارثة انتهت بالانقسام والضعف والانحلال بعدما ملئت الدنيا عدلًا وعلمًا.

الأستاذ عبد الرحمن الحجي إنسانًا:

كان رحمه الله تعالى صديقًا وأخًا وناصحًا لجميع طلبته.

من الذكرى التي تجرّني إلى قاعة الامتحان النهائي لمادة أستاذنا الكبير عبد الرحمن الحجي -رحمه الله بالفردوس الأعلى- (التاريخ الأندلسي) فعندما وزعت الأسئلة علينا تفاجأنا جميعًا أن نوعية الأسئلة ليست كما تعوّدنا عليه كسردٍ تاريخي للأحداث، بل كانت أشبه بمادة الرياضيات، إما أن تحصل على درجة كاملة على كل سؤال أو يكون صفر، على نمط الصح والخطأ حيث في كل فرع منه إما تؤيده وتقول صح أو خطأ، ليحدد لك الدرجة بما أجبت. وكذلك سؤال الفراغات وغيره، ونتيجة ذلك أصاب اغلب الطلبة الإرباك والخوف من الإجابة، وعندما لاحظ ذلك وبسرعة بدأ يمر على كل طالب يهدّئه ويرشده ويطمنه أن ساعة الامتحان هذه لا تحدد نتيجة مسيرة دراسية لسنة كاملة وأنه يعلم بمستوى كل طالب واهتمامه في مادة الدرس، ويعلمنا أنه راض عن مستوانا الدراسي، وهذا مما أعاد الثقة للجميع.

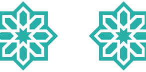
أدينا الامتحان وتجمَّع البعض خارج القاعة ينتابهم الخوف من الإجابة التي قدموها، فما كان من أستاذنا الشاب الطيب إلا أن يقف بين الحميع مطَمْئنًا لهم أن النجاح سيكون حليفهم إن شاء الله، وقال بصوته الحنون: اطمئنوا جميعًا.

هكذا كان الأستاذ المرحوم عبد الرحمن الحجي الذي حبَّب مادته التدريسية لطلبَته بحسن أدائه وخلُقه الكريم، بل أتمكّن أن أقول إن كثيرًا من طلبته قلَّد طريقته في التدريس والتعامل مع الطلبة.

كان الأستاذ عبد الرحمن الحجي الذي عرفناه لسنة دراسية واحدة، قد استطاع أن يملأ قلوبنا حبًّا واحترامًا له، وذكرى لا تنسى، وبقي اسمه ملازمنا إلى الآن وقد بلغت السنون العمرَ لتُوصله إلى نهايته، أو أشرفت على نهايته.

وأخيرًا أقول: لقد رحل أستاذنا عبد الرحمن الحجي جسدًا لكنّ روحه وذكراه ستبقى على مرّ السنون مهما طالت، تذكر ما قدمه للبحث التاريخي من مؤلفات وبحوث أصبحت من المراجع الثقة لكل باحث تاريخي لبلاد الفردوس المفقود، والتي جعلته حيًّا لم يمت بذكراه وسيرته وعلمه.

أسأل الله أن يجعل الفردوس الأعلى مأواه مع الأنبياء والصالحين وأن يرزق أولاده البارين الصبر والسلوان وأن تكون سيرة حياته منارًا للآخرين للسير على نهجه.






الدكتور الحجي: خاتمة جيل الفاتحين

د. عامر ممدوح(*)

يطلَق عليه: الدكتـور (عبد الرحمن علي الحجي)، وأسمّيه: الوالد، والأستاذ، وعاشق الأندلس وفارسها، وشـيخ مؤرخي الأندلس الأفذاذ، وخاتمة جيل الفاتحين.

فمـاذا أريـد أن أدوّن في وصفـه، وبيـان مكانتـه، ودوره، وإسـهاماته، وجهـده لم يكن لينهض به جيل كامل من طلاب العلم، تحقيقًا وتأليفًا، دفاعًا ونشرًا لرسالة الإسلام، وإعلاءً لشأن تاريخنا الإسلامي الزاهر المجيد؟!

مع أن المشاعر تجاه الوالد الحبيب الحجي كانت دومًـا غريبة، فأنا أكتب اللحظة وكأنه بيننا، لم يغـب عنّا، ليس إفراطًا في التخيل، وإنمـا لأن الرجـل الكبير اسـتطاع أن يملأ علينـا جانبًا مهمًا وحيويًـا بزادٍ وفير، فمتى احتجـت إلى رأيه وفتواه كان في كتابه الأثير (التاريخ الأندلسـي) الإجابة، ومتى اشـتقت إلى رؤياه طالعتُ قناته على اليوتيوب فإذا به ما زال يغمرك بمحبته وعلمه وإيمانه وتقواه وإنسانيته، دون مبالغة.

١ أوليات ضرورية

ابتدأت الحكاية في تسعينات القرن الماضي، وأنـا مـا زلـت في نهايـة المرحلـة الإعدادية، وقتهـا كان حب القراءة يملأ عليَّ كل تفاصيل الحياة، عندما وقع بصري على اسـم الدكتور الحجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ضمن كتابه (نظرات في دراسة التاريخ الإسـلامي)، يومها وجدت نفسي إزاء شخصية فريدة، تجذب القارئ والطالب على نحو غريب، وقلمه الممتلئ غيرة وحماسة على الدين والتاريخ الإسلامي.

(*) أستاذ التاريخ الأندلسي/ الجامعة العراقية- كلية الآداب.

ومنذ ذلك الحين، غدا هو ومعه أستاذي الكبير الدكتور عماد الدين خليل -رعاه الله-، يشكّلان ركنًا أساسيًا في الجانب المعرفي، ويشدّاني بقوة إلى حقل التاريخ، فكان الاختيار طواعية بالانضمام إلى هذا العالَم الفسيح الذي ما زالت أعيش عبقه ونسيمه مع أساتذتي الأكارم.

وسبحان الله، فإن كنتُ قد تشرفت بلقاء أستاذي د. عماد الدين خليل مرتين، فإن الفرصة لم تتح لي لقاء أستاذنا الحجي وجهًا لوجه، على الرغم من أني كنت أبعد عنه في إحدى المرات عدة أمتار!! يومها سمعت عددًا من الزملاء يتحدثون عن مقدم شخصية أكاديمية مرموقة كلها عنفوان وحماسة تلقي محاضرات متعددة عن الأندلس في مساجد بغداد.

ومضت الأيام، وازداد الارتباط بما يكتبه الدكتور الحجي، مع أن جمع مؤلفاته كانت مهمة شاقة ولكن كان كل مؤلف أعثر عليه بمثابة الكنز الذي أضمه بشدة وأحرص عليه وأخاف فقدانه!

ووسط ذلك كله، لا حيلة للتواصل معه وهو البعيد عن بلاده، مثله مثل أي مثقف أصيل الفكر والرأي، فهو المسافر دومًا من أجل قضيته، الأندلسي الفاتح الذي أبى إلا أن يحط رحاله في أرض أجداده ليقول كلمته من منبع التاريخ، فهو من نسل طارق وموسى وابن تاتشفين.

وكانت الانتقالة المهمة، يوم تعرفت على حسابه في تويتر، فكان التواصل المباشر، الذي ملأني بسعادة غامرة، وبالمعلومة المفيدة النافعة، والصحبة الطيبة، والإحساس الذي قل أن يشعر به المرء.. وأسميه دومًا (شعور التعامل مع الكبار).

فكيف وجدتُ الحجي؟

بل قل كيف سيكون: رفيقًا حنونًا، عالمًا ثبتًا، فارسًا مغوارًا، شجاعًا أصيلًا، إنسانًا فريدًا، والدًا للجميع بكل ما تعنيه الكلمة..

لا تجده يكل أو يمل من التواصل مع أبنائه وطلبته، يقدم لك الإجابة بإتقان، ويغالب صعوبات حياته ووقته ليحقق التواصل، ويفيض عليك تفاؤلًا ووددًا، يفاجئك وسط الحديث فيسأل عن أحوالك وعائلتك ووظيفتك، بل ويسأل عن الكثير ممن تواصلوا معه سابقًا وأين وصل بحثهم وعملهم الدراسي!!

ووقتها كنت قد عاهدت نفسي وأستاذي الكبير أن أوفيه ولو القدر القليل من حقه،

بـأن أكتـب عنه ولأول مرة بشـكل أكاديمي، فذلك شـرف كبير، على الرغم من ممانعته أولًا، حينهـا قلت له هـذا الأمر حق وواجب علينـا، فكان الإنجـاز الذي مـا زال يحظى بمكانــة خاصة في نفســي بعد سـنوات من الصبر ومغالبة الانشــغالات، ويكفيني فخرًا أننــي حصلت على ١٥ إجابة أساســية تمثل ملخـص فكر ورؤية الدكتـور الحجي، كتبها بنفسه، وظل يعدني بإكمالها رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فيرسل إلــي المجموعة تلو الأخرى، عبر مراسـلات مـا زلـت احتفظ بهـا، حتى اكتملـت، فكان بحثــي المتواضـع (الدكتـور عبـد الرحمـن الحجي والمنظور الإسلامي لتاريخ الأندلس) والمنشور في عام ٢٠١٧.

وبقــي التواصل مع الدكتور عبر رســائل تويتــر، أو الهاتــف علــى قلتــه، مــع زيارات حنونة في المنام كانت تثير قلقي على صحته، فأبـادر لأطمئن عليه، حتى كان آخر تواصل معه يوم ألقى محاضرته عن انتشار الإسلام في الأندلـس في أيام الحجر الصحي، يومها باركـت له جهده، واستفسـرت منه عن عدة أمـور أجابنــي عليها بشـكل دقيـق كعادته، وسأرفق في ختام هذه الورقة بعضًا منها.

وأقـول بصدق: إن ما جمعني بأسـتاذي ووالــدي الكـريم الدكتور الحجــي هو أكبر وأرق من أي علاقة بين أسـتاذ وتلميذ.. هي صلة روحية لا تفسـرها الكلمات، ونبضات قلب لا تترجمها العبارات..

لذلك كان يوم وفاته الحزين غريبًا عليَّ، قـد تركني لسـاعات دون تركيـز، والتعازي تتوالى علي وأنا العاجز عن تفسـير الحدث المؤلم، ولكن هو قدر اللّه وقضائه، فإن كانت الدعـوات له لا تنقطـع بالرحمـة والمغفرة، فـإن العهـد باسـتكمال مسـيرته، والتنويه بجهده ومكانته ومآثره، سـيبقى منهجًا لنا، وهدفًا نسعى ونبذل جهدنا فيه.. لعلنا نصل يومًا إليه.

٢ إضاءات منهجية

يُعـدّ الدكتـور عبـد الرحمـن الحجـي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أحـد فرسـان التاريـخ الإسـلامي عامـة، والأندلـس خاصة، وذلـك بما قدمه من نتاج مهم ومؤثر، طيلة مسيرته الرائعة.

ويمكـن لنـا أن نسـجل هنا على سـبيل الإيجـاز والتركيـز، وبعـد مصاحبـةٍ لتراث الدكتـور الحجـي امتدت أكثـر من عقد من الزمان، أنَ نتاجه امتاز بـ:

❁ **الريادة:** فهو من رواد التاريخ الإسـلامي الأندلسـي، والذين تخصصوا منذ وقت مبكـر وبذلـوا جهدهم بشـكل متواصل

ليقدموا نتاجهم العميق والمؤثر في هذا الميدان.

❁ التميز: فالدكتور الحجي له خصوصيته، اهتمامًا، وأسلوبًا ومنهجًا، والتي منحته المكانة المهمة في هذا المجال.

❁ الأصالة: فجهده أصيل، وكل حرف كتبه وقدمه للمكتبة التاريخية هو خاص به وحده.

❁ التوثيق الصارم: فالدليل أولًا، ولا قول ولا ادعاء دون نص أو رواية موثقة.

❁ الأسلوب المؤثر: فقلمه أدبي رفيع ممزوج بعاطفة جياشة وشاعرية متمكنة، وتكاد تشعر بالأحرف والكلمات تنطق بدواخله.

❁ إسلامية المنهج: فمنظوره التاريخي يحكمه التوجه الإسلامي، والذي يؤمن بأن المستقبل لهذا الدين.

ولعل حجر الزاوية في كل ذلك، حالة الترابط التي قدمها الحجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بين الإسلام والتاريخ، أو ما يعبر عنه دومًا بـ: (المنهج والتطبيق)، فالتاريخ الإسلامي في منظوره ليس تاريخ فكر وأحداث وظواهر اجتماعية وأوضاع سياسية ودول سادت، بل أيضًا -وقبل ذلك- هو تاريخ عقيدة شاملة، لها سماتها وخصائصها ومقوماتها المميزة. (الحجي، نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي، ص١٣).

وانطلاقًا من هذا التصور، تغدو معرفة التاريخ الإسلامي ضرورة للأمة الإسلامية وحتى لغيرها من الأمم، فتقديم التاريخ يجب أن يكون بأمر محقق وبروح متناسبة مع طبيعة الإسلام لأنه أحد أهم الروافد في تغذية الوعي الإسلامي الحاضر. (حوار مع مجلة المجتمع الكويتية، العدد ١٧١٢، ٢٩ / ٧ / ٢٠٠٦، ص٤٦).

ولذلك كله يجد الدكتور الحجي أنه لمن الصعوبة أن يكتب التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية غير مسلم، وإن اكتست بعض كتاباتهم بجمال الإنصاف وأزالت بعض الإجحاف وقدمت شهادات علمية مهمة، ذلك جانب إيجابي لا يهمل ولا يبعد، لكن من الناحية الأخرى، لا بد من القول، إنه حتى المسلم -الذي لا ولاء كبيرًا له، ولا يغار بوضوح على إسلامه أو يرتبط به قويًا- لا يجيد كتابته. (الحجي، كتابة التاريخ الإسلامي لمن؟، مجلة المجتمع، العدد ١٩٧٢، ٨ / ١٠ / ٢٠١١، ص٤٤-٤٥).

إن المنظور الإسلامي الواضح الذي تعامل به الحجي مع التاريخ، كان هو الأساس الذي انطلق منه لرسم صورته وتدوين مراحله، وذلك وفق رؤية واضحة تربط أوله بآخره، مهما ابتعدت المسافات، وتعددت الكيانات والأشكال السياسية التي عبر عنها.

ولم يكن هذا المنهج نظريًا فحسب، فمن يتابع كتابات الحجي يلمس بشكل واضح وجلي أنه عمل على تقديمه بشكل تطبيقي بارز، وكان كتابه المهم (التاريخ الأندلسي) خير شاهد على هذا الأمر، إذ نتلمس التأني في قبول الروايات التاريخية وعدم اعتمادها إلا بعد التوثق منها، كما نلمس الدقة في تعريفات المصطلحات الأندلسية وحدودها وألفاظها، مع التميز في الأسلوب الأخاذ، والدقة المتناهية في البحث، والمنهج الإسلامي الذي اعتمده في التعامل مع الروايات التاريخية.

ويلفت الحجي الانتباه إلى جزئية نجد من المهم ذكرها، وهي مدى الدقة في تدوين مؤلفاته والتي تصل حدًا من الصرامة ألا تحدث تغييرًا على ما كتب ولو مضت عليها السنوات لشدة ما تثبت في تدوين معلوماته، ويقول: (إن طريقتي ألا أغير فيما سبقت كتابته إلا الضروري جدًا أو إضافة مصادر جديدة أو ظهور أمور كانت مجهولة أو تقديم معلومات ذات أهمية في الموضوع نفسه تقتضي الإشارة إليها أو التنويه بها خدمة للموضوع وتوضيحًا له)، (الحجي، الكتب والمكتبات في الأندلس، ص١٤).

لقد جاء منهج الدكتور عبد الرحمن الحجي مبنيًا على قاعدة التوثيق التاريخي، واعتمادها أساسًا للبحث والدراسة، مثلما إن رؤيته الإسلامية لحوادثه ومجرياته ومنحنياته بقيت حاضرة على الدوام في تناوله لها.

٣ الأندلس في عيون عاشقها

يدرك الجميع مدى تملّك حب الأندلس من شخصية وفكر الدكتور الحجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد نمت بذرة العشق هذه حتى غدت شجرة باسقة تعيش معه في كل لحظاته وسكناته وكتاباته، وهمّ التدوين والوفاء للتاريخ الأندلسي كان بمثابة المهمة الأساسية التي نذر نفسه لها حتى آخر أيام حياته رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ولو قلبنا كتابه (التاريخ الأندلسي) على سبيل المثال، لوجدنا أنه يمثل أساسًا رصينًا

لـكل من يريد دراسـة تاريـخ الأندلس، بما احتـواه من معلومات مكثفة، وتدقيق متقن، ونقاشات متميزة، أما بقية مؤلفاته فلم تقلّ عن ذلك شأنًا.

لقد تميـز الدكتور عبد الرحمن الحجي بمنظـوره الإسـلامي الواضـح للتاريـخ الأندلسـي، فبه تعامل معه، وعلى أساسـه فسر أحداثه، ووفق مقتضياته قدم رؤيته لما مـر عليه من تقلبات وتحولات انتهت بقصة الضياع المؤسفة.

ولما سـألت أسـتاذنا الحجي عـن هوية الأندلـس التـي يراها أجـاب بـأن التاريخ الأندلسـي لا هوية له إلا إسـلاميته، وهذا أساسي الاعتبار في كل دراسة تتناول جانبًا منه وهو ما يجب على الباحثين النظر إليه، وهـذا مـا يحتاج أن يشـترك فيـه مع بقية العالم الاسلامي، وهي واضحة في الأندلس أشد الوضوح لمن يمعن في دراسته عن قرب وأناة وعمق، ولولا هذه الهوية ما كان هنالك أندلـس، وهذه الصفة هي التـي قادته إلى كل مـا أنتج وما سـجل وإلـى بقائه كل تلك المدة أمام ما واجهـه داخليًا وخارجيًا، وهو الأشد الأوضح.

ولذلـك فإن التعامل مع أحداث الأندلس كان يتـم وفق هذه الرؤيـة، ولو تابعنا نماذج منها لوجدنا مصداقًا لقولنا، من ذلك قضية الفتح الإسـلامي ودوافعه ونتائجه، انتشـار الإسـلام في الأندلس، اسـتقرار الفاتحين، تقديم إشـارات مركزة عـن عوامل الامتداد والاتسـاع وأسـباب الضعـف والتراجـع والانحسـار، إظهار تكامل التاريخ الإسلامي الأندلسـي مـن خـلال التعامل مـع قضايا المرابطـين والموحدين ودور بـلاد المغرب في إنعاش الوجود الإسلامي في الأندلس.

والأمـر لا يختلـف في الجانب الحضاري، إذ دوّن الدكتـور الحجـي المنجـز الحضـاري الإسلامي بشكل مترابط مع الالتزام الديني، ورأى أن كل مظاهر الحضارة من عمران وعلم وتأليف ودبلوماسية وغيرها هي تجليات لأثر الدين العظيم في نفوس الفاتحين.

وهـو بذلك ينتصـر لإسـلامية المجتمع، وإخلاصـه لمبدئـه وهويتـه، مواجهًـا كل الشـبهات التـي يرددهـا البعـض ويحـاول مـن خلالها الطعن بالمجتمع الأندلسـي، بل كان يؤكـد على أن هـذه الهوية الأصيلة هي الغالبـة، وهي معيار التـدارك والقدرة على تجاوز لحظات الضعف ومواجهة التحديات.

ومحاولة الإحاطة بالجانب الأندلسي من مسيرة الدكتور الحجي مهمة شاقة وليست يسيرة، وهي غنية بالكثير الكثير من الوقفات، أجد أهمها ما طرحه عقب سقوط غرناطة، فيبدو أن هول ما لاقاه المسلمون في الأندلس بعد هذا الحدث الكبير، كان دافعًا ليذكر الدكتور الحجي فكرته حول التعايش في شبه الجزيرة الإيبرية، فوجدناه يتساءل: (ما الذي كان سيحدث لو تعايشت إسبانيا النصرانية الظافرة مع مملكة غرناطة، على الأقل كما بقيت إسبانيا النصرانية مدى القرون الأولى من الفتح، أو حتى لو ترك المسلمون يعايشون النصارى في الوضع الجديد ولو على شكل أقلية، كما كان هؤلاء قبلًا في المجتمع الأندلسي المسلم) (التاريخ الأندلسي، ص٥٢٢).

ويؤكد في موضع آخر ذلك الأمل بالقول: (كم كنا نأمل أن تتعايش الديانتان -الإسلامية والمسيحية- جنبًا إلى جنب في شبه الجزيرة الإيبيرية، خاصة وقد ظهرت بعض البوادر التي لو استمرت في النمو ، بتعاون الطرفين ، لكنا نشاهد المسجد يقف إلى جانب الكنيسة حتى الآن في إسبانيا والبرتغال، ولحُقنت بذلك الكثير من الدماء التي أسيلت، ومما لا شك فيه أن اتحاد الإمكانيات والتعاون الفكري وتزاوج القابليات خير وأنفع للإنسان وحضارته من نيران العداوات والحروب، كل ذلك على الرغم من التسامح الرائع الذي عامل به المسلمون غيرَهم) (أندلسيات، ص٥٧).

٤ اقتباسات واجابات (من الأرشيف الخاص)

من أروع ما قاله الدكتور الحجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

- التوثيق المؤتمن الصادق ألف باء في الكتابة العلمية، ولا بد بعد ذلك من الأمانة في الحفاظ على هذا التوثيق ووضع الهمة في متابعة الحقائق على ضوئه حسب ما يرسمه الدليل الذي يحتاج إلى فهم عميق و رؤية شاملة واعتبار لنوعية المجتمع وحياته وارتباطه الذي جعله بهذه المكانة والحالة والصفة.
- التعليل لدَيَّ -بعد ارتكازه على الوقائع والحقائق الواضحة- لا يجب أن يخرج متباعدًا عن حقيقة الأرضية التي يُبْنَى عليها ذلك التعليل ويكون منسجمًا مع كل الحقائق والوقائع والتوجهات المعاشة في ذلك المجتمع بحيث أن نفي ذلك التعليل أو مخالفته ومباعدته يكون صعبًا و

ظاهر البعد عن الواقع. ويكون التعليل بعد الفهم العميق الشامل المتأني، وإلا فسيأتي غير ناضج وربما مباعدًا أو مناقضًا، مما يمكن وضعه بعيدًا عن أية منهجية علمية أو حالة بحثية أو وضع أكاديمي، لعل هذا هو الذي أجّل تعليل بعض الوقائع الأندلسية أثناء عرضها لعدم وجود المعلومات الكافية لإصدار حكم وفهم أسبابه ومعرفة تأثيره، كما جرى في الحديث عن الحاجب المنصور، إذ لدينا كتاب لابن حَيَّان خاص بالدولة العامرية وكتاب آخر مثيل له لغيره و قلة المعلومات أو تشابكها ووقوعها في مجال الحديث عن قضية محددة، وكذلك كما جرى في الحديث عن الأحداث التي تلت الدولة العامرية وأدت إلى حالة الطوائف.

❁ كتابة التاريخ الإسلامي ومنها الأندلسي مليء بالشبهات الذي أظهر الانتكاسات مكبرة أو مخترعة أحيانًا، وبالمقابل الكثير من الإنجازات و المفاخر مدفونة ومحجوبة فهي بحاجة إلى اكتشاف.

❁ منهجي في كتابة التاريخ ما يوصلني إليه الدليل ولا أحمي مجروحًا أو أخفي مسيئًا بل أظهره قبل أي أحد، ولأن المفاخر في تاريخنا هي الغالبة وإن اختفت أو أُخفيت أو جُهلت.

❁ لا يعني أبدًا بأي حال ودرجة أن نستر المواقف المتدنية وهي موجودة لكنها ضيقة في أوقاتها وأتباعها ومساحتها، ولكنها تبين بشجاعة ودقة وقوة مثلما فعل العديد من علمائنا كما تولى ذلك ابن حزم وابن حيان وابن الخطيب مثلًا، وقد نقلتُ من أقوال ابن حزم وابن حيان في كتاب «التاريخ الأندلسي» حين الحديث عن فترة الطوائف، ومثل ذلك فعلت بالنسبة لابن الخطيب أيام غرناطة، الوزير الشهم الفارس المجاهد.

❁ البناء الإسلامي للإنسان يرفعه عاليًا بأي مقدار، والسمت العام ألا ينخفض عن الحد الأدنى، وهنالك عوامل تزيده رفعة أو تدنيه لكن أمام بنائه يصبح انحداره مما يطفو على السطح مهما كان سمكه، وفطرته مستعدة للعودة إلى المعهود منه، وهذا ما نلحظه في عصر الطوائف مثلًا إذ حين قام العلماء ومن عاونهم وأمكنهم تنظيف ما علا تلك الفطرة مع بذل الجهد بأهل القدوة استجاب له حتى من كان مثقلًا من الأمراء فغدا أولئك

من خيار الفرسان الذين قادوا النهوض ورفضوا المذلة والاستخذاء والتخلف، وبهذا يكون الانحدار أحد الظواهر التي تقود إليها أسباب ممكن معالجتها بأهل الفهم والسداد، القدوة و ليس بغيرها ما دامت لهم الشريعة مرجعية وحيدة.

❁ الصراعات بين السلطة والعلماء مفتعلة مضخمة ملفقة في كثير من جوانبها بحاجة إلى عمق متبصر، أما موضوع حرق الكتب فهو مرفوض ومنتقد وغير سديد تم على ضيق وقلة وحدود لكنه في كل الأحوال مستنكر في أغلبه إلا ما كان من بعض الشذوذ في الفهم الإسلامي وإن كنت أرى وجوب معالجة هذا بغير الحرق ونقاء الفهم الإسلامي في الأندلس هو العامّ الشامل.

❁ مَن يدرس المجتمع الإسلامي وتاريخه عليه أن ينظر في أبعاد المجتمع وطبيعته ليفهمه فهمًا سليمًا يصدر عنه باعتبار أن تصرفات هذا المجتمع مرتبطة بشريعته ولا يبتعد الدارس عن ذلك في عمله إن كان يريد الدقة والحقيقة والواقع، وبغير ذلك يكون كمن يبعد الوليد عن حضن أمه والنبتة عن جوها المناسب والغراسة في غير موضعها.

❁ التوجه إلى الله بكل فعل وعمل وجهد، وهذا وغيره هو السبب فيما أنجزه المسلمون من تفوق نادر لا يدرَك إلا بهذا المنهج، ولكن ما من شك أن ذلك متأثر بالظروف المحيطة، ولكن مهما بلغت سوء تلك الأحوال فإنه لا يقضي على مسيرة الإبداع بأي مقدار، ومن هنا وجدنا أن الإبداع لم يتوقف في أحلك الظروف، وهذه سمة يمتاز بها المجتمع المسلم، وبه يُفهم أن المؤثرات التي تنال من نوعية هذا المجتمع تكون في السطح، وقد أشرت إلى ذلك بمقدارٍ في كتاب «التاريخ الأندلسي» بعنوان: الحركة العلمية، بعد الحديث عن معركة الزلاقة أيام الطوائف.

❁ التاريخ الأندلسي ما زال ميدانًا بكرًا للعمل البحثي، أظن ذلك بدرجة عالية جدًا، وكلما زاد الفهم لهذا التاريخ ومجتمعه وحضارته وازداد عمقًا مع الصحبة المتواكبة أدرك هذا الأمر بشكل أكثر سواء شمل هذا ما كتب فيه كتابة دون المستوى المرجو أو ما أهمل منه إهمالًا يكاد يكون كاملًا أو ما أسيئ فهمه، فالفتح الإسلامي للأندلس الذي قد يُظن أنه قد بلغ الكفاية في بحثه أراه



بأشـد الحاجـة للكتابـة فيه ومـا أُهمل منه عـن قصد أو غيره من مثل انتشـار الإسـلام في الأندلـس و دور العلمـاء في مجتمعه والقضـاء وجوانب أخرى كثيرة نالهـا الإهمـال، إلـى جانب مـا ذكر من شـبهات قاتلـة لبعـض موضوعاتـه من مثل بلاط الشـهداء واستخذاء الطوائف وسقوط الدول المتتابعة.

❁ وهكذا بالإمكان سَوق عشرات الموضوعات في هذا الأمر إن لم يكن المئات، ويشـمل هـذا: الحيـاة العلميـة والاجتماعيـة والإنسـانية كافـة مما يدعو إلـى إعادة النظر، وقراءةٍ جديدة للنصوص، ومتابعة للمخطوطـات، وكثير من شـهادات غير المسـلمين تؤكد هذه الأمور، وهذا يشمل الحيـاة الأندلسـية بأركانهـا الثلاثـة: الأندلـس، محاكـم التفتيش، ومـا تبقّى حتى اليوم من ذلك الميراث. لذلك فلا بد من تشـجيع الدارسـين على هذا، وجلب انتباههم، وتشـجيعهم علـى ذلك، وهذا ما يجب فعلـه كما قد تتلمس ذلك وتراه وتحس به.

❁ يقول ابن الخطيـب (٧٧٦هـ) : إن معرفة أخبار الفتح كان يعرفها الأطفال ولكن لم يبق لنا إلا القليل، وهو ما أمكن لابن حيان الاعتماد عليها، الكتب المذكورة هامشـية والقصـص كانت محل نقـد من المؤرخين الثقات، كالمقري الذي تبرأ من العديد من القصص المشـبوهة كفتح القسـطنطينية عن طريق الأندلس، الكتاب الذي ينسـب لابـن القوطية تجميعي، والثاني هو أيضا تجميعـي مـن تلامذة المؤلـف، هناك من كتـب الأوائـل مـا يصنف بالهامشـي، لا ضير بالاسـتفادة منهـا في حدود ضيقة، لا يستسـقى منهـا بناء تحليلـي متكامل. ليسـت كل الشـبهات محدثـة. بعـض الشـبهات الحديثة التـي تكاد تغطي نتاج المستشـرقين قد يكـون لها أصـل يبنون عليه، لكن تجد هذا الأصل منزويًا وحيدًا مختَلفًا عليه في كتبنا الأولية.

❁ كم تمنيت وسعيت وعملت لتنفيذ مشروع من ثلاثة أركان: تلفزيوني وعلمي وبحثي، التلفزيونـي لنقـل كثيـر مـن المعلومـات المتعلقة بالأندلـس بإخراج محقق مدقق يبـدو مرجعًـا لأي أحـد بعـد ترجمتـه للغـات أخرى، العلمي للقيام بالإشـراف على الرسـائل الجامعيـة في كل ما يتعلق بالأندلـس وعمـوم التاريـخ الإسـلامي،

والبحثي لإنشاء مركز متخصص لتقديم بحوث وإصدار مجلة يحيا بالحيوية والفاعلية والحركية. هذا ما تبنيته منذ عقود، ومن أجل هذا كله وغيره مستعد لكل طالب علم وساع بجد للبحث وراغب في خدمة هذا التاريخ وأتمنى لو ألتقي بأي أحد من هؤلاء، وإني أتمنى على كل من يتولى هذا الأمر أن يسمو بعمله فوق أي منفعة دنيوية التي تأتي هي ضمنًا بطبيعتها وأن يكون في عمله مدفوعًا في خدمة هذا التاريخ والعمل على إظهار وجهه السليم دون إغفال أي منحدرات فيه مثلما يجري مواجهة شبهاته لإظهار لآلئه الذي يستحق هذه الخدمة يبتغي في ذلك رعايته وأحقيته، والأجر فيه من اللّٰه تعالى.

❁ سقوط الأندلس من الموضوعات الأندلسية المعقدة، من أكثر الناس فهمًا لها مَن عَرَفَه كاملًا عن قُرب وسَبَرَ غَوْرَه، كلّما تفوَّق في ذلك كان أمكن في فهمه ومعرفته وتقديمه، تَبَيَّنَتْ تلك الأمور في كتابات عدّة لا سيّما في كتاب: «هجرة علماء الأندلس لدى سقوط غرناطة ظروفها وآثارها» (نشر المجمع الثقافي - أبو ظبي - الإمارات). كُلُّ ما جَرَى للأندلس من تردٍ وضعف وانحدار لم أجده قد مسّ أبعاد بنائه وذاته وحقيقته، بل كان ظاهرًا، لذلك ما إن يقوم الدعاة -علماء وأمراء وحُداة- للدعوة إلى تجديد معاني الإسلام في النفوس نجد الاستجابة -وإن استغرق وقتًا- كما جرى في عصر الطوائف مثلًا.

❁ إن الحروب التي خاضتها الأندلس في رد العدوانات الصليبية من إسبانيا الشمالية (أمام جبال ألبرت) وما وردها مما وراءها من أوربا الغربية برعاية البابوية، التي دامت نحو خمسة قرون متواصلة، أكلت كل طاقتها -لكن رغم ذلك ما تأخرت عن البناء والتجديد والعطاء- مما أنهك المقدرة وأعجزها وأوقفها دون الاستمرار، فآل بها إلى السقوط، هذه الحروب التي لم يتأخر عنها أحد بل يتسابقون إليها، قضت على أهلها -علماء وقادة ومسؤولين- كما قضت على دول الإخوة في الشمال الأفريقي: المرابطين والموحدين وحتى بني مرين، دون إهمال العوامل الأخرى الداخلية -الهفوات والانحدارات

والتقصير- بذلك أنفقت كل مكنة من الجهد والمال والتفوق الإنساني الذي امتلكته، وكان فقدان الإنسان القائد الإيماني والفكري والمهاري، الذي أذهب المُكْنات، أمام تجمع القوى الباغية المتحدة عليها برغبة ألا يبقى إسلام في الجزيرة الأندلسية، في حقد دفين، فَقَدَ كُلَّ معنى كريم بأحابيل موهمة ملفقة مكذوبة، أنتج مما أنتج محاكم التفتيش الغاشمة وما قادت إليه من ارتكابات متوحشة مُجَانبةً كُلَّ القِيَم الإنسانية فضلًا عن الخلقية والدينية، مستمرةً في الملاحقة لكل ما هو إسلامي، بروح الحقد الصليبية، حَمَلَها إلى حرق الثروة العلمية والهدم العمراني الفريد والمآثر المتنوعة وحامِلها وعامِلها ومنتِجها، حتى خارج شبه الجزيرة الإيبيرية في الشمال الأفريقي بل حتى الفلبين لا بل حتى أمريكا الوسطى واللاتينية، وإن كانت هذه بحاجة إلى ما ضاع من وثائقها، أكثر من غيرها. الخلاصة: يكون هذا السقوط بسببين واضحين رئيسيين: الداخلي والخارجي، لكن الخارجي كان أبعدَ أثرًا وتدهورًا وتكسرًا، دون رفع أي لوم عن أحد ولا تبرير لأي تخلف أو تقصير، لكن الأمر المتعلق بتكوين صورة أجود وأدق وأوثق تبقى بالانتظار والأمل والشوق إلى ظهور وثائق مُرْفِدة معتمَدة جديدة، تأتينا ببعض ما له عَلاقة بهذا الأمر وغيره مما يلقي ضوءًا جديدًا.

وختامًا:

إن الدكتور الحجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مثَّل مشروعًا متكاملًا لتدوين التاريخ الأندلسي وإنصافه، والوفاء بالعهد له هو الآخر يمثل مشروعًا كبيرًا وضخمًا، أوله الكتابة عنه أكاديميًا -مما تم الشروع به بحمد الله وفضله- وانتهاءً بتحقيق حلمه الكبير بإنشاء مركز دراسات التاريخ الإسلامي الذي ظل يدعو إليه ويعمل من أجله، وبين هذا وذاك الكثير الكثير...

رحم الله أستاذنا ووالدنا عبد الرحمن الحجي، وأسكنه فسيح جناته، والحمد -أولًا وآخرًا- لله رب العالمين.



عبدالرحمن الحجي: أستاذي الذي عرفته

نادر بن وثير(*)

لا أنسى موجة الفرح التي انتابتني في ربيع عام ٢٠١٥م حين أخبرني أحد أصدقائي أن المؤرخ الشهير الدكتور عبد الرحمن الحجي صاحب كتاب «التاريخ الأندلسي» قد حل ضيفًا على بلادي الكويت، وزاد الفرح عندما أخبرني صديقي بأن الدكتور يستقبل الجميع بصدر رحب حتى لو لم يكن لك سابق معرفة به، وكنت قد عرفت الدكتور عبد الرحمن عن طريق مؤلفاته الشهيرة ومقابلاته التلفزيونية الماتعة والنافعة في آن واحد، اتصلت بالدكتور فكان كما قيل لي، يهلل ويرحب فحددت معه موعدًا في اليوم التالي.

زرت الحجي في داره المكتضة بالكتب، كان بشوشًا عطوفًا، صاحب شخصية عظيمة جمعت بين هيبة العلماء وتواضع الزهاد، في البداية كنت أسأله بشيء من الحذر خوفًا من إزعاجه وإذا بي أرى رجلًا لا يكلّ ولا يملّ من الحديث عن التاريخ والكتب والعلماء والكُتاب، جلستُ معه ساعات طويلة، وأنا أسأل وأسأل وهو يجيبني بتفاصيل دقيقة، ولا أزال أذكر صورته رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما رأيته في ذلك اليوم؛ رجلًا بسيَط المظهر بعيدًا عن كل تكلّف في زيه وجلسته وحديثه؛ يتكلم عن التاريخ والأدب والمؤلفات، كان جُلّ حديثنا عن الأندلس، كان يتكلم بأناة العالم المحقق، ولكن بسهولة المتحدث المفيد.

ومما حفرته في ذاكرتي قوله: إن المستشرقين قد ركزوا على التاريخ لأن

(*) كاتب وباحث في التاريخ والأدب، من الكويت.

التاريخ هو التطبيق العملي لتعاليم الإسلام، وبسقوطه يسقط الإسلام، وأن كل الشبهات التي روجوا لها تسقط مع التحقيق العلمي. كما أخبرني بأن أفضل مؤرخ مشرقي كتب عن الأندلس هو الإمام الذهبي في كتابه (تاريخ الإسلام)، وأفضل من دوّن تاريخ الأندلس من المعاصرين العلامة محمد عبد الله عنان، وأسهب الدكتور الحجي بالقول عن مشروعه التاريخي (مركز ابن حزم) الذي يعنى بتدوين التاريخ الإسلامي من جديد لكنه مع كامل الأسف لم يتم، ولعل طلبة الحجي ومحبيه يقومون بإنجاز ذلك المشروع.

ولم أخرج من داره إلا بعد ساعات طويلة مرت كأنها لحظات خاطفة، كان هذا أول لقاء جمعي بذلك المؤرخ الكبير، الذي كان يجاهر بعطفه وغيرته الشديدتين على أمته ودينه، وكان لا يخفي حزنه على ما أصاب الأمة من ركود وجمود في الفكر والسياسة، لكنه كان متفائلًا شديد التفائل في شباب الأمة، ولم أسمع منه تذمرًا ولا تجريحًا لأحد من الأموات والأحياء على السواء، لا في مقابلتي الأولى ولا حتى في المقابلات اللاحقة -غفر الله له-.

الحجي في سطور:

ولمن لا يعرف الحجي أقول: إنه عبد الرحمن بن علي الحجي، عراقي المولد والنشأة، إسلامي النزعة والميول، أندلسي الهوى والتخصص، حصل على الدكتوراه من جامعة كامبريدج سنة ١٩٦٦م، ودرّس في العديد من الجامعات العربية مثل جامعة بغداد، والملك سعود، والكويت، وصنعاء، والإمارات، كان عالمًا متبحرًا كثير القراءة والاطلاع، يُمضي جُل يومه في القراءة، قال ذات مرة أنه قد قرأ كل مؤلفات العقاد وطه حسين وأحمد أمين وسيد قطب ومحمد عبد الله عنان وغيرهم الكثير ممن لا تحضرني أسماؤهم، ومما هو جدير بالذكر أن الحجي قد عاش آخر حياته في مدريد عاصمة إسبانيا، فكان يتردد على الصروح الإسلامية الخالدة في تلك البلاد التي سحرت فؤاد الحجي وأخذت بلبّه.

وله مؤلفات علمية وأدبية وتحقيقات وأبحاث سارت بذكرها الركبان، وانتفع منها خلق كثير، أشهرها كتاب (التاريخ الأندلسي) الذي يقع في ستمئة صفحة.

قال لي أنه قد ألفه في ست سنوات، ويصل عدد المصادر التي استند إليها حوالي مئتي مصدر من ست لغات مختلفة، وقد اختصر الحجي في كتابه هذا تاريخ المسلمين في الأندلس من عصر الفتح إلى عصر الانهيار والضياع، وهو في نظري خير ما كتبه المؤرّخون المعاصرون عن ذلك التاريخ العظيم، وله كتاب (شعراء الأندلس) الذي كتب فيه عن كل الشعراء الكبار الذين عرفتهم الأندلس خلال ثمانية قرون، وله كتاب (العلاقات الدبلوماسية الأندلسية مع أوربا الغربية خلال المدة الأموية) وهذه الدراسة تعد من خيرة مؤلفات الحجي، إذ هي رسالته للدكتوراه التي قدمها في جامعة كامبريدج، ومصادرها باثنتي عشرة لغة، منشورة كتابًا بالإنجليزية -كما ذكر لي- وتُرجمت إلى اللغة العربية وتم نشرها، كما ألف الحجي وأبدع التأليف في السيرة النبوية، وله محاضرات مصورة ولقاءات تلفزيونية لا حصر لها غالبها نُشرت في الإنترنت.

رحم الله الدكتور عبد الرحمن الحجي الذي وفاته المنية في ١٨ يناير ٢٠٢١م بعد أن أدى واجبه على أكمل وجه للحقيقة والتاريخ، رحل ولم ترحل آثاره الأدبية والعلمية وهو ممن يصدق فيهم قول الإمام الشافعي:

قَد مَاتَ قَومٌ وَمَا مَاتَت فَضَائِلُهُم

وَعَاشَ قَومٌ وَهُم فِي النَّاسِ أَموَاتُ







كتاب «جوانب من الحضارة الإسلامية» لعبد الرحمن الحجي

فاتن مصطفى السامرائي(*)

عن المؤلف:

عراقي المولد والأصالة، شيخ المؤرخين في التأريخ الأندلسي، أستاذ التأريخ الإسلامي والأندلسي والسيرة النبوية في جامعات عربية آخرها في بغداد.

أخذ اتجاهه وصب اهتمامه في تاريخ الحضارة الإسلامية الأندلسية.

وبحث فيها وكتب وحقق وترجم.

هو صاحب أول مؤلَّف يشمل تأريخ الأندلس من الفتح وحتى سقوط غرناطة، وتعد مؤلفاته بضمنه المذكور توًا مرجعًا ومنهجًا، لرصانتها. كما أنه مؤلف المناهج لمراحل مدرسية في الإمارات، التي برز دوره التدريسي فيها ومنع من دخولها آخر فترة حياته. له عدة شهادات منها الدكتوراه في التأريخ وآخرها الأستاذية من بغداد، ودرّس في عدة جامعات لعدة دول، حتى توفي إثر نوبة قلبية بعيدًا عن وطنه في مدريد. ولا يسع هنا ذكر مناقبه، وآثاره التي امتاز بها وهي خير لا محدودٌ نفعه.

هذا الكتاب:

هذا الكتاب الصغير وعنوانه مشوقان لاطلاع الباحث والمهتم بالحضارة الإسلامية، وهو نهج -الاطلاع على الحضارة الإسلامية- لا بد منه لكل مسلم؛ ليعرف أن دينه دستور حياة كامل، لا كما يغيّبُنا اليومَ ومنذ غير قريب المغرِضون عن هذه الحقيقة.

(*) تربوية وكاتبة، من العراق.

أسلوبه:

أسلوب الدكتور عبد الرحمن الحجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يسير الفهم، والفكرة فيه واحدة تتم عن عقل عارف هاضم للقضية. بمجرد أن تنهي هذا الكتاب تغلقه؛ لتفتح عناوين أخرى تنهل بها من بحر الحضارة الإسلامية التي وسعت كل جوانب الحياة. فيبدو هذا الكتيب كمفتاح للبحث والتقصي لما غاب عن الكثير.

مضمونه:

ذكر الدكتور بشكل موجز منهج العلاقات الدولية التي كان يتعامل بها الرسول ﷺ من البيئة البسيطة مقابل ما يسمى حضارات -زعمًا- عريقة الامتداد، وهمجيتها في التعامل مع ضيوفها حد التعذيب والقتل؛ وهو إن دل فعلى ركاكة أساس هذه الحضارات، إذ يخشى ملوكها وقاداتها من أن تُستغل ثغراتها، فلا مبدأ لهم يقويهم تجاه الأفكار الجديدة الدخيلة، إنما قوتهم باغتصاب البلدان، واستخدام خيراتها، ومعادنها كدروع، وأسلحة، وهذا هو كل ما لديهم. أما هذا الفكر الجديد فيحمل مبدأ، وعقيدة تدفعه، مع تنظيم، وخطوات محسوبة، وثقة بأن دولة جديدة وحضارة تقام على أساس قوي ستنهض وتنافس حضارات مقامة لها أمد بعيد.

اقتباس:

«لقد عاش المجتمع الإسلامي بكل عصوره وأحواله موضوع العهود وحسن التعامل مع الآخرين على أساس خلقي وصادق. وكل ذلك مرتبط بالعقيدة الإسلامية والخوف من الله تعالى. وترسخت هذه الصفة وغيرها حتى غدت وبدت أخلاقية أصيلة تميز بها المجتمع المسلم وجربها وأقر بها كل أولئك الذين تعاملوا مع المجتمع المسلم». (ص٣٢)

في ذكر الجانب العلمي والثقافي للحضارة الإسلامية أوضحَ الدكتور أن الثروة العلمية والثقافية خلال عصور مختلفة تلك التي قسمها المؤرخون إلى عصور ثرية وعصور مظلمة، لا بد من دراسة البيئة في كل وقت منها وشخصية الأعلام ومقاصدهم. ويجيب على هذا التساؤل بأن العالم وقتذاك كان يعطي بسخاء العلوم التي كافح وقضى سني عمره في التهام المعارف المختلفة ليخرج بفهم تحتاجه الأمة. كان يعطيه لوجه الله تعالى، فالمقصد الشريف سبب في أن يعين الله تعالى العالِم، وقد ذكر



منهم الدكتور الكثير كـ (ابن حزم الأندلسي، وشمس الدين الذهبي، ومفسري القرآن مثل الحافظ بقي بن مخلد) وفي أذهاننا الآن تلمع أسماء كثيرة. ومن أسباب هذا الثراء العلمي والثقافي هو حَثُّ الإسلام أساسًا على طلب العلم فاهتم الأعلام في تلك الأوقات بطلب العلم والبذل في سبيله كل المستطاع، وهنا ذكر الدكتور رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما جعلني أملك مشاعر مختلفة في آن واحد:

اقتباس:

«كل ذلك كان يجري والتعليم حر يقوم به الناس قبل الدولة، والمدارس الرسمية قليلة، فغدا العلم -طلبه وتعليمه ورعايته- طبيعة وسِمة أقامتها العقيدة الإسلامية، وتلك واحدة من ثمارها». (ص ١٥).

فأين نحن اليوم من انشغالنا بالعلم غير النافع الذي أصبح ضرورة لمواكبة العالم وللعمل فلا سبيل للتهرب منه إلا من زهد في الدنيا ورضًى بالقليل.

الجانب الحضاري المظلوم:

كان للجانب القضائي في الحضارة الإسلامية أهمية عنده، وقد وصفه بأنه مظلوم تأريخيًا، وهذا الباب يفتح للقارىء أن يبحث عنه المزيد.

وحقيقة هو جانب غير قليل الأهمية فحين قرأت في كتاب «صور من حياة التابعين» لعبد الرحمن رأفت الباشا، قصة شريح القاضي، كم أثرت بي القصص التي ذُكرت (ص١١٧). فالقاضي المسلم يعمل وفق دستور القرآن، ويتميز بعقلية وفطنة ونباهة وهذا يدل على اهتمام الإسلام بكل جانب من الحياة، وضرورة التمسك بكتاب الله. إذ لا غنى لنا عنه، ولا تغرنا الدول المتقدمة وتطورها أي غرور؛ فهي خالية من كل عدل ودساتيرها وضعت بعقول بشرية بصرها محدود وبصيرتها محدودة. وما يحصل معنا اليوم من تأخر ليس لأننا لم نواكب تقدم المتقدمين؛ بل لأننا تخلّينا شيئًا فشيئًا عن أسباب تقدمنا الخاص وبين أيدينا كل الأسباب. كمن بيده المفتاح وأمامه الباب لكنه أعمى بصر وبصيرة وأضاع تعليمات الاستخدام.



دراسات أندلسية



مصادر التأريخ للمدن الأندلسية حتى نهاية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، دراسة تحليلية ببليوجرافية

أ. د. محمَّد على دبُّور[*]

تقديم:

هــذا النوع من الكتابــة التاريخية هو وليد الشــعور بالعصبية للأمصــار وارتباط المؤرخ بمدينتــه واعتزازه بها، وهــو نمط من أنماط الكتابة التاريخية التي ظهرت أولاً في المشــرق الإســلامي في فترة مبكــرة وذاع صيتها، فقد ألف ابــن زبالة كتابه **أخبــار المدينة** في حدود سـنة ١٩٩ هــ/ ٨١٤ م، كمـا ألــف الأزرقــيّ (ت ٢٤٤ هـ/ ٨٥٨ م) كتابه **أخبار مكة وما جاء فيهــا من الآثــار**، وألف أبو الفضــل أحمد بن أبي طاهر المعــروف بابن طيفور (ت ٢٨٠هـ/ ٨٩٣م) **كتاب بغداد**، وألف أسلم بن سهل الرزاز الواســطي المعــروف بـ«بحشــل» (ت ٢٩٢هـ/ ٩٠٥ م) كتابه **تاريخ واســط**[1]، و**تاريخ واسـط** أيضًــا لأبي الحســن علــي بــن محمــد بــن الطيب الجُلاَّبي[2] الشــهير بابن المغازلي (ت ٤٨٣هــ/ ١٠٩٠ م)، وألف أبو علي محمد بن سعيد بن عبد الرحمن القشيري (ت ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م) **تاريــخ الرَّقَّــة**[3]، وألــف الحاكــم أبــو عبد اللّه محمــد النيســابوري المعروف بابن البَيِّــع[4] (ت ٤٠٥ هــ/ ١٠١٤ م) كتابه **تاريخ نيســابور**، وألف أبو القاسم حمزة بن يوسف بن إبراهيم الســهميّ (ت ٤٢٧ هـ/ ١٠٣٥ م) كتابــه **تاريــخ جرجان**، وكذلك ألــف أبو نعيم

(*) مؤرخ ومحقق ولغوي وأكاديمي مصري. أســتاذ التاريخ الإسلامي بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة.

(١) تحقيــق: كوركيس عواد- عالم الكتب- ط ١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦ م.

(٢) ورد اســمه في مقدمة الإحاطة لابن الخطيب (تحقيق: أ. عنان)، ١/ ٨٢، هكذا: (تاريخ واســط لأبي الحسين علي بن الطيب الخلافي)، وهو تصحيف واضح.

(٣) عُنــي بتحقيقه: إبراهيم صالح- دار البشــائر للطباعة والنشر والتوزيع- دمشق- ط ١، ١٤١٩ هـ/ ١٩٩٨ م.

(٤) ورد اســمه في مقدمة الإحاطة لابن الخطيب (تحقيق: أ. عنان)، ١/ ٨١، هكذا: (تاريخ نيسابور لأبي عبد اللّه بن اليسع)، وهو تصحيف أيضًا.

الأصبهانيّ (ت ٤٣٠هـ/ ١٠٣٨ م) كتابه **ذكر أخبار أصبهان**، وصنف الخطيب البغداديّ (ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧١ م) **تاريخ بغداد**، وكذلك الحافظ ابن عساكر (ت ٥٧١ هـ/ ١١٧٦ م) صنف كتابه الشهير **تاريخ دمشق** إلى غير ذلك من الكتابات التي ظهرت على شكل تواريخ لبعض المدن الإسلامية في شتى الأقطار، وهي مؤلفات كثيرة لا تُحصى.

وكان الاهتمام بهذا المجال في الأندلس كبيرًا أيضًا، وقد ظهر كنوع من الرغبة لدى الأندلسيين في منافسة إخوانهم المشارقة في تبيان فضائل المدن الأندلسية ومكانتها وتاريخها وما يموج فيها من حركة علمية دائبة وازدهار حضاريّ متألق، فكثرت المؤلفات في هذا الجانب وتنوعت، وكان الشعور بالأندلسية يمثل آنئذٍ أهم مظاهر الحياة الثقافية في الأندلس، وقد بدا هذا الشعور واضحًا في عناية الأندلسيين بجمع تراثهم وكتابة تاريخ مدنهم، وكانوا شديدي التعصب لبلادهم، نرى ذلك من أنسابهم، فلا نكاد نجد عالمًا ولا أديبًا إلا ويُنسب لبلده أو مدينته، فيقال: القرطبي، والإشبيلي، والغرناطي، والبلنسي، والمالقي، والجياني، وغيرها من النسبة إلى المدن الأندلسية المتعددة.

وسنحاول في هذا البحث أن نتتبع جهود المؤرخين الأندلسيين في التأريخ لمدن الأندلس المختلفة، بمعنى الوقوف على الكتابات التاريخية أو المصادر التي اهتمت بتاريخ كل مدينة من مدن الأندلس منذ ظهر هذا النمط من أنماط الكتابة التاريخية في الأندلس، مع التعريج على الأسباب التي تقف وراء شيوع هذا الاتجاه من اتجاهات التأليف التاريخي في الأندلس.

أولية ظهور التأريخ للمدن الأندلسية:

من منطلق الغيرة والشعور بالذات أو الشعور بالأندلسية -كما ذكرنا- حظيت المدن الأندلسية باهتمام أبنائها من المؤرخين الأندلسيين الذين تباروا في هذا المضمار فأبدعوا وتفننوا في ذلك، وباستقراء عدد من المصادر الأندلسية نستطيع القول إن هذا النوع من الكتابة بدأ في الظهور في الأندلس مع بدايات القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، عندما أخرج لنا **أبو بكر أحمد بن محمد بن موسى الرازيّ القرطبيّ** (ت ٣٤٤ هـ/ ٩٥٥ م) موسوعته الضخمة الموسومة بـ (**صفة قرطبة**[(١)]

(١) قرطبة (Córdoba): قاعدة الأندلس وأم مدائنها، تقع على نهر الوادي الكبير (Guadalquivir) في الجزء الجنوبي من إسبانيا، وهي عاصمة مقاطعة قرطبة، يحدها من الشمال مدينة ماردة (Mérida)، ومن الجنوب مدينة قرمونة (Carmona)، ومن الغرب مدينة إشبيلية (Sevilla)، وهي في سفح جبل مطل عليها يسمى جبل العروس، اشتهرت بالعمران والحضارة، وقد سقطت نهائيًا في أيدي النصارى سنة ٦٣٣ هـ/ ١٢٣٥ م. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٤/ ٣٢٤-٣٢٥. ذكر بلاد الأندلس لمؤلف مجهول، ص ٢٠ وما بعدها. الإدريسي: نزهة المشتاق،٢/ ٥٧٤-٥٧٩. الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص ١٥٣-١٥٨.



وخِططها ومنازل الأعيان (العظماء) بها، تحدث فيه عن طبوغرافيتها وخِطَطِها ومنازل أشرافها، وكانت هذه الموسوعة آنذاك تمثل نمطًا جديدًا من أنماط الكتابة التاريخية لم يُعْرف من قبل في الأندلس، ولذا كان هذا العمل الجديد لافتًا للنظر وجاذبًا للانتباه ومستدعيًا في أذهان المؤرخين الأعمال المشابهة له في المشرق الإسلاميّ، ولذا نجد أبا عبد الله الحميديّ صاحب «جذوة المقتبس» يعلِّق على هذه الموسوعة – مقارنًا بينها وبين (تاريخ بغداد)– بقوله: «على نحو ما بدأ به أحمد بن أبي طاهر في أخبار بغداد، وذكره لمنازل صحابة المنصور بها»[1].

كما ألف مطرف بن عيسى الغسانيّ (ت ٣٧٧ هـ/ ٩٨٧ م) العديد من الكتب التي تخص مدينة إلبيرة Elvira[2]، ومن أهمها كتاب (**المعارف**) في أخبار كورة إلبيرة وأهلها وبواديها وأقاليمها وغير ذلك من منافعها، وقد ذكر ابن بشكوال أنه ألفه للحكم المستنصر، كما قال عن الكتاب: «وهو كتابٌ حسنٌ ممتعٌ جدًّا»[3].

ونالت مدينة رَيُّه (Rayyo)[4] اهتمامًا كبيرًا من قبل إسحاق بن سلمة بن إسحاق القينيّ (ت ٣٩٩ هـ/ ١٠٠٩ م)، وهو إخباريٌّ عالم كما وصفه الحُميديّ، فألف كتابًا يشتمل على أجزاء كثيرة في أخبار رَيُّه من

(١) الحميدي: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس– الدار المصرية للتأليف والترجمة– سلسلة المكتبة الأندلسية (٣)– القاهرة، ١٩٦٦ م، ص ١٠٤، الترجمة رقم ١٧٥. المقري: نفح الطيب، ٣/ ١٧٣.

(٢) إلبيرة (Elvira): هي إحدى الكور والولايات الكبرى التي كانت تتشكل منها الدولة الأموية في الأندلس، والألف فيها ألف قطع، وليست بألف وصل، وتقع تلك الكورة في الجبهة الجنوبية لسفوح جبل إلبيرة، أسسها عبد الرحمن الداخل وأسكنها جند الشام وبعض مواليه، ثم خالطهم العرب، وظلت إلبيرة قاعدة لهذه الولاية طيلة عهد الدولة الأموية إلى حين انهيار هذه الأخيرة في أواخر القرن الرابع الهجري؛ فانتقل أهلها

= إلى غرناطة سنة ٤٠٠ هـ/ ١٠١٠ م إثر الفتنة البربرية بقرطبة، إذ خُربت إلبيرة وحلت غرناطة محلها .انظر: البكري: جغرافية الأندلس وأوروبا، ص ١٢٦، حاشية رقم ٢. الرشاطي وابن الخراط الإشبيلي: الأندلس في اقتباس الأنوار وفي اختصار اقتباس الأنوار، ص ١٧. ابن حيان: المقتبس–تحقيق: د. محمود علي مكي، ص ٢٤٩، حاشية رقم ٤٢.

(٣) ابن بشكوال: الصلة، ٣/ ٨٩٨، الترجمة رقم ١٣٧٨.

(٤) رَيُّه (Rayyo): كورة مهمة من كور الأندلس، يحدها جنوبًا البحر المتوسط، وتصاقب كورة إلبيرة (Elvira) من الغرب، وتتصل أيضًا بكورتي الجزيرة الخضراء (Algeciras) وإستجة (Ecija)، وهي المنطقة التي أصبحت مدينة مالقة (Málaga) عاصمتها في جنوب شرقي شبه الجزيرة، والأصل في ضبطها تشديد الياء وضمها، إذ هي تقابل (Regio) ومعناها (الملكية)، وقد أورد هذا التفسير ابن سعيد في (المغرب)، فقال: إن معنى ريه عند النصارى (سلطانة)، وقد نزلها جند الأردن بعد الفتح الإسلامي للأندلس. انظر: ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، ١/ ٤٢٣. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٣/ ١١٦. ذكر بلاد الأندلس لمؤلف مجهول، ص ٦٨.

بلاد الأندلس وحصونها وولاتها وحروبها وفقهائها وشعرائها[(١)].

وفي القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ازدهرت الكتابة التاريخية عن مدن الأندلس، خاصة في عصر ملوك الطوائف الذي شهد تجزئة الأندلس إلى مدن- إمارات- فكتب إبراهيم بن وزمر الحجاريّ تاريخًا لمدينة رَيُّه، كما عهد إليه المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة ونواحيها بتأليف كتاب في شعراء وادي الحجارة[(٢)] وتاريخها ومؤرخيها[(٣)] فصنف له كتابه الشهير: «**مغناطيس الأفكار فيما تحتوي عليه مدينة الفرج من النظم والنثر والأخبار**»[(٤)]، وقد عبَّر المستعرب الإسباني آنخل جونثالث بالنثيا عن قيمته التاريخية بقوله: «ويعتبر تاريخًا حقًّا لوادي الحجارة في صورة تراجم»[(٥)].

كما نجد أيضًا محمد بن عبد الله بن الأشعث القرشي الإشبيلي، فهو من مدينة إشبيلية، وكان شيخًا حافظًا للأخبار[(٦)]، لذا نجده يؤلف كتابًا في أخبارها بعنوان: «**أخبار إشبيلية**»، وقد عوَّل عليه ابنُ حيان كثيرًا في أخبار إشبيلية[٧] وما يتعلق بها من أحداث وشخصيات[(٨)].

إن استمرار التأليف في تواريخ المدن، أو التواريخ المحلية، قد أظهر المدن الأندلسية باعتبارها وحدات حضارية فكرية، تعكس العديد من الجوانب العلمية والثقافية لهذه المدن، وكذلك الجوانب السياسية.

(١) انظر: الحميدي: جذوة المقتبس، ص ١٦٩، الترجمة رقم ٣٠٩. المقري: نفح الطيب، ٣/ ١٧٤.

(٢) وادي الحجارة (Guadalajara): إحدى مدن الثغر الأوسط بالأندلس، وتُعرف أيضًا باسم مدينة الفرج، نسبة إلى بانيها الفرج بن مرة بن سالم المصمودي، وتقع إلى الشمال الشرقي من مدريد (Madrid) على مسافة ٦٠ كلم منها، وهي مدينة حصينة، ذات أسوار، كثيرة الخيرات والأرزاق. انظر: الإدريسي: صفة المغرب، ص ١٨٩. د. محمود علي مكي: مدريد العربية، ص ١٦. محمد الفاسي: الأعلام الجغرافية، ص ٣١.

(٣) آنخل جونثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٣٠٤.

(٤) انظر: ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة- تحقيق: محمد عبد الله عنان- مكتبة الخانجي- القاهرة- ط ١، ١٣٩٥ هـ/ ١٩٧٥ م، ٣/ ٤٣٢.

(٥) أنخل جونثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٣٠٤.

(٦) انظر: ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس- تحقيق: د. بشار عواد معروف، ٢/ ٦٩، الترجمة رقم ١٢٢٦.

(٧) إشبيلية (Sevilla): من كبرى المدن الأندلسية، بل عروس مدن الأندلس، وتعني الأرض المنبسطة، وهي أول عاصمة اتخذها المسلمون في الأندلس قبل قرطبة (Córdoba)، وتقع على نهر الوادي الكبير (Guadalquivir) إلى الجنوب الغربي من مدينة قرطبة، وقد اشتهرت بشرف البقعة وطيب الأرض. انظر: البكري: جغرافية الأندلس وأوروبا، ص ١٠٧. الرشاطي وابن الخراط الإشبيلي: الأندلس في اقتباس الأنوار وفي اختصار اقتباس الأنوار، ص ١٠٢. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ١/ ١٩٥.

(٨) ابن حيان: المقتبس- تحقيق: ملتشور أنطونيه، ص ٦٧-٨٣.



لـذا نجـد أن القــرن الســادس الهجري/ الثانــي عشــر الميــلادي كان أكثر غــزارة مما ســبقه فيمــا يتعلق بهــذا النمط مــن الكتابة التاريخيــة، وخــلال هــذا القــرن وقفنا على العديد من المصــادر المختصة بالتأريخ للمدن الأندلسية، فوجدنا المؤرخ **ابن علقمة البلنسي** (ت ٥٠٩هـ/ ١١١٦ م)، وكان أديبًا ناظمًا ناثرًا، كتب عن بعض أمراء الطوائف في عصره(١).

وضـع ابن علقمة البلنســيّ كتابًـا تاريخيًّا مهمًّــا في تغلــب الــروم (النصــارى) علــى بلنسية(٢) تحت عنوان: (**البيان الواضح في الملم الفادح**)(٣)، وقد ذكره ابن الأبار باســم: (**تاريخ بلنســية**)(٤)، وبالاسم نفسه ذكره ابن الخطيب في مقدمــة كتابــه الإحاطــة(٥)، وذكره صاحب كشف الظنون بعنوان: (**تاريخ بلنسية من بلاد الأندلــس**)(٦)، وهو واحد مــن المؤلفات النادرة التي كُتبت في الحوادث التي ألمت ببعض المدن الأندلســية، وقــد ألفه ابنُ علقمــة ليصف لنا تلــك الكارثة التي نزلت بمدينة بلنســية Valencia، والأحداث المروعة والمأســاة المفزعة التــي نزلت بها عند حصارها على يد الســيد الكمبيــادور (El Cid el Campeador) ثــم

(١) ولــد ابن علقمة ســنة (٤٢٨ هــ/ ١٠٣٦ م)، وتوفى يوم الأحد الخامس والعشــرين من شوال ســنة (٥٠٩ هـ/ ١١١٦ م). انظر: ابن الأبار: التكملة، ١/ ٣٣٥، الترجمة رقم ١١٨٦. ابن عبد الملك المراكشــي: الذيل والتكملة، السـفر الســادس، ص ١٨٤، الترجمــة رقم ٥٠٩. عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ٣/ ٢٧٦.

– F. Pons Boigues: Ensayo Bio-Bibliográfico sobre los Historiadores y Geógrafos Arábigo-Españoles – Madrid, 1898, Trad. Núm. 140.

(٢) بلنسية (Valencia): مدينة كبيرة من المدن الأندلسية، تقع في شــرقي الأندلــس قرب ســاحل البحر الأبيض المتوســط علــى بُعــد ٤ كــم منــه، وتحدهــا طليطلــة (Toledo) مــن الغــرب، وطرطوشــة (Tortosa) مــن الشمال، ومرسية (Murcia) من الجنوب، وهي شرقي قرطبة (Córdoba)، وشــرقي تدميــر (Teodmiro/ Tudmir)، وكانــت تمثــل قاعــدة مهمــة مــن قواعد الأندلس خلال الحكم الإســلامي؛ إذ تتبعها عدة مدن وأقاليــم وقرى وحصــون، وهــي مخصوصــة بخصوبة التربــة وكثــرة الأنهار والجنــان والمحاصيــل والأزهار، وتتميز بصناعة النســيج وحركة التجارة الواسعة، وقد سقطت نهائيًّا في أيدي النصارى على يد خايمي الثاني (Jaime II) ملــك أراغون (Aragón) ســنة ٦٣٦ هـ/ ١٢٣٨ م. انظــر: البكري: جغرافيــة الأندلس وأوروبا، ص ١٢٧. العذري: نصوص عن الأندلس، ص ١٧–٢٠. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ١/ ٤٩٠.

(٣) انظــر: ابــن الأبــار: التكملــة، ١/ ٣٣٥، الترجمــة رقم ١١٨٦. ابن شــاكر الكتبــي: عيون التواريــخ، ١٢/ ٦٩. العبــاس بن إبراهيم: الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، ١/ ١١٦. ابن عبد الملك المراكشــي: الذيل والتكملة، الســفر الســادس، ص ١٨٤، وقد أشــار إلى قيمــة الكتاب فقــال: «ولــه تاريخ في تغلب الــروم على بلنســية قبل خمسمائة سمَّاه بـ (البيان الواضح في الملم الفادح) ليس بذاك»، ثم ذكر أن له تأليفًا غيره، لكنه لم يذكر لنا شــيئًا عن عنوان هذا التأليف ولا عن محتواه. آنخل جونثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٣٠٥.

(٤) ابن الأبار: تحفة القادم، ص ٣٠.

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة، ١/ ٨٣.

(٦) حاجي خليفة: كشف الظنون، ١/ ٢٨٩. الذهبي: تاريخ الإســلام، ١١/ ١٢٥. فرانــز روزنثال: علم التاريخ عند المسلمين، ص ٦٢٤.

استيلائه عليها سنة (٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م)، وقد ذكر ابن الأبار هذا الكتاب الفريد في بابه وسبب تأليفه، فقال عن ابن علقمة: «وألف تاريخًا في تغلب الروم (يعني: النصارى) على بلنسية قبل الخمسمائة سمَّاه: البيان الواضح في الملم الفادح»[1].

ويعد وصف ابن علقمة لمأساة بلنسية Valencia وأحداثها المروعة في هذه الفترة العصيبة وثيقة ناطقة ذات قيمة عالية وأهمية أساسية، حيث كتبها مؤرخ وأديب بلنسي، شاهد عيان لهذه الحوادث ومشارك في بعضها، فهو- كما يقول ابن عذارى- ممن شهد الموطن وكان في الحصار[2]، وقد وصفه البعض بأنه مؤرخ فاجعة بلنسية[3]، وقد اعتمد عدد من المؤرخين اللاحقين على كتابه ونقلوا عنه فقرات متعددة فيما يتعلق بهذا الحصار خاصة ما نقله عنه ابن عذارى، حيث كان من أكثر المؤرخين نقلاً عن كتاب ابن علقمة المفقود، فقد نقل عنه صفحات كثيرة كاملة ومتتالية، واعتمد عليه بصورة أساسية فيما يتعلق بأحداث بلنسية، ونقل عنه هذه الأحداث نقلاً حرفيًا، فلم يتخلل هذه الأحداث وهذا النقل مصدرٌ آخر غير ابن علقمة وكتابه، فقد نقل عنه ابن عذارى بدايات الحصار، وجهود القاضي ابن جحاف لإنقاذ المدينة، ثم نهايته المأساوية على يد السيد الكمبيادور، والظروف الاقتصادية الصعبة التي عانى منها أهل بلنسية تحت وطأة هذا الحصار الدامي، ثم استسلام المدينة ونكوص السيد الكمبيادور عن وعوده وعهوده لأهل بلنسية، وتنكيله بعلمائها وأعيانها، وقد صدَّر ابن عذارى هذه الأخبار بقوله: «قال محمد بن علقمة.....»[4]، وكثير من المعلومات التي نقلها ابن عذاري عنه لا نكاد نجدها في مصدر تاريخي آخر عند الحديث عن بلنسية وأحداثها.

وإذا عرفنا أن كتاب ابن علقمة المذكور معنا من المصادر الأندلسية المهمة المفقودة أدركنا مدى أهمية وقيمة النصوص التي احتفظ لنا بها المؤرخون المتأخرون من هذا الكتاب أمثال: ابن الكردبوس وابن الأبار وابن عذاري وابن الخطيب وغيرهم.

ونظرًا لأهمية الكتاب فقد نقلت عنه بعض الحوليات التاريخية الإسبانية، ونخص بالذكر منها حولية ألفونسو العالم Alfonso el Sabio، وكذلك فإن الذين كتبوا المدونة العامة الأولى الإسبانية (Primera Crónica General) التي نسميها عادة «تاريخ إسبانيا

(١) ابن الأبار: التكملة، ١/ ٣٣٥، الترجمة رقم ١١٨٦.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب، ٤/ ١٤٨.

(٣) د. عبد الرحمن علي الحجي: التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة-دار القلم-بيروت-ط ٢، ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨١ م، ص ٣٧٤، حاشية رقم ١.

(٤) انظر: البيان المغرب، ٤/٣١-٤١.

العام» ترجموه إلى الإسبانية وأضافوه إلى هذه المدونة، وقد اكتشف ذلك المستشرق الهولندي رينهارت دوزى، وبرهن عليه بدلالات من أسلوب الترجمة، ثم عثر المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال على الجزء الرابع من كتاب ابن عذارى، ووجد فيه فقرات كاملة من كتاب ابن علقمة، فقام بمقارنة هذه الفقرات بالنص الإسباني الموجود في المدونة، وانتهى إلى إثبات نظرية دوزى بصورة قاطعة[١].

كما تضمن كتاب ابن علقمة المفقود المرثية الشهيرة التي نظمها الأديب الفيلسوف أبو الوليد هشام بن أحمد الكناني الوقشيّ، نسبة إلى بلدة وقشة من أعمال طليطلة Toledo، وفي تلك المرثية بكى بلنسية Valencia وما حلَّ بها، ومما يؤسف له أن أصل هذه المرثية قد فقد ولم يبق منها إلا صور مكتوبة بحروف لاتينية فيما وجد من نسخ «تاريخ إسبانيا العام» الذي سعى لتصنيفه ألفونسو العالم (العاشر)[٢].

(١) انظر: د. حسين مؤنس: السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين-المجلة التاريخية المصرية- المجلد الثالث/ العدد الأول، مايو ١٩٥٠ م، ص ٥٧، حاشية رقم ١. د. الطاهر أحمد مكي: دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة- دار المعارف- ط٣- ١٩٨٧ م، ص٢٥٢. ونشرة د. أحمد مختار العبادى لكتاب تاريخ الأندلس لابن الكردبوس، ص ١١، حاشية رقم ٢.

(٢) انظر: آنخل جونثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص ١١٦-١١٧. د. حسين مؤنس: السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين (مقال سابق)، ص ٦٥.

كما نجد أيضًا ابن حمديس الصَّقَلِّي (ت ٥٢٧ هـ/ ١١٣٢ م) الشاعر المعروف، من أهل صَقَلية، ومن شرقوصة منها، دخل الأندلس سنة ٤٧١ هـ/ ١٠٧٨ م، وامتدح جماعة من ملوكها، ثم صار إلى إشبيلية Sevilla، واختص بالمعتمد بن عباد، وصار شاعره الأثير[٣]، وقد أرخ لمدينة الجزيرة الخضراء (Algeciras)[٤]

(٣) انظر: ابن الأبار: التكملة، ٣/ ١٠٤، الترجمة رقم ٢٦٠. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٣/ ٢١٢-٢١٥، الترجمة رقم ٣٩٦. العماد الأصفهاني: خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء المغرب والأندلس، ٢/ ١٩٤. ابن دحية: المطرب من أشعار أهل المغرب، ص ٥٤. البغدادي: هدية العارفين، ١/ ٤٩٩. العباس بن إبراهيم: الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، ١/ ٢٥-٢٦، الترجمة رقم ١٠٥٦.

(٤) الجزيرة الخضراء (Algeciras): مدينة مشهورة في أقصى جنوبي الأندلس بجوار جبل طارق (Gibraltar) مقابل مدينة سبتة (Cueta)، وتبعد عنه ٦ أميال، وتُسمى أيضًا: جزيرة أم حكيم، وهي جارية لطارق بن زياد كان قد حملها معه عندما توجه لفتح الأندلس، ثم تركها فيها فنُسبت إليها، وهذه المدينة تقع على ربوة مشرفة على البحر المتوسط، وتتصل أعمالها بأعمال شذونة (Medina Sidonia)، وهي شرقي شذونة وقبلي قرطبة (Córdoba)، وهي مدينة طيبة رفيقة بأهلها، جامعة لفوائد البحر والبر، قريبة المنافع من كل وجه؛ لأنها وسطى مدن الساحل، وأقرب مدن الأندلس مجازًا إلى العدوة، وقد سقطت في أيدي النصارى سنة ٧٤٣ هـ/ ١٣٤٢ م على يد ألفونسو الحادي عشر (Alfonso XI)، واستردها المسلمون مرة أخرى سنة ٧٧٠ هـ/ ١٣٦٨ م، وآثر الملك المريني أبو فارس عبد العزيز تدميرها حتى لا يأتيه خطر من جهتها من جانب النصارى. انظر: العذري: نصوص عن الأندلس، ص ١١٧. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٢/ ١٣٦. ذكر بلاد الأندلس لمؤلف مجهول، ص ٦٧-٦٨.

من بلاد الأندلس كتابًا مهمًّا تحت عنوان: (**تاريخ الجزيرة الخضراء من بلاد الأندلس**)[١]، ومن المهم الإشارة هنا إلى أن عنوان الكتاب هو «**تاريخ الجزيرة الخضراء**» فقط، أما عبارة «**من بلاد الأندلس**»، فهي زيادة أضافها صاحب كشف الظنون لتوضيح أن «الجزيرة الخضراء» من بلاد الأندلس، ويتكرر هذا في كتابه كثيرًا، وستأتي معنا نماذج أخرى لذلك.

وكذلك صفوان بن إدريس التجيبي (ت ٥٩٨ هـ/ ١٢٠١ م)، وهو من أهل مرسية (Murcia)[٢]، وكان أديبًا كبيرًا متميزًا، وممن جُمع له التقدم في النظم والنثر[٣]، كتب رسالة كبيرة في وصف بلده مرسية وتفضيلها على غيرها من البلدان سمَّاها: (**طراد الجياد في الميدان وتنازع اللدات والأخدان في تقديم مرسية على غيرها من البلدان**)[٤].

ويبدو أنه كلما ازدادت الأزمة السياسية في الأندلس، وازداد الضغط النصراني على المدن الأندلسية، ازاد تعلق الأندلسيين بمدنهم، وكان من بين مظاهر هذا التعلق الإقبال على التأريخ لهذه المدن، لحفظ تاريخها، وتخليد مجدها، والتعريف بأعلامها وحكَّامها، وهذا ما ألفيناه في منتصف القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وهي فترة معروفة بسقوط العديد من المدن الأندلسية في أيدي النصارى[٥].

لذا نصادف في هذه الفترة عدة مؤلفات تهتم بالتأريخ للمدن الأندلسية التي تعرضت لهذه المحنة، ومن هذه المؤلفات نجد كتاب (**تاريخ بطليوس**) لأبي إسحاق إبراهيم بن

(١) انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ١/ ٢٩٠. العباس بن إبراهيم: الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، ١/ ١١٦. فرانز روزنثال: علم التاريخ عند المسلمين، ص ٦٢٧.

(٢) مرسية (Murcia): مدينة تقع شرق الأندلس وفي جنوب شرق إسبانيا على ضفاف نهر شقورة (Segura)، وتطل على البحر الأبيض المتوسط. وهي عاصمة منطقة مرسية، وكانت –قديمًا– تمثل قاعدة كورة تُدمير، وقد بناها جابر بن مالك بن لبيد عامل تدمير زمن الأمير عبد الرحمن الأوسط، وقد سقطت نهائيًّا في أيدي النصارى سنة ٦٤١ هـ/ ١٢٤٣ م. انظر: العذري: نصوص عن الأندلس، ص ٦. ذكر بلاد الأندلس لمؤلف مجهول، ص ٧٥-٧٦. الإدريسي: نزهة المشتاق، ٢/ ٥٥٩.

(٣) انظر: ابن الأبار: التكملة، ٢/ ٢٢٤، الترجمة رقم ٦٢٤. المقري: نفح الطيب، ٥/ ٦٢-٦٣، ٦٩-٧٠.

(٤) انظر: المقري: نفح الطيب، ٥/ ٦٣.

(٥) سقطت في هذه الفترة مدينة بطليوس سنة ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٧ م، ومدينة قرطبة سنة ٦٣٣ هـ/ ١٢٣٦ م، ومدينة شلب سنة ٦٤٠ هـ/ ١٢٤٢ م، ومدينة جيان سنة ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦ م، ومدينة قرمونة سنة ٦٤٥هـ/ ١٢٤٧ م، ومدينة إشبيلية سنة ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٨م، ومدينة أركش سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩ م، وفي التاريخ نفسه سقطت مدينة شنتمرية الغرب، ثم مدينة دانية سنة ٦٥١ هـ/ ١٢٥٣ م، وهكذا انفرط عقد المدن الأندلسية في هذه الفترة الحرجة، وتوالى سقوطها في أيدي النصارى.

قاسم البطليوسي، المعروف بالأعلم النحوي (ت ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٨ م)[١]، وكذلك «**تاريخ ميورقة**[٢]» لأبي المطرف أحمد بن عميرة المخزومي (ت ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م)، وقد وردت الإشارة إلى هذا الكتاب عند ابن عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة بعنوان: (**وله تأليف في كائنة ميورقة وتغلب الروم عليها**)[٣]، والعبارة نفسها ذكرها ابن القاضي في جذوة الاقتباس[٤]، وكذلك ابن فرحون في الديباج المذهب[٥]، بينما جعله المستعرب الإسباني آنخل جونثالث بالنثيا كتابًا في فضائل ميورقة وتاريخها، وعاد فأشار إلى التسمية التي ذكرها ابن عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة[٦].

أما المقري فقد أشار إلى هذا الكتاب في موضعين من موسوعته «نفح الطيب»؛ في الموضع الأول يتفق مع المصادر السابقة في التسمية نفسها، ولكنه ينفرد في الموضع الثاني عن هذه المصادر حين يشير إليه على أنه (**تاريخ ميورقة**)، وينقل عنه[٧].

ويبدو أن عبارة (**تأليف في كائنة ميورقة وتغلب الروم عليها**) التي ذكرها ابن عبد الملك المراكشي ومَن جاء بعده من المؤرخين وأصحاب التراجم هي تعبير عن موضوع الكتاب، وليست العنوان الأصليّ للكتاب، فهي تعبِّر عن المحتوى الحقيقيّ للكتاب الذي يتناول كائنة (حادثة) سقوط جزيرة ميورقة

(١) انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ١/ ٢٨٨.

(٢) ميورقة (Mallorca): هي إحدى الجزائر الشرقية (جزر البليار) (Islas Baleares) وكبراها في إسبانيا، تقع في البحر المتوسط وجزء من أرخبيل جزر البليار كغيرها من جزر البليار الأخرى، وهي غير منتظمة في شكلها لكثرة الخلجان والفجوات في سواحلها، وتحميها من الشمال الغربي سلسلة شامخة من الجبال من تأثير الرياح الشمالية الباردة، عاصمتها بالما دي ميورقة (Palma de Mallorca) (مدينة ميورقة الإسلامية)، وتقع جنوب غربي ميورقة على خليج بالما، وهي أخصب الجزر أرضًا، وأعدلها هواءً، وأصفاها جوًّا، وتتميز بثرواتها الوافرة، يحدها من الجنوب مدينة بجاية (Bougie) في المغرب الأوسط، ومن الشمال برشلونة (Barcelona) من بلاد أراغون، ومن الشرق جزيرة منورقة (Menorca)، وشرقي ميورقة جزيرة سردانية (Sardenia)، وغربيها جزيرة يابسة (Ibiza)، وغربي يابسة مدينة دانية (Dénia) الأندلسية، وجزيرة ميورقة هي أم منورقة ويابسة وهما بنتاها، وإليها مع الأيام خراجهما، وطول ميورقة من الغرب إلى الشرق ٧٠ ميلاً، وعرضها من الجنوب إلى الشمال ٥٠ ميلاً، وتعاقبت عليها السلالات الحاكمة في الأندلس حتى سقطت نهائيًّا في أيدي النصارى بقيادة ملكهم خايمي الأول (Jaime I) ملك أراغون الملقب بالفاتح سنة ٦٢٧ هـ/ ١٢٢٩ م. انظر: ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٠٤-١١٠. الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص ١٨٨-١٩١. ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، ٢/ ٤٤٦.

(٣) ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة- السفر الأول- القسم الأول، ص ١٦٩.

(٤) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ١/ ١٤٦.

(٥) ابن فرحون: الديباج المذهب، ١/ ٢٠٧.

(٦) آنخل جونثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٣٠٥.

(٧) المقري: نفح الطيب، ١/ ٣١٤. ٤/ ٤٦٩.

في أيدي النصارى، وليست تاريخها بالمفهوم الشامل حسبما يوحي به العنوان الثاني، وهو (**تاريخ ميورقة**)، المشار إليه في «نفح الطيب».

فالكتاب لا يقدم لنا تاريخًا شاملاً ومفصلاً لجزيرة ميورقة خلال عهودها الإسلامية المتعاقبة حسبما يوحي به العنوان، ولكنه يؤرخ فقط للعهد الأخير من تاريخها (٦٠٦-٦٢٨هـ/ ١٢٠٩-١٢٣٠ م)، ويعالج مرحلة السقوط النهائي لها على يد الإسبان مع التركيز على الأسباب والعوامل وأطوار السقوط[١].

وهنا لا يغيب عنا مرة أخرى تقليد الأندلسيين للمشارقة في التأليف، فقد أشار ابن عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة إلى أن ابن عميرة المخزومي نحا في كتابه المذكور (**تاريخ ميورقة**) منحى العماد الأصبهاني في كتابه (**الفتح القسي في الفتح القدسي**)[٢]، ولا شك أن هذا يعطينا فكرة واضحة عن أسلوب الكتاب وطريقة تأليفه، فقد روى العماد الأصبهاني أحداث التاريخ بأسلوب تغلب عليه الزخرفة والتنميق والسجع والإكثار من المحسنات البديعية، وقد استطاع ابن عميرة المخزومي أن يقدم شيئًا موازيًا لما قدمه العماد الأصبهاني، بل نستطيع أن نقول

(١) ابن عميرة المخزومي: تاريخ ميورقة – مقدمة المحقق، ص ٢٥-٢٦.

(٢) ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة- السفر الأول- القسم الأول، ص ١٧٦.

إن ابن عميرة وغيره من كُتّاب عصره يمثلون حلقة مهمة ومرحلة متميزة من مراحل تطور النثر الفني في الأدب الأندلسي[٣].

وفي القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي تواصل اهتمام الأندلسيين بهذا النمط من أنماط الكتابة التاريخية، فنجد **أبا بكر محمد بن محمد بن إدريس بن مالك القضاعيّ المعروف بالقللوسيّ** (ت ٧٠٧ هـ/ ١٣٠٧ م)، يقول عنه الصفدي: «القللوسي بالقاف المفتوحة وبعدها لامان مفتوحتان وساكنة وبعدها سين مهملة»[٤]، وهو من أهل اسطبونة[٥]، تعددت اهتماماته العلمية، وكان من بينها نشاطه التاريخيّ، فألف كتابًا في تاريخ مدينته سماه: «**الدرة المكنونة في محاسن اسطبونة**»[٦].

(٣) ابن عميرة المخزومي: تاريخ ميورقة – مقدمة المحقق، ص ٢٣-٢٤.

(٤) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٢، ص١٢٩.

(٥) اسطبونة Estepona: لم يذكرها صاحب معجم البلدان، وهي بلدة تقع جنوب غربي مالقة على البحر المتوسط إلى الشمال من جبل طارق على مقربة من ثغر مربلة Marbilla، ويقال لها أيضًا: اشتبونة، وذكر ابن الخطيب في معياره أنه قد ذهب رسمها وبقي اسمها، وكانت مظنة النعم الغزيرة قبل حادث الجزيرة (يقصد جزيرة طريف وهزيمة المسلمين في موقعة طريف Batalla del Salado ٧٤١ هـ/ ١٣٤٠ م). انظر: ابن الخطيب: معيار الاختيار، ص ٨٣. السخاوي: الإعلان بالتوبيخ، ص٦١٧.

(٦) ابن الخطيب، الإحاطة، ٣/ ٧٦.

وممـن برعـوا في هـذا الجانـب أيضًا ابن السـراج الغرناطـيّ **(ت ٧٣٠ هـ/ ١٣٣٠ م)** أبو عبـد الله محمـد بـن إبراهيم بـن عبد الله بـن أحمد بـن محمد بن يوسـف بـن روبيل الأنصـاري، ورغـم أنـه تغلـب عليـه المعرفة بالطب، فهو طبيب الدار السلطانية كما ذكر ابن الخطيـب[1]، إلا أنه ألف كتابًا في **فضائل غرناطـة**[2]، وقـد ترجم له لسـان الدين ابن الخطيـب ترجمـة ضافيـة، وأمدنا بالاسـم الأصلـيّ لكتابه في فضائـل غرناطة المذكور آنفًا، حيث قال- وهو بصدد عرض مصنفاته المتنوعة-: «ومنها كتاب سـماه: (**السِّـرُّ المُذاع في تفضيل غرناطة على كثير من البقاع**)[3].

وكذلـك **تاريـخ مالقـة**[4] لابـن عسـكر، أبي عبد الله محمد بن علي المالقي الغساني (ت ٧٣٦ هـ)[5]، والكتـاب بهـذا العنوان قد يُظـن بأن موضوعـه التأريخ لمدينـة مالقة- موضوع دراسـتنا- ولكنـه في الحقيقة يدخل في عداد كتـب التراجم البلدانيـة، فصاحبة يترجـم لأعـلام مالقة، وهو من أشـهر وأهم مؤلفات ابن عسـكر على الإطلاق، وبه عُرف كمـؤرخ اهتـم بذكـر أعـلام وعلمـاء مالقة وتخليد آثارهم والترجمة لهم.

والاسـم الأصلـي للكتـاب هـو «**الإكمال والإتمام في صلة الإعلام بمحاسن الأعلام من أهـل مالقة الكـرام**»، وله تسـمية أخرى هي: «**كتاب أدباء مالقة المُسمَّى مطلع الأنوار ونزهة البصائـر والأبصار فيما احتـوت عليه مالقة من الأعلام والرؤساء والأخيار وتقييد ما لهم من المناقـب والآثار**»[6]، وهو الكتاب المشـهور

(١) ابن الخطيب: الإحاطة، ٣/ ١٦٠.

(٢) ابـن حجـر: الـدرر الكامنـة، ٣/ ٢٨٧. حاجي خليفة: كشـف الظنـون، ٢/ ١٢٢٧. عمر رضـا كحالة: معجم المؤلفين، ٣/ ٣٣.

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة، ٣/ ١٦١.

(٤) مَالَقَة (Málaga): تقع في جنوب إسـبانيا على ساحل (Costa del Sol) في شـمال البحر الأبيض المتوسط، وهي اليوم عاصمة الولاية الإسـبانية التي تسمى بهذا الاسـم، وكانـت قاعدة كـورة رَيُّه، وتبعـد حوالي ١٠٠ كلم شـرق مضيق جبل طـارق (Gibraltar)، وحوالي ١٣٠ كلـم عـن بلدة طريفا (جزيرة طريـف) (Tarifa) (التـي تقع في أقصـى الجنوب الأوروبـي)، ومن مالقة إلى أرشـذونة ٢٨ ميلاً، ومنها إلـى غرناطة ٨٠ ميلاً، ومنهـا إلى الجزيرة الخضـراء ١٠٠ ميل، وهي مدينة قديمـة، عامرة آهلة، كثيـرة الديار، متسـعة الأقطار، كثيـرة الأسـواق، تُشـتهر بالتين المنسـوب إليهـا، وهو = مـن أحسـن التين طيبـة وعذوبة، يخترقهـا نهر وادي المدينـة (Guadalmedina)، وقـد سـقطت نهائيًا في أيدي النصارى سـنة ٨٩٢ هـ/ ١٤٨٧ م على يد الملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيزابيلا. انظر: ياقوت الحموي: معجـم البلـدان، ٥/ ٤٣. الحميـري: صفـة جزيـرة الأندلس، ص ١٧٧-١٧٩. الإدريسـي: نزهة المشـتاق، ٢/ ٥٦٥، ٥٧٠.

(٥) انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ١/ ٣٠٢.

(٦) انظر: السـخاوي: الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ، ص ٢٧٢. وقد حققه بهذا العنوان الأسـتاذ الدكتور صلاح جرار ونسـبه إلى ابن خميس المالقي المتوفى بعد سـنة ٦٣٩ هـ، ونشـرته دار البشـير- عمان (الأردن)- ط ١، ١٤١٩ هـ/ ١٩٩٩ م.

بـ«أعلام مالقة»[١]، ويُعدُّ ذيلاً على كتاب «أصبغ بن أبي العباس» المسمى: «**الإعلام بمحاسن الأعلام من أهل مالقة الكرام**».

وقد توفي ابنُ عسكر قبل أن يكمل هذا الذيل، فأكمله وأتمَّه ابنُ أخته أبو بكر محمد بن علي بن خميس المالقي[٢]، ولذلك يُنسب الكتاب إلى كليهما.

وكذلك ابن **جُزَيّ الكلبي الغرناطي (ت٧٥٧هـ/ ١٣٥٦ م)**، أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن بن يوسف بن جزيّ الكلبيّ، يذكر ابنُ الخطيب أن له كتابًا عن **تاريخ غرناطة**، ويبدو أن خطة هذا الكتاب كانت قريبة من الخطة التي وضعها ابنُ الخطيب لنفسه عند تأليفه كتاب الإحاطة، فقد وصف كتاب ابن جُزيّ بقوله: «أخبرني عند لقائه إياي بمدينة فاس في غرض الرسالة عام خمسة وخمسين وسبعمائة أنه شرع في تأليف **تاريخ غرناطة**، ذاهبًا هذا المذهب الذي انتدبتُ إليه، ووقفتُ على أجزاء منه تشهد باضطلاعه»[٣].

(١) وقد حققه بهذا العنوان الدكتور عبد الله المرابط الترغي، ونسبه إلى ابن عسكر وابن خميس معًا، ونشرته دار الأمان بالرباط بالاشتراك مع دار الغرب الإسلامي- بيروت- ط ١، ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩ م.

(٢) انظر: أعلام مالقة، ص ٢٢. الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي- السفر السادس، ص ٤٥٠-٤٥١.

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة، ٢/ ٢٥٧.

ثم يصادفنا الشاعر والمؤرخ الكبير ابن خاتمة الأنصاري (ت ٧٧٠ هـ/ ١٣٦٩ م)، وهو من أهل المرية[٤]، يكنى أبا جعفر، ألف كتابًا فريدًا ومهمًا في تاريخ بلده المرية ومزاياها وفضائلها تحت عنوان: «**مزية المرية على غيرها من البلاد الأندلسية**»[٥] اغتنمه كل من ابن الخطيب وابن القاضي والمقري، وقال عنه ابن القاضي: «أجاد فيه كل الإجادة»[٦]، ونقل عنه كثيرًا في كتابه (درة الحجال)، وصدَّر نُقُولَه بقوله: (قال ابن خاتمة)، وبخاصة في تراجم أعيان المرية[٧]، وقال عنه

(٤) المرية (Almería): مدينة كبيرة من كورة إلبيرة (Elvira) من أعمال الأندلس، محدثة البناء نسبيًا؛ إذ بناها عبد الرحمن الناصر سنة ٣٤٤ هـ/ ٩٥٥ م، فصارت قاعدة أسطول الأندلس، وكانت من أشهر مراسي الأندلس وأعمرها، ومن أجل أمصارها وأشهرها، تبعد عن بَجَّانة (Pechina) بنحو ١٠ كم، وكانت مجرد فرضة ومرأى ومحرس لبَجَّانة لا تقوم بها تجمعات سكانية حتى بناها الناصر فازدهرت واشْتُهِرَت بالعديد من الصناعات المختلفة، وظلت من أهم ثغور الأندلس الجنوبية في العهد الإسلامي إلى أن سقطت في أيدي الملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيزابيلا سنة ٨٩٥ هـ/ فبراير سنة ١٤٩٠ م. انظر: العذري: نصوص عن الأندلس، ص ٨٦. الرشاطي وابن الخراط الإشبيلي: الأندلس في اقتباس الأنوار وفي اختصار اقتباس الأنوار، ص ٥٩، ١٦٤. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٥/ ١١٩-١٢٠.

(٥) السخاوي: الإعلان بالتوبيخ، ص ٦٤٤. ابن القاضي: درة الحجال، ١/ ٨٦. الزركلي: الأعلام، ١/ ١٧٦. كحالة: معجم المؤلفين، ٢/ ١٩. آنخل جونثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص٣٠٦.

(٦) درة الحجال لابن القاضي، ١/ ٨٦.

(٧) درة الحجال لابن القاضي، ١/ ١٢٤. ٢/ ٦٥، ٧٠، ٧٥. ٣/ ٢٩٤، ٣٤٦.

المقـري: «وقد ألف فيها أبو جعفر ابن خاتمة تاريخًا حافلاً سمَّاه: (مزية المرية على غيرها من البلاد الأندلسية) في مجلد ضخم، تركتُه من جملة كتبي بالمغرب»(١).

والعثور على هذا الكتاب مهم للغاية، فمن المتوقع أن يقدم لنا معلومات مهمة عما كانت عليه الحياة في مدينة المرية خلال الأعوام الأخيرة للحكم الإسلامي فيها، وقبيل سقوطها النهائي في أيدي الإسبان سنة ٨٩٤هـ/ ١٤٨٩ م.

وكان المستعرب الإسباني إميليو مولينا لوبث أول مَن اهتم بهذا الكتاب، وقدَّم دراسة عنه، وأورد منه عدة نصوص من خلال المصادر التي نقلت عنه، مثل جذوة الاقتباس لابن القاضي، ونفح الطيب للمقري، وغيرهما، وقام بتحليل هذه النصوص والتعليق عليها(٢).

ورغم أن هذا المصنف يُعَدُّ العمل التاريخي الوحيد لابن خاتمة، إلا أن شهرته ذاعت بالمغرب والأندلس، ونقل عنه بعض المؤرخين اللاحقين، فحفظوا لنا مجموعة مهمة من نصوصه، لها قيمتها التاريخية الكبيرة،

(١) المقري: نفح الطيب، ١/ ١٦٣.

(٢) Emilio Molina López: La obra histórica de Ibn Jatima de Almería- Al-qantara: Fasc., Vol. 10,Revista de estudios árabes págs. 151-174.,1989,1

خاصة إذا علمنا أنه قد تم العثور على نسخة مخطوطة للكتاب، لكنها – للأسف الشديد- غير كاملة الأوراق، وبها الكثير من الخروم، وهي تعود إلى بداية القسم الثالث من الكتاب الخاص بتراجم أعلام المرية أو الوافدين عليها، وهذه القطعة تتضمن تراجم لثمانية أعلام فقط(٣).

وممن أرخوا لمدنهم كذلك المؤرخ أبو البركات محمد بن محمد بن إبراهيم السُلمي البلفيقي، المعروف بابن الحاج (ت ٧٧١ هـ/ ١٣٦٩ م)، من أهل المرية(٤) ومن مشاهير قضاتها(٥)، تعددت مصنفاته في فنون كثيرة، وكان أغلبها في فن التاريخ، ومن أهم مؤلفاته التاريخية كتاب «**المؤتمن على أنباء أبناء الزمن**»(٦)، وهو كتاب مفقود، ويُعدُّ من

(٣) انظر: د. خالد بن علي النجمي: مؤرخ المرية ابن خاتمة الأنصاري (ت ٧٧٠ هـ/ ١٣٦٩ م) وكتابه مزية المرية على غيرها من البلاد الأندلسية، دراسة في مخطوطته ونصوصه الباقية- مجلة العلوم الإسلامية والاجتماعية- العدد (٥٣)- شوال ١٤٤٠ هـ، ص ٢٧٥-٢٧٦.

(٤) سبق التعريف بهذه المدينة.

(٥) انظر في ترجمته: ابن الخطيب: الإحاطة، ٢/ ٨٣. الكتيبة الكامنة، ص١٢٧. البناهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص١٦٦. وقد ذكر وفاته سنة ٧٣٣ هـ/ ١٣٧١ م. ابن حجر: الدرر الكامنة، ٤/ ١٥٥. البغدادي: إيضاح المكنون، ٢/ ٩٧. هدية العارفين، ٢/ ١٦٥.

(٦) المؤتمن على أنباء أبناء الزمن- صنعة وتحقيق ودراسة: أ. د. جعفر ابن الحاج السلمي- تقديم مربيل فييرو- سلسلة تراث (٢٠)- منشورات جمعية تطاون أسمير، والجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، ١٤٤٠ هـ/ ٢٠١٨ م.

كتب التاريخ الإقليمي، حيث خصصه مؤلفه لأخبار وطنه الأندلس وتراجم أعلامه.

وما يهمنا هنا من مؤلفاته كتاب: (**تاريخ المرية**)، لكنه لم يتمَّه[1]، أو (**تاريخ المرية وبجانة**) كما ذكره ابن الخطيب، وأشار إلى أنه لم يتمَّه[2]، أما السخاوي فقد سماه: (**تاريخ المرية وباجَّة**) وجعلهما كتابين منفصلين[3]، بينما سمَّاه المستعرب الإسباني آنخل جونثالث بالنثيا: (**تاريخ المرية وبجانة**)[4]، والاسم الأخير هو الصحيح.

وهناك أيضًا «**تاريخ مرسية» من بلاد الأندلس** لابن الحاج (محمد بن محمد ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢ م)، ذكره حاجي خليفة في كتابه «كشف الظنون»[5]، وقد أشرنا قبل ذلك إلى أن جملة «**من بلاد الأندلس**» هي زيادة أضافها صاحب «كشف الظنون» لتوضيح أن المدينة المذكورة من بلاد الأندلس، وللأسف فإننا لا نعرف عن هذا الكتاب شيئًا ولا عن صاحبه.

ثم نأتي إلى أهم مؤرخي القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وهو المؤرخ الكبير لسان الدين ابن الخطيب (ت٧٧٦هـ/ ١٣٧٤ م)، وكتابه في التأريخ للمدن يعرفه القاصي والداني، فهو من أشهر المؤلفات التاريخية في هذا الباب، وهو كتاب: **الإحاطة في أخبار غرناطة**[6]، وهو من أشهر وأضخم مؤلفات لسان الدين ابن الخطيب، وقد استهله بمقدمة بدأها بالحمد والثناء، ثم

(١) ابن الخطيب: الإحاطة، ٢/ ٨٣. البناهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص١٦٥.

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة، ١/ ٦١. ٢/ ٨٦.

(٣) الإعلان بالتوبيخ، ص ٦٤٤.

(٤) تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٣٠٥.

(٥) حاجي خليفة: كشف الظنون، ١/ ٣٠٣.

(٦) غرناطة (Granada): مدينة من أهم المدن الإسبانية، وتقع في الجنوب الشرقي من إسبانيا، محمية من الشمال بمرتفعات مطلة على نهر الوادي الكبير (Guadalquivir)، ومن الجنوب نهر شنيل (Genil) الذي ينبع من جبال «سييرا نيفادا» (Sierra Nevada)، وتبعد عن البحر بنحو ٧٠ كلم، وارتفاعها عنه بنحو ٧٣٨ م، واسمها مأخوذ من كلمة «جراندا Granada» الإسبانية، التي تعني شجر الرمان وثماره، أو من كلمة غرناطة العربية التي تعني «تل الغرباء»، وهي إحدى المدن القديمة في كورة إلبيرة (Elvira)، وتقع على بعد ٦ أميال منها إلى الجنوب الشرقي، وفي زمن الفتنة خلت كورة إلبيرة وانتقل أهلها منها إلى غرناطة، وقد مدَّنها وحصَّن أسوارها وبنى قصبتها حبُّوس بن زيري الصنهاجي، ثم خلفه ابنه باديس بن حبُّوس فكملت في أيامه وعَمُرت حتى لحقت بأمصار الأندلس المشهورة، واشتهرت بالزراعة والعديد من الصناعات، ومن أهم معالمها: حي البيازين وقصر الحمراء وجنة العريف وغيرها، وقد عاشت غرناطة فصولاً مختلفة من التاريخ حتى صارت الحاضرة الأخيرة للمسلمين في الأندلس على يد بني نصر (أو بني الأحمر) إلى أن سقطت في أيدي النصارى في (٢ من شهر ربيع الأول سنة ٨٩٧ هـ/ ٢ من شهر يناير سنة ١٤٩٢ م) على يد الملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيزابيلا، وبسقوطها طويت صفحة الوجود الإسلامي في الأندلس. انظر: ابن غالب: فرحة الأنفس، ص ٢٤. الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص ٢٣، ٢٩. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ١/ ٢٤٤. أ. عنان: الآثار الأندلسية الباقية، ص ١٦٠ وما بعدها.



انتقل إلى ذكر السبب الذي دعاه إلى تأليف كتابه، وهو أن بعض المصنفين أفرد لوطنه تاريخًا «كتاريخ مدينة بخارى لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن سليمان الفخار، وتاريخ أصبهان لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الحافظ صاحب الحلية، وتاريخ أصبهان أيضًا لأبي زكريا يحيى بن عبد الوهاب بن قندة الحافظ، وتاريخ نيسابور للحاكم أبي عبد الله بن البَيِّع[1]، وذيله لعبد الغافر بن إسماعيل»[(٢)].

ثم يسرد لسان الدين ابن الخطيب الكثير من كتب التأريخ لمدينة ما، ومن ثم يسرد لنا قائمة بأسماء الكتب التي تناولت تاريخ المدن في المغرب والأندلس، فيقول: «وعنوان الدراية في ذكر من كان في المائة السابعة ببجاية لأبي العباس بن الغبريني، وتاريخ تلمسان لابن الأصفر، وتاريخها أيضا لابن هدية، وتاريخ فاس لابن عبد الكريم، وتاريخها أيضًا لابن أبي زرع ......»[(٣)].

فكان هذا أحد الدوافع التي دفعته إلى الإقدام على كتابة تاريخ لوطنه «غرناطة»، حيث يقول: «فداخلتني عصبية لا تقدح في دين ولا منصب، وحمية لا يُذَمُّ في مثلها متعصب، رغبة أن يقع سؤالهم وذكرهم من فضل الله جناب مخصب»[(٤)].

وعنوان الكتاب يدل على الغاية التي رمى إليها ابنُ الخطيب بتأليفه، وهي تقديم صورة شاملة عن كل ما يتعلق بمدينة غرناطة من أوصاف وأخبار، فذكر مروجها وجبالها وأنهارها، وترجم لثلاث وتسعين وأربعمائة شخصية أندلسية، ممن حكموا غرناطة، أو وفدوا إليها من المغرب أو المشرق، من ملوك، وأمراء، وأعيان، وولاة، ووزراء، وقضاة، وعلماء، وزهاد، وصوفية، ولم ينس أن يكتب سيرته الذاتية في آخر الكتاب.

والكتاب لم يكتب دفعة واحدة، فقد بدأ بجمعه قبل نفيه مع سلطانه الغني بالله سنة ٧٦١ هـ/ ١٣٦٠ م، ثم استأنف العمل فيه بعد عودته من المنفى سنة ٧٦٣ هـ/ ١٣٦٢ م، فراجعه وزاد فيه، فجعله في ستة مجلدات، وظل يضيف إليه، وينقح فيه حتى عام ٧٧١ هـ/ ١٣٧٠ م، وقد يكون زاد فيه بعد هذا التاريخ، ونرجح أن يكون انتهى من تأليفه سنة ٧٧٢ هـ/ ١٣٧١ م، أي قبل فراره إلى المغرب بسنة تقريبًا.

وقد استعمل ابن الخطيب أكثر من تسمية لكتابه هذا، فذكره إلى جانب العنوان المعروف للكتاب عناوين أخرى؛ فذكره باسم: الإحاطة في تاريخ غرناطة»، وقال: إنه في

(١) ورد اسمه في مقدمة الإحاطة لابن الخطيب (تحقيق: أ. عنان)، ١/ ٨١، هكذا: (تاريخ نيسابور لأبي عبد الله بن اليسع)، وهو تصحيف ظاهر.

(٢) الإحاطة في أخبار غرناطة، ١/ ٨١.

(٣) الاحاطة، ١/ ٨٣.

(٤) الإحاطة، ١/ ٨٣-٨٤.

سبعة أسفار[١]، ثم ذكره باسم: «الإحاطة بما تيسَّر من تاريخ غرناطة»، وقال: إنه كتاب كبير في تسعة أسفار[٢]، ثم عاد واختصره باسم: «تاريخ غرناطة»، وقال: «إنه في اثني عشر سفرًا»[٣]، وقد استعمل ابن الخطيب هذه التسمية الأخيرة المختصرة في مواطن كثيرة، وفي كتابه «اللمحة البدرية» ذكر اسم كتاب عنوانه» «الإماطة عن وجه الإحاطة فيما أمكن من تاريخ غرناطة»[٤].

والترتيب الذي اعتمده هو ذكر الحاضرة غرناطة، ووصف محاسنها، والحديث عن الذين سكنوها وتولوها ملتزمًا الترتيب الأبجدي لأصحاب التراجم وليس الترتيب التاريخي، وجعل الكتاب قسمين؛ القسم الأول: في حلي المعاهد والأماكن والمنازل والمساكن. والقسم الثاني: في حلي الزائر القاطن والمتحرك والساكن[٥].

وبعد ان انتهى من مقدمة الكتاب بدأ في القسم الأول بفصل يدور حول اسم مدينة غرناطة، فقدم لنا وصفًا جغرافيًّا دقيقًا لهذه المدينة[٦]، ثم تناول تاريخها منذ أن نزلها العربُ أيام الفتح حتى سلاطين بني نصر[٧]، ثم انتهى إلى فصل ثانٍ ذكر فيه سير أهل غرناطة وأخلاقهم وأحوالهم وأنسابهم وجندهم وزيهم[٨]، وانتهى القسم الأول بفصل ثالث حصره فيمن تداول حكم هذه المدينة منذ أصبحت دار إمارة[٩]، ثم أدلف إلى القسم الثاني، وفيه تناول الذين ترجم لهم، وعقد في آخر هذا القسم ترجمة مختصرة لنفسه.

ثم نأتي إلى بعد ذلك إلى أحد الأعلام الغرناطيين الكبار في أواخر القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وهو القاضي **أبو الحسن علي بن عبد الله بن محمد بن الحسن الجذامي البُنَّاهي**[١٠] (ت بعد ٧٩٣ هـ/ بعد ١٣٩١ م)، وهو صاحب الكتاب المشهور «**المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا**»، المعروف باسم: **تاريخ قضاة الأندلس**[١١].

لكن فيما يخص موضوع دراستنا، فنجد أنه صنف كتابًا بعنوان: (**ذيل أو تذييل تاريخ مالقة**)،

(١) ابن الخطيب: ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، ٢/ ٣٢١.
(٢) الإحاطة، ٣/ ٣٩٠. المقري: نفح الطيب، ٣/ ٣٢١.
(٣) ريحانة الكتاب، ١/ ٣١.
(٤) اللمحة البدرية، ص ٢٧.
(٥) الإحاطة، ١/ ١٠.
(٦) المصدر السابق، ١/ ١٣-١٨.
(٧) المصدر السابق، ١/ ١٨-٢١.
(٨) المصدر السابق، ١/ ٣٦-٤٠.
(٩) المصدر السابق، ١/ ٤٠-٤٢.
(١٠) راجع في تصحيح هذا اللقب على هذه الصيغة: د. محمد بنشريفة: «البُنَّاهي لا النُّبَاهي»- مجلة الأكاديمية- الرباط- العدد ١٣- ١٩٨٨ م، ص ٧١-٨٩.
(١١) هناك دراسات تناولت أبا الحسن البناهي مؤرخًا من خلال هذا الكتاب. انظر: أ.م.د. خالد محمود عبد الله وم.م. قبس فاروق صالح: القاضي أبو الحسن النباهي مؤرخًا- مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية- المجلد ١٥- العدد ٩، أيلول ٢٠٠٨ م، ص ٢٢٥- ٢٦٣.

ويبدو أن هذا الكتاب تذييل على كتاب ابن عسكر وابن خميس المعروف بـ«**تاريخ مالقة**» الذي تكلمنا عنه سابقًا، ولم نقف على ذكر هذا التذييل إلا عند ابن الخطيب[1]، حيث نقل منه في ترجمة أبي القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن علي الغساني، المعروف بابن حفيد الأمين قائلاً: «وقال صاحبنا الفقيه أبو الحسن البناهي في تذييله لتاريخ مالقة....»[2].

خلاصة وخاتمة:

يُعَدُّ التأريخُ للمدن الأندلسية نمطًا من أنماط الكتابة التاريخية التي شاعت وذاعت في الأندلس، وكان الاهتمامُ بهذا المجال لدى الأندلسيين كبيرًا، وقد ظهر كنوع من الرغبة عندهم في منافسة إخوانهم المشارقة في تبيان فضائل المدن الأندلسية ومكانتها وتاريخها وما يموج فيها من حركة علمية دائبة وازدهار حضاريّ متألق، فكثرت المؤلفات في هذا الجانب وتنوعت، وكان الشعور بالأندلسية يمثل آنئذٍ أهم مظاهر الحياة الثقافية في الأندلس، وقد بدا هذا الشعور واضحًا في عناية الأندلسيين بجمع تراثهم وكتابة تاريخ مدنهم، وكانوا شديدي التعصب لبلادهم، نرى ذلك من أنسابهم، فلا نكاد نجد عالمًا ولا أديبًا إلا ويُنسب لبلده أو مدينته، فيقال: القرطبي، والإشبيلي، والغرناطي، والبلنسي، والمالقي، والجياني، وغيرها من النسبة إلى المدن الأندلسية المتعددة.

وكان استمرار التأليف في تواريخ المدن، أو التواريخ المحلية، قد أظهر المدن الأندلسية باعتبارها وحدات حضارية فكرية، تعكس العديد من الجوانب العلمية والثقافية لهذه المدن، وكذلك الجوانب السياسية.

ولما ازدادت الأزمة السياسية في الأندلس اعتبارًا من النصف الثاني من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وازداد الضغط النصراني على المدن الأندلسية، ازاد تعلق الأندلسيين بمدنهم، وكان من بين مظاهر هذا التعلق الإقبال على التأريخ لهذه المدن، لحفظ تاريخها، وتخليد مجدها، والتعريف بأعلامها وحكّامها.




(١) انظر: ابن الخطيب: الإحاطة، ٣/ ٦٤، ١٩٣. ٤/ ٢٦٣.

(٢) الإحاطة، ٣/ ٦٤.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

-* ابن الأبَّار (أبـو بكر محمد بن عبد اللّه، ت ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م):

- تحفـة القـادم- أعـاد بنـاءه وعلـق عليه: د. إحسـان عبـاس- دار الغرب الإسلامي- بيروت- ط ١، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م.

- التكملة لكتاب الصلة – تحقيق: عبد السلام الهراس– دار الفكر للطباعة- بيروت، ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥ م.

-* ابن بشـكوال (أبو القاسـم خلف بن عبد الملك، ت ٥٧٨ هـ/ ١١٨٢ م):

- الصلـة – تحقيق: إبراهيم الإبياري– دار الكتـاب المصـري بالقاهـرة ودار الكتاب اللبناني ببيروت– ط ١، ١٤١٠ هـ/ ١٩٨٩ م.

-* البغـدادي (إسـماعيل محمـد أمـين البغدادي):

- إيضـاح المكنـون في الذيل على كشـف الظنون عن أسامي الكتب والفنون- دار إحياء التراث العربي- بيروت- د.ت.

- هدية العارفين، أسـماء المؤلفين وآثار المصنفين- دار إحياء التراث العربي- بيروت- د.ت.

-* البُنَّاهِـي (أبو الحسـن بن عبـد اللّه بن الحسن، ت بعد ٧٩٣ هـ/ بعد ١٣٩١ م):

– تاريـخ قضـاة الأندلـس، المعـروف باسـم المرقبـة العليـا فيمن يسـتحق القضاء والفتيا – تحقيق لجنة إحياء التراث العربي بدار الآفاق الجديدة- بيروت-ط ٥، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م.

-* ابـن الحاج البلفيقي (أبو البركات محمد بن محمد بن إبراهيم السُّلمي البلِّفيقي، ت ٧٧١ هـ/ ١٣٦٩ م):

- المؤتمـن على أنباء أبناء الزمن- صنعة وتحقيق ودراسة: أ.د. جعفر ابن الحاج السلمي- تقديم مربيل فييرو- سلسلة تراث (٢٠)- منشورات جمعية تطاون أسـمير، والجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، ١٤٤٠ هـ/ ٢٠١٨ م.

-* حاجـي خليفـة (مصطفى بـن عبد اللّه القسـطنطيني الرومـي، ت ١٠٦٧هـ/ ١٦٠٦م):

- كشـف الظنـون عـن أسـامي الكتب والفنـون – دار إحياء التراث العربي- بيروت– د.ت.

-* ابن حجر العسـقلاني (أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد، ت ٨٥٢ هـ/ ١٤٤٨ م):

- الـدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة- دار الجيل-بيروت، ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٣م.

-* الحموي (أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله، ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٨ م):

– معجم الأدباء– تحقيق: د. إحسان عباس– دار الغرب الإسلامي–بيروت– ط ١، ١٩٩٣ م.

– معجم البلدان – دار صادر – بيروت، ١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٧ م.

-* الحميدي (أبو عبد الله محمد بن أبى نصر الأزدى، ت ٤٨٨ هـ /١٠٩٥ م):

– جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس– الدار المصرية للتأليف والترجمة – القاهرة – المكتبة الأندلسية (٣) – ١٩٦٦ م.

-* ابن حَيَّان القرطبي (أبو مروان حيان بن خلف، ت ٤٦٩ هـ/١٠٧٦ م):

– المقتبس في تاريخ الأندلس– نشر الأب ملتشور أنطونيا Melchor Antuña قطعة منه تتعلق بتاريخ الأمير عبد الله بن محمد– باريس، ١٩٣٧ م.

-* ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله، ت ٧٧٦ هـ/ ١٣٧٤م):

– الإحاطة في أخبار غرناطة– تحقيق: أ. محمد عبد الله عنان–مكتبة الخانجى– القاهرة.

– المجلد الأول – ط٢ – ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣م.

– المجلد الثانى – ط١ – ١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤م.

– المجلد الثالث – ط١ – ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

– المجلد الرابع – ط ١ – ١٣٩٧ هـ/١٩٧٧م.

– الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة– تحقيق: د. إحسان عباس– دار الثقافة– بيروت، ١٩٨٣ م.

– ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب– تحقيق: أ. محمد عبد الله عنان– مكتبة الخانجي– القاهرة– ط ١، ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م.

– اللمحة البدرية في الدولة النصرية– دراسة وتحقيق: د. محمد مسعود جبران– دار المدار الإسلامي– ط ١، ٢٠٠٩ م.

-* ابن خَلِّكَان (أبو العباس أحمد بن محمد، ت ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢ م):

– وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان– تحقيق: د. إحسان عباس – دار صادر – بيروت – د.ت.

-* ابن خميس (أبو بكر محمد بن محمد بن علي بن خميس المالقي، ت بعد ٦٣٩ هـ/ ١٢٤١ م):

- كتاب أدباء مالقة المسمى مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار فيما احتوت عليه مالقة من الأعلام والرؤساء والأخيار وتقييد ما لهم من المناقب والآثار- حققه وقدم له: د. صلاح جرار- دار البشير- عمان (الأردن)- ط ١، ١٤١٩ هـ/ ١٩٩٩ م.

-* ابن دحية (أبو الخطاب عمر بن حسن، ت ٦٣٣ هـ/ ١٢٣٥ م):

- المطرب من أشعار أهل المغرب - تحقيق: إبراهيم الإبياري ود. حامد عبد المجيد ود. أحمد أحمد بدوي - مراجعة: د. طه حسين- دار العلم للجميع -بيروت-د.ت.

-* الذهبي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد، ت ٧٤٨ هـ/ ١٣٧٤ م):

- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام – حققه وضبط نصه وعلق عليه: د. بشار عواد معروف – دار الغرب الإسلامي – بيروت – ط ١، ١٤٢٤ هـ/ ٢٠٠٣ م.

-* السخاوي (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، ت ٩٠٢ هـ/ ١٤٩٧ م):

- الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ- تحقيق: د. صالح أحمد العلي- مؤسسة الرسالة- بيروت- ط ١/ ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٦ م.

-* الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك، ت ٧٦٤ هـ/ ١٣٦٣ م):

–الوافى بالوفيات – دار فرانز شتاينر بفيسبادن، ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١ م.

-* ابن عبد الملك المراكشي (أبو عبد الله محمد بن عبد الملك، ت ٧٠٣ هـ/ ١٣٠٤م):

- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة:

– السفر الأول – القسم الأول – تحقيق: د. محمد بن شريفة – دار الثقافة – بيروت – د.ت.

– السفر السادس – تحقيق: د. إحسان عباس – دار الثقافة – بيروت – ١٩٧٣م.

-* ابن عِذَارى المَرَّاكُشِي (أبو عبد الله محمد بن محمد، ت بعد ٧١٢ هـ/ ١٣١٢ م):

– البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب:

- الأجزاء الأول والثاني والثالث – تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان و أ. ليفى بروفنسال– الدار العربية للكتاب – بيروت – ط ٣، ١٩٨٣م.

- الجزء الرابع – تحقيق ومراجعة: د. إحسان عباس – الدار العربية للكتاب – بيروت، د. ت.

-* ابن عسكر (أبو عبد الله محمد بن علي، ت ٦٣٦ هـ/ ١٢٣٨ م) وابن خميس (أبو بكر محمد بن محمد، ت بعد ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م):



- أعلام مالقة - تقديم وتخريج وتعليق: د. عبد الله المرابط الترغي- دار الغرب الإسلامي ببيروت ودار الأمان للنشر والتوزيع بالرباط - ط ١، ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩ م.

-* العماد الأصفهاني (أبو عبد الله محمد بن صفي الدين الكاتب، ت ٥٩٧ هـ/ ١٢٠٠ م):

- خريدة القصر وجريدة العصر:

- الجزء الأول- قسم شعراء المغرب- تحقيق: محمد المرزوقي ومحمد العروسي المطوي والجيلاني بن الحاج يحي- الدار التونسية للنشر- ط ٣، ١٩٨٦ م.

- الجزءان الثاني والثالث- قسم شعراء المغرب والأندلس- تحقيق: آذرتاش آذرنوش-نقحه وزاد عليه: محمد العروسي المطوي والجيلاني بن الحاج يحي ومحمد المرزوقي-الدار التونسية للنشر-ط ٢، ١٩٨٦ م.

-* ابن عميرة المخزومي (أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي، ت ٦٥٨ هـ/ ١٢٥٩ م):

- تاريخ ميورقة- دراسة وتحقيق: د. محمد بن معمر- دار الكتب العلمية- بيروت- ط ١، ١٤٢٨ هـ/ ٢٠٠٧ م.

-* ابن فرحون (أبو إسحاق إبراهيم بن علي، ت ٧٩١ هـ/ ١٣٨٨ م):

- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب- تحقيق: د. محمد الأحمدي أبو النور- دار التراث للطبع والنشر- القاهرة - د.ت.

-* ابن الفرضي (أبو الوليد عبد الله بن محمد، ت ٤٠٣ هـ/ ١٠١٢ م):

- تاريخ علماء الأندلس- حققه وضبط نصه وعلق عليه: د. بشار عواد معروف- دار الغرب الإسلامي- تونس- ط ١، ١٤٢٩ هـ/ ٢٠٠٨ م.

-* ابن القاضي (أحمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي، ت بفاس ١٠٢٥ هـ/ ١٦١٦ م):

- جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس - دار المنصور للطباعة والوراقة - الرباط، ١٩٧٣ م.

- درة الحجال في أسماء الرجال- تحقيق: د. محمد الأحمدي أبو النور- مكتبة دار التراث- القاهرة- د.ت.

ابن الكردبوس

-* ابن الكردبوس (أبو مروان عبد الملك التوزري، عاش في النصف الثاني من ق٦هـ/ ١٢ م):

- تاريخ الأندلس (قطعة من كتاب: الاكتفاء في أخبار الخلفاء)- تحقيق: د.أحمد مختار العبادي- المعهد

المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، ١٩٧١ م.

-* المَقَّري (أبو العباس أحمد بن محمد، ت ١٠٤١ هـ/ ١٦٣٢ م):

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب- تحقيق: د. إحسان عباس- دار صادر - بيروت- ط ١، ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨ م.

❁ ❁ ❁

ثانيًا: المراجع العربية والمترجمة:

-* آنخل جونثالث بالنثيا:

- تاريخ الفكر الأندلسي- نقله عن الإسبانية: د. حسين مؤنس-مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة، ١٩٥٥ م.

-* د. حسين مؤنس:

- تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس- منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - مكتبة مدبولي - القاهرة، ط ٢، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م.

-* خير الدين الزركلي:

- الأعلام - دار العلم للملايين - بيروت - ط ١٥، مايو ٢٠٠٢ م.

-* ابن سودة المري:

- دليل مؤرخ المغرب الأقصى- دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع -بيروت- ط ١، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧ م.

-* د. الطاهر أحمد مكي:

- دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة- دار المعارف- ط ٣- ١٩٨٧م.

-* العباس بن إبراهيم:

- الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام - راجعه: عبد الوهاب بن منصور-المطبعة الملكية- الرباط- ط ٢، ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٣ م.

-* د. عبد الرحمن علي الحجي:

- التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة-دار القلم- بيروت-ط ٢، ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨١ م.

-* عمر رضا كحالة:

- معجم المؤلفين - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ١، ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٣ م.

-* فرانز روزنثال:

- علم التاريخ عند المسلمين - ترجمة: د. صالح أحمد العلي - مؤسسة الرسالة- بيروت - ط ٢، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م.

-* كارل بروكلمان:

- تاريخ الأدب العربي - ترجمة: عبد الحليم النجار - دار المعارف - القاهرة، بدون تاريخ.

-* د. محمد المنوني:

- المصادر العربية لتاريخ المغرب- منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٣ م.




➢ ثالثًا: الدوريات:

-⁎ د. حسين مؤنس:

- «الجغرافية والجغرافيون في الأندلس» - مقال بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد – ج ٧-٨، ١٩٥٩-١٩٦٠ م.

- «السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين» - المجلة التاريخية المصرية - المجلد الثالث/ العدد الأول، مايو ١٩٥٠ م.

-⁎ د. خالد بن علي النجمي:

- مؤرخ المرية ابن خاتمة الأنصاري (ت ٧٧٠ هـ/ ١٣٦٩ م) وكتابه مزية المرية على غيرها من البلاد الأندلسية، دراسة في مخطوطته ونصوصه الباقية- مجلة العلوم الإسلامية والاجتماعية- العدد (٥٣)- شوال ١٤٤٠ هـ

-⁎ أ.م.د. خالد محمود عبد الله وم.م. قبس فاروق صالح:

- القاضي أبو الحسن النباهي مؤرخًا- مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية- المجلد ١٥- العدد ٩، أيلول ٢٠٠٨ م، ص ٢٢٥- ٢٦٣.

-⁎ د. محمد بنشريفة:

- «البُنَّاهي لا النُّبَاهي»- مجلة الأكاديمية - الرباط- العدد ١٣- ١٩٨٨م، ص ٧١-٨٩.

-⁎ د. محمد علي دبور:

- «منهج ابن عذارى المَرَّاكُشِي ومصادره في البيان المغرب» – مجلة ندوة التاريخ الإسلامي التي يصدرها قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة– العدد الحادي والعشرون، جمادى الأولى ١٤٢٨ هـ/ يونيه ٢٠٠٧ م.



➢ رابعًا: المراجع الأجنبية:

⁎ Emilio Molina López:

- «La obra histórica de Ibn Jatima de Almería» - Al-qantara: Revista de estudios árabes, Vol. 10, Fasc. 1, 1989 págs. 151-174.

⁎ Francisco Pons Boigues:

- Ensayo Bio-Bibliográfico sobre los Historiadores y Geógrafos Arábigo-Españoles – Madrid1898 ..





مقالات أندلسية



فتحٌ جديدٌ في مَصادر دراسات دَولة المُرابطين بالمَغرب والأندَلس:

«الأَنْوَارُ الْجَلِيَّةُ فِي أَخْبَارِ الدَّوْلَةِ الْمُرَابِطِيَّة، لابْنِ الصَّيْرَفِيِّ الغَرْنَاطِيِّ»

أعاد بناءه وحققه وقدم له: أ.د. محمد علي دبور

أبو الحسن الجمال(*)

كانت دولة المرابطين في المغرب والأندلس من الدول التي نالها قدرٌ كبير من الظلم والغبن والتشويه، وفي هذا تشبه الدولة الأموية في المشرق الإسلامي التي سقطت سنة ١٣٢هـ على أيدي بني العباس؛ الذين حاولوا اجتثاث كل ذكر لها، كما نسبوا إليها من الروايات والأخبار الكاذبة.. بأن لصقوا بهم كل نقيصة، ونسبوا إليهم كل تخلف، بل وصل الأمر إلى حد الاتهام في العقيدة والتشكيك فيها، لأن التاريخ يكتبه المنتصرون، وهذا ما حدث مع المرابطين تمامًا، وربما في صورة أشد وأعنف، فقد اجتهد «ابن تومرت» مؤسس حركة الموحدين في أن ينفر الناس والمجتمع المغربي بأسره من المرابطين، فاتهمهم بالتقصير في شتى المجالات، بل واتهمهم في عقيدتهم فنسب إليهم التجسيم، وسماهم بالمجسمين، وبعد فترة بدأت دعايته تؤتي أكلها حتى تمكن من إسقاطهم وإقامة نظامه السياسي على أنقاض دولتهم.

وقد صدر مؤخراً عن دار النابغة بطنطا بجمهورية مصر العربية كتاب «الأَنْوَارِ الْجَلِيَّةِ في أَخْبَارِ الدَّوْلَةِ الْمُرَابِطِيَّةِ» لابن الصَّيْرَفِيِّ الغَرْنَاطِيِّ. والذي أعاد بنائه وتجميعه وتحقيقه الأستاذ الدكتور محمد علي دبور؛ أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية في كلية دار العلوم ، وهو أحد أبناء مدرسة دار العلوم التاريخية التي أنجبت العديد من الأعلام من أمثال: محمد ضياء الدين الريس، وأحمد شلبي، وعبد الله جمال

(*) كاتب ومؤرخ، من مصر.

الديـن وغيرهم .تخرج في كليـة دار العلوم، ثـم حصـل منها علـى درجة الماجسـتير في رسـالة بعنوان: «الدور السياسي للعلماء فى الأندلـس في عهـدي المرابطـين والموحدين (٤٨٤-٦٤٦هـ)»، ثـم ذهـب في بعثـة إلـى إسـبانيا، في كليـة الآداب بجامعـة مدريـد المركزية (الكومبلتنسي) للحصول على درجة الدكتـوراه في التاريـخ الأندلسـي بعنـوان: «الأسـعار في المغـرب والأندلس فـى القرن السابع إلى القرن التاسع»، وقد أثرى المكتبة العربية بالعديد من المؤلفات منها: «بنو أمية فى التاريخ.. دراسـة في التاريخ السياسـي والحضـاري»، و«فقـه النظـام السياسـي في الإسـلام»، و«المماليـك والعثمانيـون.. أصلهم وتاريخهـم وحضارتهم»، و«الحروب الصليبية والمؤامرة على العالم الإسـلامي»، «أندلسيات»، و«ابن عذاري المراكشي»، وقد حقق مؤخـراً كتـاب «الأنـوار الجلية» لابن الصيـرفي الغرناطـي، بعد أن أعـاد جمعه وبنـاءه لأن الكتاب في عداد الكتب المفقودة، وهو من الكتب الرئيسـية التي أرخت لدولة المرابطين وهو حديثنا في السـطور التالية. والمحقـق قد عاش مع ابـن الصيرفي حينما خصـه ببحـث ونوه إلـى مكانتـه التاريخية ومكانة كتابه هذا ...

وفي تقديمه للكتاب يؤكد الدكتور دبور أن الكتاب: «ويُعَدُّ من عُيون التُّراث الأندلُسـيِّ، والمصـدرَ الأوَّلَ والوحيـدَ لتاريـخ أسـرة المُرابطين في المغرب والأندلُس، لكنَّه في حُكْم المفقود، وفقدنا بضياعه المصدرَ الأساسـيَّ الـذي كنَّا نأمل أن يضيء كثيرًا من الجوانب المجهولـة في تاريـخ دولـة المُرابطين بالغرب الإسـلاميِّ، ونظرًا لأهميته ونُدرته واعتماد العديد من المؤرِّخين اللاحقين عليه».

وقد اجتهد المحقق الدكتور دبور في جَمْع نُصُوصـه المبثوثة في ثنايـا المصادر المغربيَّة والأندلُسـيَّة، سواء ما يتعلَّق منها بالأحداث التَّاريخيَّة أو التَّراجم أو الأشعار التي قالها المؤلفُ في أمراء المُرابطين، فقد كان مؤرِّخًا وشـاعرًا في الوقت نفسـه، ثم قـام بترتيب هـذه النُّصُوص ترتيبًـا زمنيًّـا، وعرَّج على تقويمهـا وترميمها وضبطها بالشَّـكْل حتى تُقْـرأ بطريقـة سَـهْلة وصحيحـة، كُل هَذا في محاولـةٍ للوصول إلى نُسـخة قريبة من الكتاب الأصليِّ كما وضعه صاحبُهُ، وليتوفرَ لأول مَرَّةٍ بين أيدي الباحثين المهتمين بتاريخ المغرب والأندلُس والمهتمين بتاريخ المُرابطين خُصُوصًـا كتاب الأَنْـوَارِ الْجَلِيَّـةِ في أَخْبَارِ الدَّوْلَةِ المُرَابِطِيَّةِ لابن الصَّيْرَفِيِّ الغَرْنَاطِيِّ.

ثـم أحصـى الدكتـور دبـور كل الكتـب المفقودة التي تناولت دولة المرابطين ومعظم من كتبها من المؤرخين قد عاصروا نشـأتها ودورهـا التاريخي ونهايتها المأسـاوية على يـد الموحدين، مثل: «البيان الواضح في المُلِمِّ الفادح»لابن علقمة (ت ٥٠٩ هـ/ ١١١٦ م)، والذي كان شاهدا عياناً على سقوط بلنسية في أيـدي القبيطـور سـنة ٤٨٧هـ،و«تاريخ المرابطـين» للقاضـي عيـاض بـن موسـى اليحصبيّ (ت ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩م)، و«المِقْبَاس في أخبـار المغـرب والأندلس وفـاس» لأبي مـروان عبد الملك بن موسـى الـوراق (كان حيًّـا سـنة٥٥٥ هــ/ ١١٦٠ م)،وقد سـجل فيـه كثيرًا مـن تفاصيل الحياة السياسـية لدولـة المرابطـين لا نجدهـا في غيـره من المصـادر، ولذا كان كتابه من المصادر المهمة التي اعتمـد عليها كلُّ مَن جـاءوا بعده من المؤرخـين اللاحقين، و«نظم اللآلى في فتوح الأمـر العالي»لابـن الأشـيري التلمسـاني (ت ٥٦٩ هـ)،و«القَبَـس» لأبـي الحـس علـيّ بن حمـادُه الصنهاجـي (ت ٦٢٨ هـ)، وغيرهـا من الكتب.ثم يأتي كتـاب «الأَنْوَار الْجَلِيَّة فِي أَخْبَارِ الدَّوْلَـةِ الْمُرَابِطيَّة» للمؤرخ الغرناطـي أبـي بكـر يحيى بـن محمد بن يوسـف الأنصاري، المعروف بابن الصَّيْرَفِيِّ (المتوفى سـنة ٥٥٧ هـ/ ١١٦١ م)، وهو يُعد الكتـاب الوحيـد- فيمـا نعلم- الـذي ألفه صاحبه للتأريخ لأسـرة المرابطين، وبالتالي فإنه يندرج تحت كتب «تاريخ الأسـر»، وهي الكتب التي اهتمت بالتأريخ للأسر الحاكمة في تاريخ الإسـلام، حيث ينبـئ عنوانه عن هذا الاتجاه.

وهـذا الكتاب حجـة في بابه؛ لأن مؤلفه ابن الصَّيْرَفِيِّ من رجالات البلاط المرابطي، ومن هنا فقد كان شاهد عيان لما يدونه من أحداث ويصفه من معارك، لكنه– للأسف– مـن المصـادر المفقـودة، وفقدنـا بضياعه المصدر الوحيد الذي كنا نأمل أن يضيء لنا كثيرًا من الجوانـب المجهولة في تاريخ دولة المرابطـين في المغـرب والأندلـس، وبما أنه المصدر حول هذه الأسـرة، فقد كان حافزاً للدكتور دبور للاهتمام بهذا الكتاب وجمعه وتقديمـه إلـى المكتبة العربيـة، ولهذا فقد شـمر عن سـاعد الجد وقام بهـذه الرحلة الشاقة التي اسـتغرقت منه الوقت الثمين، فقام بجمع واستقصاء نصوصه المبثوثة في ثنايا المصادر التي اعتمدت عليه ونقلت عنه في محاولـة للوصول إلى نسـخة قريبة من الكتاب الأصلي..

وعـن عملـه في الكتاب يقـول الدكتور دبـور: «إن النصـوص المتفرقة من أي كتاب تشـبه إلى حدٍّ كبير الصـورة الفوتوغرافية الممزقـة المبعثـرة، فتجـد كل جـزء منهـا في ناحيـة، وبالتالـي لا نسـتطيع تحديـد ملامحها ولا معرفـة صاحبها، لكن عندما نجمع شـتات تلكم الصورة، ونضع كل جزء منهـا في مكانـه الصحيـح والمناسـب نبدأ في تحديـد ملامحها ورؤيتها بشـكل أوضح وأفضل، ويكون الاسـتمتاع بها أكثر وأنفع. كذلـك الحال مع نصوص الكتـب المفقودة، كلما اجتهدنا في جمعها ولم شـتاتها، وضم بعضها إلى بعض، ووضع كل نصٍّ في مكانه الصحيح، وسـياقه التاريخي المناسب كلما وصلنا إلى صـورة أوضح للحقبة التاريخية التـي تتكلم عنها هذه النصـوص، وكنا إلى الحقيقـة التاريخيـة أقرب، واسـتطعنا أن نحكم عليها بصورة أعدل وأكثر إنصافًا».

ثم تحدث الدكتور دبور عن حجم الكتاب فجزم أنه كان من الحجم الصغير في مجلد واحـد، اسـتناداً إلـى نـص للسـان الدين ابـن الخطيب، الـذي أطلق عليـه «التاريخ الصغيـر» فقـال: «قَالَ ابْـنُ الصَّيْـرَفِيِّ فِي تَارِيخِهِ الصَّغِيرِ»، كما أن النصوص المتبقية منـه تدل على أن صاحبه كان حريصًا على نقل صورة موجزة مختصرة عن تاريخ دولة المرابطـين، ولم يكن يجنح إلى الاسـتطراد والتطويل والإسـهاب، وقد وقفنا على عدد من النصوص التي يشير فيها ابن الصَّيْرَفِيِّ صراحة إلى منهج الإيجاز والاختصار الذي اتبعه في تصنيف كتابه.

أمـا عـن منهـج الدكتـور دبـور في هذا الكتـاب، فقـد قامبجمـع نصـوص الكتاب مـن كل المظـان التاريخية التـي نقلت عنه واعتمـدت عليـه، ووقـف علـى نوعين من النصـوص؛ الأولـى: نصوص انفـردت بها بعض المصادر ولم تتكرر في مصادر أخرى، والثانية نصوص تكررت في أكثر من مصدر، أمـا الأولى فقـد وضعها كما هـي، خاصة إذا كانت منسـوبة صراحة إلى مؤرخنا ابن الصَّيْـرَفِيِّ، واجتهد قـدر الإمكان في تقويم هذه النوعية من النصوص وترميمها بصورة علمية مناسـبة، وأمـا الثانية، فنظرًا لتعدد النـص الواحد في أكثر من مصدر مع بعض الاختلاف في الألفاظ والزيادة أو النقصان، فقـد اعتمد على النـص الأكمل والأصوب، أو النص الذي ذكـر ناقلُهُ صراحة أنه نقله عن ابـن الصَّيْرَفِيِّ، فبعـض هذه النصوص

جاءت مشوهة مبتورة وناقصة وفيها كثير من السقط، ثم بدأنا في إكمال هذا النص باختيار الألفاظ الأكثر مناسبة للمعنى والسياق التاريخي واللغوي، وتصويب ما يحتاج إلى تصويب، والتعريف بما يحتاج إلى بيان وتوضيح، ووضعنا الفروق المختلفة بين النصوص في حواشي الكتاب.

كما قام بترتيب النصوص ترتيبًا زمنيًا كما هو معتاد في المصادر التاريخية، خاصة وقد عرفنا من نصوص (الأَنْوَار الْجَلِيَّة) أن صاحبه كان يعتمد منهج الترتيب الحولي (على السنين)، وبهذا فإن هذا الترتيب يتسق مع منهج المؤلف في ترتيب أحداث كتابه، وفي حال فقدان التاريخ وضعنا النص في سياقه التاريخي المناسب للترتيب الزمني وتسلسل الأحداث.

وفي هذا يقول الدكتور دبور: «أما من حيث منهج انتقاء النصوص المتبقية من الكتاب، وتمييز كلام ابن الصَّيْرَفِيِّ من غيره، فلحسن الحظ فإن أغلب النصوص التي عثرنا عليها كانت منسوبة صراحة إلى مؤرخنا ابن الصَّيْرَفِيِّ، سواء ذكر الناقل كلام ابن الصَّيْرَفِيِّ حرفيًا، وفي هذه الحالة كان يقول: «قال ابن الصَّيْرَفِيِّ»، أو ذكر مضمونه وفحواه، وفي هذه الحالة كان يقول: «هكذا ذكر ابن الصَّيْرَفِيِّ في تاريخه»، أو يعبر بألفاظ أخرى عن كلام مؤرخنا ابن الصيرفي.لكن من المهم هنا أن نشير إلى أن بعض المؤرخين الكبار كابن عذاري المراكشي وابن الخطيب الغرناطي كانا- في بعض الأحيان- ينقلان العديد من النصوص عن ابن الصَّيْرَفِيِّ دون إشارة إلى مصدرهما، لكنهما – لحسن الحظ- كانا يتبادلان الإحالة إلى المصدر فيما بينهما، بمعنى أنه– في أحايين كثيرة– إذا سكت أحدهما عن ذكر مصدره لنص ما كان الآخر يذكر هذا المصدر لنفس النص، فكان هذا يساعدنا كثيرًا في نسبة العديد من النصوص إلى مؤرخنا ابن الصَّيْرَفِيِّ.كما أن بعضهم أحيانًا كان ينقل عدة صفحات متوالية عن ابن الصَّيْرَفِيِّ ولا يذكر مصدره إلا في نهاية هذا النقل بقوله: «هكذا ذكر ابن الصَّيْرَفِيِّ»، وبالتالي فقد وجدنا فقرات كثيرة لم يذكر الناقل فيها مصدره».

والكتاب يتكون من مقدمة وقسمين: القسم الأول تحدث فيه محقق الكتاب وجامعه عن المؤرخ أبي بكر بن الصيرفي وكتابه الأنوار الجلية، حيث تعرض المؤلف لحياته ومؤلفاته، فذكر أنه يحيى بن محمد

بن يوسف الأنصاري، كنيته أبو بكر، ويعرف بابن الصيرفي، ويعرف بالغرناطي نسبة إلى موطنه الأصلي غرناطة حيث ولد بها سنة ٤٦٧هـ /١٠٧٤م، وذكر أن المؤرخين اختلفوا في تحديد سنة وفاته، فيذكر عن ابن الأبّار البلنسي أنه توفي بمدينة أوريولة الأندلسية من أعمال مرسية سنة ٥٥٧هـ /١١٦١م، وقد تابعه حاجي خليفة، وإسماعيل البغدادي، وخير الدين الزركلي، وعمر رضا كحالة،وابن سودة المري وغيرهم ، بينما ذكر الغرناطيين: أبو جعفر بن الزبير ولسان الدين بن الخطيب أنه توفي بغرناطة في حدود ٥٧٠هـ /١١٧٤م.

ثم تحدث المحقق عن مكانته العلمية والأدبية والتاريخية، حيث كان من أكابر علماء غرناطة في النصف الأول من القرن السادس الهجري، وقد حظي باهتمام أدباء الأندلس وتقديرهم، ثم تعرض لعصره؛وتحدث عن الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية، حيث عاصر المؤلف معركة الزلاقة، ثم أفول نجم دويلات الطوائف واستيلاء المرابطين على الأندلس، وقد شهد الأندلس خلال هذه الفترة نهضة ثقافية وعلمية متميزة كانت امتداداً للنهضة العلمية التي شهدها في عصر ملوك الطوائف والتي تعد من أزهى عصور المسلمين في الأندلس في مجالي الفكر والحضارة، وقد نبغ في الفترة التي عاشها ابن الصيرفي العشرات من الأعلام في كافة صنوف العلم من الفقه والحديث والتفسير والأدب والعلوم الكونية...

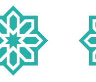
وفي هذا القسم المهم من الكتاب تحدث المحقق عن ابن الصيرفي كاتباً ووزيراً في بلاط المرابطين؛ حيث كان من كبار رجالات البلاط، وكان كاتباً لأمرائها، وقد أفاده هذا القرب في تصنيف كتابه؛ حيث اطلع على وثائق ومكاتبات ديوان الإنشاء الخاص بالدولة، وهو لسان حالها والمعبر عن سياستها وتوجهاتها في حالات السلم والحرب والعلاقة مع الرعية، ولا يرتقي إلى هذا المنصب إلا من تثق الدولة فيهم وفي أمانتهم وكفاءتهم. ثم تحدث عن مؤلفاته الأدبية والتاريخية، حيث كان ابن الصيرفي شاعراً ومؤرخاً في آن واحد، ويتقل عن ابن الأبار في كتابه «التكملة» قوله «كان من الأدباء المتقدمين والشعراء المجودين»، وابن الخطيب في كتابه الإحاطة: «من الشعراء المطبوعين المكثرين»، وقصائده مبثوثة في المصادر التاريخية والأدبية العديدة وكان براعته في فن التوشيح ومن كبار الوشاحين

في عصره، ثم تحدث عنه مؤرخاً وله الكتب التي للأسف لم تصلنا ولكننا طالعنا بعض أخبارها في المؤرخين الذين نقلوا عنه ومن أهم مؤلفاته التاريخية التي ورد ذكرها في المصادر: «الأنوار الجلية في أخبار (محاسن الدولة المرابطية» موضوع دراستنا، و«تقصى الأنباء في سياسة الرؤساء»، و«أدباء مالقة»، و«إبراز اللطائف»، و«رسالة الدوريات في قول المديون لرب العالمين».

ثم خص المحقق كتاب «الأنوار الجلية» بدراسة في المحتوى والمنهج والقيمة العلمية، حيث الكتاب مصدراً تاريخياً له قيمته وأهميته لدى المؤرخين والمهتمين بالأحداث التاريخية، خاصة فيما يتعلق بتاريخ دولة المرابطين، كما أن مؤلفه ابن الصيرفي كان يحظى بثقة معاصريه واللاحقين له، بدليل اهتمامهم بهذا الكتاب واعتمادهم عليه، فقد ظل معروفاً ومذكوراً في المصادر التي نقلت عنه حتى منتصف القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، وقد ذكر المؤلف الكتب التي نقلت عنه.

ثم تناول المنهج التاريخي لابن الصيرفي في كتابه «الانوار الجلية» في أنه اعتماده الطريقة الحولية منهجا. ثم الالتزام بمنهج الاختصار والايجاز. وتناول أيضاً أسلوب الكتابة وغلبة النزعة الدينية، حيث كان أسلوبه سلس بعيداً عن التكلف ومباشر ويبتعد عن السجع. كما غلب عليه النزعة الدينية، كما تناول منهجه في إيراد التراجم، فقد اهتم ابن الصيرفي اهتماماً كبيراً بالترجمة للشخصيات السياسية والعلمية رفيعة الشأن، متبعاً في ذلك أسلوبه التاريخي المعتاد فجاءت ترجماته واضحة وافية ومباشرة...

ثم كان القسم الثاني تحت عنوان «نصوص الكتاب محققة ومرتبة على السنين» واستغرق ١٣٦ صفحة من الكتاب، ونطالع تاريخ دولة المرابطين مرتبة على السنين ذاكرا الأحداث التاريخية ثم يترجم لرجالتها في نهاية كل عام بقدر ما توصل إليه جامع الكتاب ومحققه وفي النهاية نشكره على هذا الجهد المشكور ونتمنى أن نرى مثيل هذا العمل في قادم السنوات.









عودة الإسلام إلى غرناطة

يوسف نابارو(*)

تَقول أسطورة محلية إنّ روح أبي عبد الله تتجوَّل في الحمراء ليلًا عِقابًا له على استسلام غرناطة، وأنّها تنتظر فارسًا، وسيفتح بمفتاح سِحْري بابَ الشريعة -وهي من أهم أبواب الحمراء- للإسلام من جديد، لِكَيْ تَرْتَقِيَ روحُ أبي عبد الله إلى السماء في سلام... ولكن ليست إلا أسطورة.

كُلنا نعرف أنَّ المسلمين قد استقرّوا في أجزاء من إسبانيا لِما يَقْرُبُ من ثمانية قرونٍ قبل أنْ يتمكّنَ الملِك فرديناند والملكة إيزابيلا من السيطرةِ على غرناطة وإعادتِها إلى الحُكْم الكاثوليكي عام ١٤٩٢م وقاما بِطَرْدِ آخِرِ الملوك المسلمين إلى المنفى في شمال أفريقيا، غَيْرَ أنّهم نَكَثوا بِعَهْدِهم للمسلمين الخاص باحترام الدين الإسلامي، وبعدَها بعَشْرِ سنوات خَيَّروا السُكّان المسلمين بين التحَوُّل إلى المسيحية أو الهِجْرة من غرناطة.

وفي بداية سبْعينات القرن الماضي، وحوالي خمسمئة عام بعد سقوط مدينة غرناطة في أيدي قشتالة، وعَقِبَ مشاكل وعَقَبات كثيرة، بدأت مدينة غرناطة من جديد تهتمّ بالدين الإسلامي الذي كان له جذور عميقة واضحة في هذه الأرض.

ويُفَسَّر هذا الاهتمام بعوامل عديدة:

أولًا دور السياسة المحلية بعد نهاية نظام الديكتاتور فرانكو.

وقد حاوَل ساسَة غرناطة، في تلك الفترة الزَمَنية، تحويل غرناطة إلى مدينة «جِسْر بين أوروبا والمغرب وبقية العالم العربي، بسبب جذورِها الثقافية وتاريخها الإسلامي».

(*) كاتب وشاعر وباحث في اللغة والأدب، من إسبانيا.

وهكـذا، عـن طريـق وِزارة الخارجيـة والحكومـة الإسـبانية، فقـد بـادروا إلى الحوار والاتصالات مـع الاتحاد الأوروبي وجامعـة الـدول العربيـة، بقَصْدِ إنشـاء جامعـةٍ أوروبية-عربيـة في غرناطـة، علـى الرغمِ من مقاومة فرنسـا، كالعادة، للمشروع.

وحاولوا كذلك أنْ تصبحَ المدينة عاصمة الثقافة الأوروبية سنة ١٩٩٢م.

وقد فشـلوا في كِلا الهَدَفين، ولكن رغمَ ذلك، اتخذت البلدية مجموعة من التدابير من أجل استرجاع وتعزيز الجذور التاريخية والإسـلامية في المدينة، وعلى سـبيل المثال فقـد قامت بأعمال الترميـم في عدة مبانٍ إسـلامية وعلى الخصوص في حي البيازين التاريخي، وأقامَت علاقات وطيدة مع بعض المـدن العربيـة مثـل تلمسـان في الجزائر، وتِطوان ومرّاكُش في المغرب.

وفي هذا السـياق، وصلـت إلى غرناطة مـن مدينـة إشـبيلية الجماعة الإسـلامية الأولى، المتكونة من إسبانيين متصوّفين قد اعتنقوا الإسـلام حديثًا تحت قيادة الشيخ عبد القادر الصوفي.

ومن كان ذلك الرَجُل؟

الشـيخ عبـد القـادر الصـوفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (بالإنجليزيـة: المولـود Ian Dallas) كان شيخًا صوفيًا وفَيْلَسوفًا وكاتبًا دينيًّا من أصل أسْـكُتْلَنْدي بريطاني. وكذلك كاتبًا مسرحيًا وممثـلاً فَنّيًا قبل أن يتحوّل إلى الإسـلام في جامع القَرَويين في فاس عام ١٩٦٧م.

وحين عاد إلى بـلاده بدأ في إدارة زاوية «مسـجد صغير» خاصـة بـه في بريطانيا، وبـدأ في نشـر الممارسـات الصوفيـة التي نقلهـا عـن الطريقـة الدرقاوية الشـاذلية المغربية، ونظرًا لِما بَدَرَ منه من سَـمُوّ روحيّ كبير وأخلاقيات الزُهْد والتعَمُّق الفَلْسَـفي، جـذبَ أنظـار العديـد مـن البريطانيـين، مسـلمين وغيـر مسـلمين، حتى بـات رمزًا للتصَـوُّف في البـلاد. (ولا تختلف بريطانيا كثيـرًا عـن بقية الـدول الأوروبيـة في فتح المجـال أمـام الطقوس الصوفية للانتشـار والتمـدد في مقابـل تضييـق الخنـاق على الإسـلام الأصولـي، وهو ما أرجعَـه الكثير مـن الباحثين إلـى إيجاد الغـرب في التيار الصوفي ضالته لأداء دور «الإسـلام البديل» في مواجهـة الوهابيـة والسـلفية التي تعزز المبادئ والقيم التي لا تتناسب مع الغرب).

وبعد تلك الفترة الابتدائية أسس عبد القادر الصوفي «حركة المرابطين العالمية»، وألّف العديد من الكتب عن الإسلام والتصَوُّف والنظريات السياسية.

وفي نهاية الأمر قرَّر التَنَقُّل مع جزء من تُبَّاعِه إلى جنوب إسبانيا، رَغْبةً مِنه البحث عن سياق ثقافي وتاريخي مناسب لإعْداد مشروعِهِ الديني.

وفي الوقت نفسه وصلت إلى غرناطة مجموعة أخرى متكوّنةَ من أفراد الحركة الشبابية هيبيز (hipies) المناهضة للقيم الرأسمالية، هذه المجموعة كانت من قبل مستقرة في منطقة البُشَرات في مقاطعة غرناطة.

واعْتُنِقَ الإسلام بسُرعَة، وأصبحتْ الفِرقَتان جماعة واحدة ترأّسَها الشيخ عبد القادر الصوفي. وسُمِيَّت بـ«الجماعية الإسلامية في إسبانيا» أو «جماعة من أجل عودة الإسلام إلى إسبانيا»، وجعلت مقرَّها في حي البيازين.

نحن الآن في بداية الثمانينات من القرن الماضي في حي البيازين التاريخي. في ذلك الوقت عانى هذا الحي من مشاكل اجتماعية متعددة، بينها الإهمال والفقْر، ووجدت أغلبية من مبانيها في حالة مؤسفة.

وفي هذا السياق، بدأت هذه المجموعة من المسلمين الجدد بشراء أو كراء منازل ومحلات تجارية في منطقة حي البيازين الأدنى قرب القيصرية،

واستقبلوهم سكان المنطقة بمَزيج من الفضول والرَيْبة، لأن لأولائك المسلمون، الجُدد في الحي، صفات ثقافية واجتماعية مختلفة تمامًا وغريبة جدًا بالنسبة لهم، وعلينا أن نتذكر أنّ في ذلك الزمن كان الإسلام شِبْهِ غائب في المدينة، ولم يصل بَعْد في ذلك الحين المهاجرون من شمال أفريقيا وعلى الخصوص المغاربة إلى مدينة غرناطة.

ومن الجدير بالذكر أنّ لهذا الحي هو موْقعًا استراتيجيًا بسبب قُرْبه من مركز المدينة، وكذلك بصِفتِهِ نقطة اتصال بين ضواحي غرناطة ووَسَطِها، وعملت هذه الجوانب على تسهيل إقامة متاجر وأنشطة اقتصادية أخرى مرتبطة بالثقافة الإسلامية والسياحة، وأصبحت المنطقة كجزء صغير من العالم العربي في أوروبا، بمطاعم عربية وشرقية وأماكن الشيّ ومَجْزَرات حَلال إلَخ، مُكَمِّلًا الزيارات إلى قصر الحمراء، القريب،



مِـن قِبل السـياح. ولهذا السـبب أصبح في السـنوات التالية محـورًا لاسـتِقْطاب عددٍ كبيرٍ من المهاجرين المغاربة ومن بلدان عربية أخرى، وفي نهاية الأمر أصبح أحد المحركات الإقتصادية من المدينة.

واليـوم، إذا تجوَّلنا في حي البيازين، هذا الحي الذي تم إنشـاؤه في الأصل لاسـتقبال اللاجئين المسـلمين الذين هربـوا من زَحْف الجُيُوش المسيحية إلى شمال البلاد، فسنجِد في شـوارعه وأزقّتـه المُفعمة برائحـة الهَيّل مطاعِم مغربية ولبنانية مُريحة وفنادق دولية وكذلـك لافتات متعدِّدة اللغات. والموسـيقى التي يعزِفها هنا العازفـون المتجَوِّلون تُغَطِّي هـذا المشـهد بمزيـج مـن موسـيقى البلوز والفلامنكو، ولكـن الآن صار يتخَلَّلها صوت الأذان خمس مرَّات في اليوم.

نرجع إلى هذه المجموعة المسـلمة الأولى التي كانت تُسمّي أفرادها باسم الصوفيس، أو المرابطون، بسـبب الممارسات الدينية من قائدهم.

عندما وصل إلـى غرناطة، كانت الفكرة الأولية من الشـيخ تعميـر المنطقة العليا من البايزيـن من قِبَـل حوالي «خمسـين عائلة» إسـبانية مسـلمة، «سـوفيس» وأتباع الشيخ عبدالقادر، لنَشْـر الإسـلام في غرناطة من جديد وتعريف سـكانها بديـلا اجتماعيا – دينيا لهيمنة الكنيسة في المجتمع المحلي.

وبهـذه الطريقـة، بـدؤوا في الظهـور في الحـي وإدراج عاداتهـم، وكل الخصائـص الدينية التي تحتوي على القرآن الكريم.

في الحقيقـة هـذه العملية مـا كانت إلا بداية تحديد هوية جديدة وانتماء إلى مكان قريـب في التاريـخ، ولكن بعيـد في العادات، كما كان حي البيازين في ذلك الوقت.

وهكـذا في أوائـل التسـعينات أنشـأت الجماعة عددًا من المشاريع مرتبطة بالدعوة الإسـلامية مِثْـلَ مدرسـة قرآنيـة للأطفال ومكتبـة إسـلامية ومجلـة شـهرية اسـمها بالإسـبانية (País Islámico) يعنـي باللغـة العربية (البَلَد الإسـلامي). وتم كذلك شراء الأرض للجامـع الكبير مـن غرناطة في حي البيازين العليى.

ونمـى كل هـذه المشـاريع مـن خـلال المسـاعدات الاقتصاديـة مـن بعـض بلدان عربيـة، وعلـى الخصوص ليبيا مـع العقيد القـذافي، والمغرب من تمويل الملك الحسـن الثاني، وإمارة الشارقة من الإمارات المتحدة العربية.

وهـذا التطور الإسـلامي في المدينة دفع إلى رفـض نجاحه من قِبَـل بعض جماعات محلية ذات النفوذ الاجتماعي، مثل الجريدة المحلية إديال (Ideal).

وتمت كذلك انشقاقات كثيرة في الجماعة، بسـبب الشـخصية الغامضـة الصعبـة من الشيخ عبد القادر الذي لا يتحمل أي انتقاد لأوامره ويطلب دائمًا الخضوع التام له.

ولكـن يبقـى لـه فَضْـل في إعطـاء زَخْم جديد للإسـلام في غرناطة بعد أربعة قرون من وجود عَلَني فيها.

عملية بناء الجامع الكبير في البيازين:

تُعـدّ عملية بناء الجامـع الكبير، في حدّ ذاتها، مُعْجِزة كبيرة.

ففي إسبانيا كثيرًا ما يقوم ممثّلو المجالس البلدية برفض مَنْح التراخيص لبناء المساجد، مدفوعين مـن قِبل معارضـة صغيرة ولكنها قوية. ومن خلال ذلك يضطرّ المسـلمون إلى إقامـة صـلاة الجماعة في بيـوت خاصة أو حتـى في «كراجات». وهكذا يؤدِّي انسـحاب الجالية المسـلمة في حياة منعزلة وسرية إلى خلـق بيئة يمكن في داخلها انتشـار حالة من السخط والغضب. وبهذا لا يتم التوصّل إلى الاندماج المطلوب، بل إلى نقيض الاندماج.

ولا يقتصـر هـذا الشـكل مـن الرفـض وعدم التسـامح على التعامـل مع المهاجرين القادمين من وراء البحار، بل يعتبر منذ فترة طويلة أيضًا بالنسبة للمسلمين المولودين في إسبانيا جزءًا من حياتهم اليومية.

وكان مشـروع بنـاء المسـجد الجامـع بغرناطة قد أثار غضب البعض في إسـبانيا فقد نقلت صحيفة ديلي تلجراف البريطانية عـن صحفي أسـباني في غرناطـة قوله: إن الجميـع هنـا يعـارض بنـاء الجامـع لكنهم يعلمون أنهـم غير قادرين علـى التعبير عن معارضتهـم لاعتبارات سياسـية. وقد احتج بعـض أهالي المنطقة في البداية بشـدة على المشـروع، فهم لم يتحملوا فكرة إقامة جامع ضخـم وأنيق في قلب غرناطة، فظهرت على حوائـط المدينة الشـعارات المعاديـة للعرب والمسلمين، مثل شـعار اخرجوا من هنا أيها العرب المسـلمون. وعندما قام مؤذن الجامع بتجربـة رفع الأذان من قمـة المئذنة أصيب الجيران بصدمة حين سـمعوا صوت المؤذن الذي لم يعتادوا عليه وغاب عن المنطقة طيلة خمسـة قرون، ويعكس ذلـك توتر العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في غرناطة.

كما طالبتْ بعض الجماعات الإسـلامية في غرناطة بأن تتوقف المدينة عن الاحتفال

بِعيد لاتوما الذي تحيى فيه ذكرى سقوط الجيوش العربية في الأندلس، ونقلت صحيفة التايمز عن رجل يقيم في غرناطة منذ سنين طويلة قوله: إن الليبرالية والتسامح ليست من طباعنا والكثيرون منا يرفضون فكرة بناء جامع.

ومع احتدام الجدل على مدى سنوات طويلة إلا أنه لم يعد هناك أي مبرر قانوني لمعارضة بناء الجامع، حيث أن البعض يخشى من أن يعود العرب إلى احتلال إسبانيا، لكن عمليًا وفعليًا فإن هذا مستحيل لأننا نعيش في القرن الحادي والعشرين ونشر الدعوة الإسلامية أو أي دعوة عمومًا أصبح متاحًا بالعديد من الوسائل، كما أن المسلمين لا يجبرون أحدًا على الدخول في دينهم، فالله تعالى يقول في كتابه العزيز ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ وربما تستطيع أوروبا عمومًا بعد افتتاح هذا المسجد الجامع وأيضًا مركز كولونيا الإسلامي وغيرهما من المراكز الإسلامية في أوروبا أن تقدّم مثالًا لحُسن الجوار وتسامح الأديان يمكن أن تطبّقه أطراف الصراع الطائفي الدائر في أي مكان في العالم.

وكانت قصة بناء المسجد الجامع بمدينة غرناطة طويلة ومليئة بالمشاكل والعقبات لكن تم تذليل كل ذلك بعون الله وتوفيقه. ويعد هذا أول مسجد يبنيه مسلمو إسبانيا -وليس مهاجرون من خارجها- منذ أن سقط الحكم الإسلامي في الأندلس. ويعد افتتاحه إشارة واضحة إلى أن إسبانيا بدأت مرحلة تصالح مع ماضيها العربي الإسلامي وذلك مع استمرار حركة الهجرة من دول المغرب العربي إليها، وزيادة عدد المسلمين فيها.

وقد اشتُريت قطعة الأرض التي بُني عليها هذا المسجد الجامع في عام ١٩٨٠م وكانت أرضًا زراعية محصورة بين دير وكنيسة، وعندما أدرك مجلس المدينة أن المسلمين يريدون بناء جامع على تلك الأرض صدر قرار بحظر بناء المباني الدينية عليها وبتخصيصها للمباني السكنية فقط، وعقب صدور هذا القرار بدأت معركة قضائية استمرت مدة تسعة أعوام وانتهت ببناء نموذج بالحجم الطبيعي للمئذنة لتقييم وقعها البصري والجمالي على المنطقة وللاستماع لآراء سكان المنطقة.

وقد أثارت المئذنة شكاوى من قبل المسيحيين الكاثوليك المحافظين في جميع أنحاء إسبانيا وتصاعدت حدة التوتر في غرناطة الأمر الذي أدى إلى تأجيل المشروع مرة أخرى، كما بدأ بعض المتشددين في

غرناطة يطالبون بطرد مسلمي المدينة الذين يقدر عددهم بنحو خمسة عشر ألف شخص، لكن المدافعين عن دستور إسبانيا الجديد الذي يكفل حرية الأديان أيّدوا فكرة بناء الجامع، وأمرت سلطات غرناطة بتعديل تصميم الجامع وتصغير حجم المئذنة. وعندما أوشكت أعمال البناء على البدء اكتشفت في الموقع أطلال رومانية فتأجل المشروع مدة عامين آخرين لحين التنقيب عن الآثار الرومانية، وعدل التصميم مرة أخرى للحفاظ على الأطلال الأثرية، وبدأت أعمال البناء عام ١٩٩٨م، وقد طمأن حينذاك المتحدث بإسم الطائفة الإسلامية في أسبانيا عبد الحق سالابيريا في مقابلة مع ممثل صحيفة الديلي تليجراف قال فيها: إن مدينة غرناطة من الناحية التاريخية هي عاصمة الإسلام في أوروبا وقد أسلم بعض الأسبان بحثًا عن جذورهم وأسلم آخرون مثلي لأسباب إيمانية بحتة وهو يبلغ من العمر ٤٢ عامًا. وهو أصلًا من إقليم الباسك الإسباني وقد أشهر إسلامه في أوائل التسعينات من القرن العشرين الماضي، وقد صرح أيضًا بأنه قد بذلت العديد من الجهود لتهدئة مخاوف السكان المحليين، وتم التوضيح لهم أن بناء الجامع لا يعني مجيء ابن لادن إلى الأندلس وإنما هو تعبير عن أحد أوجه التراث الإسباني، وأنه من المتوقع أن يتردد على الجامع بانتظام نحو ٥٠٠ شخص على الأقل أغلبهم من الإسبان الذين أشهروا إسلامهم ومن المهاجرين من بلاد المغرب العربي.

وجدير بالذكر أن الكثير من المسلمين في الأندلس إبان الحكم العربي كانوا من الإسبان الذين دخلوا في الإسلام بمحض إرادتهم وبدون إكراه كما شهدت هذه الفترة سلامًا تامًا بين المسلمين واليهود والمسيحيين بعكس ما كان يحدث قبل ذلك من اضطهاد لليهود وما حدث بعد هذه الفترة من اضطهاد لكل من المسلمين واليهود.

تصميم الجامع:

وقد استوحي التصميم المعماري لجامع غرناطة الكبير من تصميم مسجد قرطبة الشهير والمسجد الأقصى حيث يتكون مبنى الجامع من ثلاثة أجزاء هي قاعة الصلاة والمركز الإسلامي والحدائق. وتؤدي البوابة الرئيسية له إلى فناء مفتوح مزين بنافورات مرصعة بالموزاييك الأندلسي الشهير، صنعه عمال تم استقدامهم خصيصًا من مدينة فاس المغربية، ويؤدي هذا الفناء إلى قاعة الصلاة التي أشرف على تنفيذها

وتزيينهـا بعناية فائقة وبشـغف كبير فنانون أتوا مـن مدينة فاس المغربية العريقة أيضًا، مسـتعملين التقنية ذاتها التي كانت معتمدة في غرناطة الإسلامية زهاء ألف سنة خلت.

وقـد تم تزيـين هـذه القاعـة بالعناصر الأصيلـة المأخـوذة عـن تقاليـد العالـم الإسـلامي، فالمحـراب الـذي يحـدد اتجاه القبلة للصلاة زخرف بنفس زخرفة محراب جامع قرطبـة الكبير، ويبلـغ ارتفاعه أربعة أمتـار، وبني من أجود أنـواع الرخام متعدد الألوان والمزين بألواح خشب الأرز الأطلسي الفاخـر التـي حفـرت عليها بعـض الآيات القرآنيـة التي تذكر بعـض الصفات الإلهية علـى غرار تلـك الألواح الموجودة بالمسـجد الأقصـى في القـدس الشـريف، وعلى يمين المحراب ويسـاره خزانتان لحفظ المصاحف تمـت صناعتهمـا من الخشـب المرصع، أما نوافذ المسجد الكبيرة والمواجهة للقبلة فهي نسـخة طبق الأصل من مثيلاتها في مسجد السلطان أحمد بإسـطنبول والمعروف باسْم المسجد الأزرق.

وقـد بنيت مئذنة المسـجد علـى الطراز الأندلسـي علـى شـكل بـرج مربـع أبعـاده متناغمـة وبارتفـاع ١٥ متـرًا فقـط طبقًـا لاشـتراطات بلديـة غرناطة، وعلـى الرغم مـن ذلك ارتفـع صـوت الأذان الخالد نداء الحق «اللّه أكبر اللّه أكبر أشهد أن لا إله إلا اللّه أشـهد أن محمدًا رسـول اللّه حي على الصـلاة حي على الفلاح». وقد صمم هيكل برج المئذنة بشـكل منسـجم وبحيث تنسجم هندسـته وينسـجم طرازه مع المشـهد العام الذي يميز حي البيازين التاريخي، ونقرأ في أعلاهـا عبارة «لا إله إلا اللّه محمد رسـول اللّه» كتبـت بالخـط الكـوفي علـى صفائح الزليـج التـي تم كسـوتها بها والتـي تعكس أشـعة الشـمس ويمكن قراءتها من مسـافة بعيدة وبكل وجه من أوجهها. من أعلى توجد نافذتان طوليتان معقودتان بعقود مسـتديرة تشـبه أبواب مسـجد بـاب المـردوم بمدينة طليطلـة الإسـبانية، وخلفهـا توجد شـرفة المؤذن التي يتم الصعـود إليها بدرج حجري ويعلوها سـقف هرمي مائل بارز عن جسـم المئذنـة ومغطًـى بالقراميد الأحمـر ويعلوه هلال نحاسـي. ويتم أداء الصلوات الخمس يوميًا بمسـجد غرناطة الجامـع جماعةً في أوقاتها كما تقام فيه صلاة الجمعة والعيدين وصلاة التراويح في شهر رمضان المعظم، كما يتبنى المسجد برنامجًا يوميًا لدراسة القرآن الكريم وتلاوته جماعةً، كما يتم إلقاء دروس في الفقه والسيرة للكبار والصغار به.

المركز الإسلامي:

أما المركز الإسلامي فهو عبارة عن مبنى من ثلاثة طوابق وقد خصص الطابق العلوي لإقامة خادم الجامع والمؤذن، ويضم الطابق الأول قاعة للمؤتمرات تسع ١٤٠ شخصًا، ومكاتب إدارية وقاعة اجتماعات، وفي الطابق الأرضي توجد قاعة رئيسية مخصصة للأنشطة الاجتماعية والتعليمية، وقاعة جلوس متعددة الاستخدامات، ومطبخ، ومكتبة تزخر رفوفها بالكتب الإسلامية متعددة المواضيع كالفقه والحديث والتفسير إلى جانب كتب السيرة والتاريخ والمعاجم والفن واللغات وغيرها، كما تضم المكتبة التي تتسع لأكثر من عشرة آلاف كتاب كتبًا باللغة الإسبانية والعربية والإنجليزية والفرنسية والتركية والأوردية فضلًا عن وسائل سمعية بصرية من أقراص ممغنطة متعددة في تجويد القرآن الكريم.

ويقوم هذا المركز بتقديم العديد من الخدمات، مثل: تنظيم زيارات لتلاميذ المدارس وطلبة الجامعات وأعضاء الجمعيات الأهلية، وإصدار النشرات الإعلامية، وتنظيم المؤتمرات والمعارض، ودروس تعليم القرآن واللغة العربية، إلى جانب تنظيم محاضرات تعالج قضايا ومواضيع فكرية مختلفة منها دروس في تعليم اللغة العربية والعروض ودورات تكوينية متعلقة بالإسلام والتراث الإسلامي بإسبانيا، وهي متاحة للجميع مسلمين وغير مسلمين للمشاركة والاستفادة منها.

كما يقدم المركز المساعدات الضرورية للمحتاجين من عابري السبيل ولعموم المسلمين عبر قناة مفتوحة وبمساعدة مجموعة من المتطوعين الذين يتعاونون مع منظمات ومؤسسات غير حكومية.

وأخيرًا نأتي إلى القسم الثالث من الجامع وهو حدائق المسجد والتي توجد بها بعض النباتات والأشجار الجميلة مثل شجر الصنوبر وشجر الزيتون وشجر الرمان وشجر البرتقال وشجر الليمون، والتي تم زراعتها بتناسق بديع، وتنتشر روائحها الزكية في جو المكان.







نقشٌ أندلسي

د. عامر ممدوح(*)

تحتل (الأندلس) الأرض والتاريخ والحضارة، في الذاكرة والوجدان العربي والإسلامي عمومًا مكانة متميزة، بل هي ترتبط بكل ما هو جميل، وعريق، وأثير لدى الأمة.

لو فتشتم القلوب لوجدتموها تتربع وسطه، وتحتل شغافه، وتضخ محبتها، وتخالط نبضها، فيتسع المقام ويكبر، وينساب طيفها ويتسامى حتى يبلغ مرتبة العشق الذي لا تخبو أنواره، ولا يقل مقداره!

وتكاد تتوهم للحظة فتسمع لذلك النبض حديثًا مؤنسًا، ومسامرات عاشق، تتأرجح بالنفس بين صعود وهبوط، وآمال وآلام، فتضخ حينًا الفرح، وثانية الحنين، وثالثة تكتم الألم الدفين، ورابعة تحاول مداواة الجرح العتيق الذي يأبى الالتئام، فينساب وجعه بين صفحات الكتب والتراجم والسير!

في الأندلس... يطيب المقام، ويحلو الكلام، ويشخص التاريخ أمامك بهيئته الوقور، يقص على الأجيال، حكاية الفردوس المفقود..

المفقود؟!

(كيف يكون مفقودًا وله كل هذا الوجود؟ إنه موعود لا مفقود.. موعود عند من يعلمون أن الماضي لا يموت إلا بالنسبة إلى الأموات.. وموعود عند كل من يدركون أن التاريخ لا يعرف الأمس أو اليوم أو الغد، وإنما هو نهر الحياة يمضي إلى الأجل المضروب الذي قدره علام الغيوب..) [حسين مؤنس، رحلة الأندلس، ص١١ - ١٢].

(١) كاتب ومؤرخ وأكاديمي، من العراق.

لملمت أوراقي، واستجمعت أفكاري وشجاعتي، وأمسكت أدواتي ودلفت إلى محراب الفردوس الموعود، بقلب عاشق، يسأل كل حين: لماذا كل هذا العشق للأندلس؟

نعشق الأندلس، لأنها بلاد الجمال وعنوانه، هذا الجمال المنبث في كل الأرجاء اتسعت به الأبصار والخيالات بما حباها الله من صفات، فتجدها دون ترتيب أو إعداد تملك عقلك، وتغزو قلبك، وتحط رحالها في تكوينك وذاكرتك وفؤادك الذي ينبض بعشقها، فلا يملك إلا أن يردد مع مؤرخينا الكبار تلك المقولة الشهيرة: (والأندلس شامية في طيبها وهوائها، يمانية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكائها، أهوازية في عظم جناتها، صينية في جواهر معادنها، عدنية في منافع سواحلها) [الحميري، الروض المعطار، ص٣٣].

ويزيد على العبارة قول آخر: (محاسن الأندلس لا تستوفى بعبارة، ومجاري فضلها لا يشق غباره، وأنّى تجارى وهي الحائزة قصب السّبق، في أقطار الغرب والشرق) [المقري، نفح الطيب، جـ١، ص١٢٥].

ولأن اللّه تعالى خصّ بلاد الأندلس (من الرّيع وغدق السّقيا، ولذاذة الأقوات، وفراهة الحيوان، ودرور الفواكه، وكثرة المياه، وتبحر العمران، وجودة اللباس، وشرف الآنية، وكثرة السلاح، وصحّة الهواء، وابيضاض ألوان الإنسان، ونبل الأذهان، وقبول الصنائع، وشهامة الطباع، ونفوذ الإدراك، وإحكام التمدّن والاعتمار، بما حرمه الكثير من الأقطار ممّا سواها) [ابن الخطيب، نقلًا عن المقري، نفح الطيب، جـ١، ص١٢٦].

ونعشق الأندلس، لأنها بلد البطولات، والانتصارات، بلد الفتح الكبير، الذي خط عنوانه طارق بن زياد وموسى بن نصير وطريف بن مالك وإخوانهم، يوم انساحت جموع الفاتحين المؤمنين، لا يوقفهم بحر ولا نهر، فغالبوا الصعاب، وتحدوا الظروف، وقهروا كل العقبات بإيمانهم العظيم، فما أن مضت بضع سنوات حتى كانت شبه الجزيرة الإيبرية ترفع لواء التوحيد، وتدين بدين الإسلام، فكانت العقيدة الربانية والشريعة الإسلامية هي الدافع، وهي الحافز، وهي سبب تحقيق ما رآه البعض أنه ضرب من المعجزات!

وهـو درب ظـل ممتـدًا، مـا دامـت في النفس حياة على تلك الأرض، فسار فيه من بعدهم الكثير، يقودهم الغافقي والسمح بن مالـك والداخل والناصر والمسـتنصر وابن تاشـفين والمنصور الموحدي، ويعاونهم عالِمٌ ثبت، وقاضٍ حكيم، وفارسٌ شجاع.

نعشـق الأندلـس.. ومدنهـا، لأنهـا كانت جواهـر مضيئـة في جبـين شـبه الجزيـرة الإيبرية، قرطبة (جوهـرة العالم) وغرناطة، وطليطلة، وبلنسية، وإشبيلية، ويكفي أن تعلم أن (فضائل أهل قرطبة أشـهر من أن تذكر، ومناقبها أظهر من أن تسـتر، وإليهم الانتهاء في السناء والبهاء، بل هم أعلام البلاد وأعيان العباد، ذكروا بصحة المذهب وطيب المكسب، وحسن الزي في الملابس والمراكب، وعلو الهمة في المجالـس والمراتب، وجميل التخصيص في المطاعم والمشارب، مع جميل الخلائق وحميد الطرائـق، ولـم تخـل قرطبة قط مـن أعلام العلماء وسـادات الفضلاء، وتجارها مياسير لهم أموال كثيرة وأحوال واسـعة ولهم مراكب سـنية وهمم علية) [الإدريسي، نزهة المشتاق جـ٢، ص ٥٧٤ - ٥٧٦].

و(قرطبة التي كانـت الخلافة بمصرها للأعـداء قاهـرة، وجامعهـا الأمـوي ذي البدائـع الباهية الباهـرة والإلماع بحضرتي الملك الناصرية الزّهراء، والعامرية الزاهرة، ومنتزهـات تلـك الأقطـار ومصانعها ذات المحاسـن الباطنة والظاهـرة...) [أوصاف من مفتتح البـاب الرابع لكتاب نفح الطيب للمقري، جـ ١، ص٤٥٥].

ولأنها بلد المساجد العظيمة، التي كانت ومـا زالت تثيـر الانتبـاه والإعجاب بجمال التصميـم وروعـة البنـاء، وجـودة التنفيذ وروعـة العمارة الشـاخصة على الرغم من كل محاولات المحو والطمس والتزييف!!

مسـجد قرطبـة.. وما أدراك ما مسـجد قرطبة، فهو (الذي ليس بمسـاجد المسـلمين مثلـه بنية وتنميقًـا وطولًا وعرضًـا... ولهذا المسجد الجامع قبلة تُعجز الواصفين أوصافها وفيها إتقان يبهر العقول تنميقها) [الإدريسي، نزهة المشتاق جـ٢، ص ٥٧٤ - ٥٧٦].

فكانت مساجد الأندلس عنوان هويتها، ورمـز حضارتهـا، وقصـة إنقـاذ الأمم من ظلمـات البعد عـن الله إلى رحاب الإيمان، منذ أن اختط أولها موسى بن نصير بمسـجد الرايـات أول عبـوره للجزيرة الخضراء، ثم أدامها الأمويون والمرابطون والموحدون وبنو نصر الكرام.

ونعشقها كذلك.. لأنها بلد الدعاة والعلم والعلماء، فلم تشهد غيرها من البلاد ما شهدت من دعوة مستمرة إلى فعل الخيرات، وترسيخًا لدولة العدل، بدءًا بقافلة التابعين الذين وطئوا أرضها مع الفاتحين، ونسيم صحبة النبي الخاتم ﷺ، والتي هبت على الأندلس مع المنيذر الأفريقي رضي الله عنه [ابن الأبار، التكملة، جـ٢، ص٤٤٧؛ المقري، نفح الطيب، جـ٣،ص٥] فجاء بناء النفوس والعقول متوازيًا مع فتح الأراضي والبلدان.

أما مسارات العلم والحضارة في الأندلس، فلا تكفيها كتب ولا مجلدات، طلب حثيث وعشق للعلم، تأليف ونسخ وإنشاء المكتبات، رائدهم قادتهم، ومادتهم كل أبناء الأندلس الذين تشربوا حب العلم والثقافة والإبداع، ويبرز من بينهم بلا منازع الخليفة العالم الحكم المستنصر والذي (كان حسن السيرة، جامعًا للعلوم محبًا لها مكرمًا لأهلها، وجمع من الكتب في أنواعها ما لم يجمعه أحدٌ من الملوك قبله هنالك، وذلك بإرساله عنها إلى الأقطار، واشترائه لها بأغلى الأثمان، ونفق ذلك عليه فحُمِل إليه) [رسائل ابن حزم الأندلسي، جـ٢، ص١٩٤].

لذلك بلغت هذه المكتبة شأنًا عظيمًا، إذ بلغ عدد الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة في كل فهرسة خمسون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين فقط!! [جمهرة أنساب العرب، جـ، ص١٠٠].

فكان هذا الغرس العظيم المبكر والمتواصل لقرون، ينمو وينساح في كل الأرجاء، ويزداد فاعلية بالرحلات الدائمة بين المشرق والمغرب، إذ لم تمنع تقاطعات السياسة استمرار نبض العالم الإسلامي وتواصل أبنائه.

ثم كانت الثمار الطيبة الحلوة، مثلما هي الأندلس، آلاف العلماء وفي شتى صنوف المعرفة، ومنهم ابن حزم الأندلسي، وابن عبد البر، وابن حيان، وعباس بن فرناس، وابن رشد وغيرهم الكثير الكثير، بل ان المتتبع لكتب التراجم الفذة في الأندلس (تاريخ علماء الأندلس، وبغية الملتمس، والصلة والتكملة لكتاب الصلة، وصلة الصلة، والذيل والتكملة)، ليعجب ويعجز في ذات الوقت، يعجب لهذه الحياة الأندلسية النابضة بالعلم، ويعجز عن إيفاء حقها بالإحصاء والاستقصاء.

وكل ذلك ودروب الأندلس مرصوفة بإتقان، وظلامها يبدد بالمصابيح، فتتير حياة أهلها، وتنعم على قلوب سكانها بالأمن والاطمئنان، دون تمييز أو انحياز، في وقت كانت أوربا تحت ظلام الجهل والتخلف، تخطط وترسم لوحة التنكر لكل لغة وسياسات التسامح والانتقام!!

ونعشق الأندلس، لأنها البلد المسلم الذي أعز نساءه، وفتح لهن كل ميادين الإبداع، ولا غرابة، فإن (البراعة في أهل الأندلس كالغريزة لهم، حتى في نسائهم وصبيانهم) كما يقول المقري رَحِمَهُ ٱللَّهُ [نفح الطيب، جـ ٤، ص١٦٦].

برزت المرأة الأندلسية بسبب ذلك عالمة وشاعرة ومؤرخة، تجيد الخط وتقتن كتابة الرسائل الرسمية والمخاطبات، ومنهن عائشة الأندلسية، وحفصة بنت حمدون، وأميمة الكاتبة، ونظام الكاتبة التي يذكرها ابن الأبار في التكملة فيقول بأنها (كانت بقصر الخلافة بقرطبة في أيام هشام المؤيد، بليغة مدركة محبرة للرسائل، ومن إنشائها كان الخطاب الذي عزى فيه المظفر عبد الملك المنصور بن محمد بن أبي عامر عن أبيه وجدد له العهد بولايته) [جـ٤، ص٢٣٠].

ومنهن العروضية مولاة أبي المطرف عبد الرحمن بن غلبون الكاتب، (سكنت بلنسية، وكانت قد أخذت عن مولاها النحو واللغة، لكنها فاقته في ذلك، وبرعت في العروض، وكانت تحفظ الكامل للمبرد والنوادر للقالي وتشرحهما، قال أبو داود سليمان بن نجاح: قرأت عليها الكتابين، وأخذت عنها العروض) [المقري، نفح الطيب، جـ ٤، ص١٧١].

ونعشقها خصوصًا لأنها بلد الزهاد، والتقاة ، الذين كانوا منبعًا طيبًا للخير والإيمان، ومؤشرًا لهوية المجتمع الأندلسي المسلم الذي نهل من منابع الإيمان والتوحيد الخالص، فظل وفيًا له مخلصًا لهويته التي تبعث فيه الروح مهما مرت عليه من خطوب ومحن، ومن أولئك (أبو عمر الحصَّار، الإمام الزاهد، كان شديد الورع، كثير الانقباض، عظيم الصبر) [ابن بشكوال، الصلة،جـ٢، ص١٧]، وسليمان بن عبد الغافر الأموي القرشي الزاهد، ويكنى أبا أيوب، (كان من أهل الزهد والتقلل في الدنيا، وخاتمة الزهاد والصلحاء، وكان من أهل الاجتهاد والورع، وكان يلبس الصوف ويستشعره ويمشي حافيًا، ولا يقبل من أحد شيئًا، وكان معروفًا بإجابة الدعوة، وبكى من خشية الله

حتى كف بصره، وكان كثير الذكر للموت، وكثيرًا ما كان يقول إذا سئل عن حاله: كيف تكون حالة من الدنيا داره، وإبليس جاره، ومن تكتب أعماله واخباره. وكان يحمل هذا الكلام عن بعض من لقيه من الصالحين. وكان كثير الدعاء لخاصة المسلمين وعامتهم، مجتهدًا في ذلك.. قال ابن حيان: توفي أبو أيوب يوم الأحد لسبع بقين من ذي القعدة سنة أربع مئة، ودفن يوم الاثنين بعده بمقبرة الربض بعد صلاة العصر وشهده جمع عظيم لم ير بعده مثله إذ كان آخر العباد بقرطبة). [الصلة، جـ ١، ص٢٧١].

ونعشقها.. لأنها بلد الصبر على التحديات... لأنها تاريخ لوحدها، قصة تختصر كل الأزمان، إذ تقلبت البلاد في مسارات الامتداد، والتعثر، والضعف والتراجع، ثم الانتعاش، فالانحسار، علت بها الأمواج حتى ارتقت وغدت قبلة العالم، وكل ذلك مرتبط بوحدة الموقف والالتزام برسالة الإسلام، ثم هوت وهبطت يوم تشتت الكلمة، وهانت البلاد على أوهن الزعامات، فتنازلوا عن كثير منها، وأضاعوها بثمن بخس، فبادر اهل الرباط والتوحيد فأمدوا في عمرها، حتى قاد بنو الأحمر آخر القرون قبل الانحسار التام.

وقصة الأندلس العظيمة ستبقى شاخصة كل حين تمدنا بالدروس، وتمنحنا العبرة من أرض الحكمة والإنجاز، تبلغنا ألا نصر لهذه الأمة إلا بإسلامها، ووحدتها، وتماسك أبنائها، وأن الإخلال بكل تلك الشروط وتغليب عصبية تجاوزها الإسلام، أو ترسيخ لغة الخلاف والشقاق، أن كل ذلك مؤذن بنهاية العمران، كما يقول العلامة الكبير ابن خلدون في مقدمته.

مثلما أنها شاهد عظيم على تسامح المسلمين وإنسانيتهم، قبالة انتقام الأعداء وقسوتهم، منذ أن عقد عبد العزيز بن موسى بن نصير معاهدة تدمير، ضامنًا لسكان البلاد المفتوحة حريتهم الدينية، فاحتفظوا بمساجدهم ومعابدهم وعملهم دون إكراه، في وقت عمد الخصوم على محو كل ما هو إسلامي، بشرًا وتراثًا ومباني وحتى نفسًا وحياة؟!!

وكيف لا نعشقها.. ونحن دومًا نعيش محنتها، التي تدمي القلب، وسطرها الكتاب بحروف حزينة، من ذلك رسالة لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى حول ضيق حال المسلمين بالأندلس ما صورته:

(وإن تشوفتم إلى أحوال هذا القطر ومن به من المسلمين، بمقتضى الدين المتين والفضل المبين، فاعلموا أننا في هذه الأيام ندافع من العدو تيارًا، ونكابر بحرًا زخارًا، ونتوقع - إلا إن وقى الله تعالى - خطوبًا كبارًا، ونمد اليد إلى الله تعالى انتصارًا، ونلجأ إليه اضطرارًا، ونستمد دعاء المسلمين بكل قطر استعدادًا به واستظهارًا، ونستشير من خواطر الفضلاء ما يحفظ أخطارًا، وينشئ ريح روح الله طيبة معطارًا، فإن القومس الأعظم قيوم دين النصرانية الذي يأمرها فتطيع، ومخالفته لا تستطيع، رمى هذه الأمة الغريبة المنقطعة منهم بجراد لا يسد طريقها، ولا يحصى فريقها، التفت على أخي صاحب قشتالة وعزمها أن تملكه بدله، وتبلغه أمله، ويكون الكل يدًا واحدة على المسلمين، ومناصبة هذا الدين، واستئصال شأفة المؤمنين، وهي شدة ليس لأهل هذا الوطن بها عهد، ولا عرفها نجد ولا وهد، وقد اقتحموا الحدود القريبة، والله تعالى ولي هذه الأمة الغريبة، وقد جعلنا مقاليد أمورنا بيد من يقوي الضعيف، ويدرأ الخطب المخيف، ورجونا أن نكون ممن قال الله تعالى فيهم ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾) [نقلًا عن المقري، نفح الطيب، جـ٤، ص٤٤٤].

كما نتأمل بألم وحسرة ما قاله صاحب «مناهج الفكر» بعد وصفه لجزيرة الأندلس وأقطارها، ما صورته: (ولم تزل هذه الجزيرة منتظمة لمالكها في سلك الانقياد والوفاق، إلى أن طما بمترفيها سيل العناد والنفاق، فامتاز كل رئيس منهم بصقع كان مسقط راسه، وجعله معقلًا يعتصم فيه من المخاوف بأفراسه، فصار كل منهم يشن الغارة على جاره، ويحاربه في عقر داره، إلى أن ضعفوا عن لقاء عدو في الدين يعادي، ويراوح معاقلهم بالعيث ويغادي، حتى لم يبق في أيديهم منها إلا ما هو في ضمان هدنة مقدرة، وإتاوة في كل عام على الكبير والصغير مقررة، كان ذلك في الكتاب مسطورًا، وقدرًا في سابق علم الله مقدورًا، انتهى. وهذا قاله قبل أن يستولي العدو على جميعها، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين) [المقري، نفح الطيب، جـ٤، ص٤٤٦].

ثـم لما حانت لحظة الحقيقة التي تأجلت طويـلًا، كان الحـال يرقـى ليكـون صـورة مبكية، لشـعب يسير نحو الفناء، وبلد تنهار أركانهـا لحظـة بلحظة، فلمـا (تمكن فصل الشتاء، وكلب البرد، ونزل الثلج، فانسد باب المرافق، وقطع الجالب، وقل الطعام، واشتد الغـلاء، وعظم البلاء، واسـتولى العدو على أكثـر الأماكن خـارج البلد، ومنع المسـلمين مـن الحرث والسـبب، وضاق الحـال، وبان الاختـلال، وعظم الخطب، وذلـك أول عام سـبعة وتسـعين وثمانمائة، وطمع العدو في الاستيلاء على غرناطة بسبب الجوع والغلاء دون الحـرب، ففر نـاس كثيـرون من الجوع إلى البشرات، ثم اشتد الأمر في شهر صفر من السـنة، وقل الطعام، ثم تفاقم الخطب، فاجتمـع نـاس مع من يشـار إليـه من أهل العلـم، وقالوا: انظروا في أنفسـكم وتكلموا مع سلطانكم، فأحضر السلطان أهل الدولة وأرباب المشورة، وتكلموا في هذا المعنى، وأن العدو يزداد مدده كل يوم، ونحن لا مدد لنا، وكان ظننـا أنـه يقلع عنا في فصل الشـتاء، فخـاب الظن، وبنى وأسـس، وأقـام، وقرب منـا، فانظـروا لأنفسـكم وأولادكـم، فاتفق الـرأي على ارتكاب أخف الضررين، وشـاع أن الكلام وقع بين النصارى ورؤساء الأجناد قبل ذلك في إسلام البلد خوفًا على نفوسهم وعلـى الناس، ثـم عددوا مطالب وشـروطًا أرادوها، وزادوا أشـياء على ما كان في صلح وادي آش: منها أن صاحب رومة يوافق على الالتـزام والوفـاء بالشـرط إذا أمكنـوه من حمراء غرناطة والمعاقل والحصون، ويحلف على عادة النصارى في العهود، وتكلم الناس في ذلك، وذكروا أن رؤساء أجناد المسلمين لما خرجوا للكلام في ذلك امتن عليهم النصارى بمال جزيل وذخائر، ثم عقدت بينهم الوثائق علـى شـروط قرئـت علـى أهـل غرناطة، فانقادوا إليها، ووافقوا عليها، وكتبوا البيعة لصاحب قشتالة، فقبلها منهم، ونزل سلطان غرناطة من الحمراء.

وفي ثانـي ربيع الأول من السـنة - أعني سـنة سـبع وتسـعين وثمانمئـة - اسـتولى النصـارى على الحمـراء ودخلوهـا بعد أن اسـتوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمائة مـن الأعيـان رهنًـا خـوف الغـدر، وكانت الشـروط سبعة وستين منها: تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال وإبقاء الناس في أماكنهـم ودورهم ورباعهم) [المقري، نفح الطيب، جـ ٤، ص٥٢٥].

حينها علت رايات الحزن والأسى على ضياع الأرض والشعب والتراث والحضارة.. ولا غرابة:

لمثل هذا يـذوب القلب من كمدٍ

إن كان في القلب إسـلام وإيمانُ

[المقري، جـ٤، ص٤٨٨]

ولكـن... لا انقطاع عـن الأمل، بل على العكـس، فمن وسـط المحنة تبـرز المنحة، وإن كان الدكتـور حسـين مؤنـس يحثنـا لنعـد الأندلس الفـردوس الموعود، ونبقيها حاضـرة بيننـا درسًـا وعبرة، فـإن صدى دعوته تلقفها يومًا فارسـها الهمام الدكتور عبد الرحمن الحجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقال متطلعًا إلى فجـر أندلسـي جديـد: (إلا يصح أن نسـتعير أسـلوب كتابنا وعلمائنا -رحمهم اللّه تعالـى وأثابهـم- مـن أهـل الفطنـة والنظـر، ونقول ما قالوا حين كان يرد ذكر الأندلـس: أعادها اللّه للإسـلام) [التاريخ الأندلس، ص ٥٧٨].

ولا نملك إلا أن نقول: اللهم آمين.





نقائش الحمراء وإشاراتها

جابر خليفة جابر(*)

وأنت تتمشى مع طقس مشمس منعش بدرجة حرارة ١٦ مئوي في مدينة مار دل بيلاتا على الساحل الأرجنتيني ستندهش بمبنىً أمامك، تزينه نقوش الأرابسك وتعتليه قبة ومنارة، أنت أمام مسجد على الطراز الأندلسي المعروف بفن المدجنين (والمدجنون هم الأندلسيون قبل ١٤٩٢م، الذين لم يغادروا مدنهم بعد استيلاء الممالك الإسبانية عليها وبقوا تحت سلطة الإسبان) ولا شك وأنت تندهش لمشهد المسجد في تلك المدينة البعيدة عن الشرق وعن الأندلس ستشدّك حروف وكلمات الشعار الأندلسي المعروف (لا غالب إلا الله) هذا الشعار الذي تزدان وتزدحم به جدران وأفاريز وأبواب وواجهات قصر الحمراء في غرناطة

(*) روائي وناقد ومؤرخ، من العراق.

بإسبانيا، ثمة خيط يضيء الذاكرة ويمتد من الساحل الآخر الأرجنتيني إلى الأطلسي وحتى السواحل الجنوبية الشرقية لإسبانيا على البحر المتوسط وصعودًا منها إلى غرناطة وتل السبيكة حيث قام محمد بن يوسف بن الأحمر بتمرده بالتزامن مع ثورتي زيان بن مردنيش ومحمد بن هود مستغلين ضعف الدولة الموحدية وتراخي قبضتها على الأندلس، ثم انفرد محمد بن يوسف ابن الأحمر بالحكم فيما تبقى من الأندلس إذ اضطر الأمير زيان بن مردنيش بعد سنوات من سقوط بلنسية إلى اللجوء إلى السلطان الحفصي في تونس، وأدت شهوات ابن هود إلى مقتله من أجل جارية رومية جميلة نافسه عليها عامله على المرية المدعو بالرميمي!

لطخة العار هذه والفعلة المتدنية من أقوى قادة الأندلس حينذاك وبلاده ومدنه ومنها العاصمة قرطبة تحت خطر الجيوش الإسبانية ليست بالوحيدة وما أكثر اللطخات التي شوهت صفحات الكتاب الأندلسي الجميل بحضارة شعبه وتضحياته ومجاهديه.

نعم ما أكثر اللطخات التي تجعلنا على الرغم من جمال الوجود الإسلامي في الأندلس نشعر بالخجل، ومنها ما يتعلق بهذا الشعار المنقوش بحروف عربية على واجهة ذاك المسجد الأرجنتيني البعيد وأعني شعار سلطنة غرناطة وحكامها (لا غالب إلا اللّه) الذي زينوا به قصورهم ومساجدهم وصار مع الزمن شعارًا للأمة الأندلسية الشهيدة كما وصفها أحد الكتاب.

بعد هزيمة الجيش الموحدي في معركة العقاب بقيادة الخليفة الموحدي الناصر سنة ٦٠٩ هـ وتمزق البيت الموحدي واقتتال الأمراء الموحدين مع بعضهم ومن ثم اندلاع ثورات الأندلسيين وزحف الإسبان واستيلاؤهم على مدن الأندلس الكبرى بقيت إشبيلية صامدة ممتنعة وعصية حتى سنة ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨م وكان ابن الأحمر قد خاض حربًا عنيفة للدفاع عن غرناطة ثم اضطر لتوقيع اتفاقية مع مملكة قشتالة أقوى وأكبر الدول الإسبانية وبموجبها تنازل عن مدن عديدة وقدم جزية ضخمة سنوية وتعهد بمساعدة الإسبان في حالة الحرب، وهكذا كان الجيش الغرناطي بقيادة محمد بن يوسف بن الأحمر متواجدًا عند أسوار إشبيلية، حمص الجند وعروس الأندلس، وعاصمة الموحدين حيث عاش ابن الطفيل صاحب «حي بن يقظان»، وابن زهر الطبيب والفيلسوف الكبير، وابن رشد وما أدراك ما ابن رشد ذاك الذي كان يخاطب خليفة الموحدين بعبارة يا أخي، وما أثقل هكذا عبارة على سلطان يعد نفسه خليفة وأميرًا المؤمنين، بل ويسميه في إحدى كتاباته بملك البربر، والحديث يستدرجنا ليطول، فنقف ونعود إلى إشبيلية المحاصرة بجيوش فرناندو ملك قشتالة وحليفه العربي المسلم أمير غرناطة وسلطانها الغالب باللّه كما يصف نفسه، وطال الحصار واشتدت معاناة الإشبيليين حتى اضطروا للاستسلام سنة ٦٤٦هـ وفي الشهر الكريم، شهر رمضان المبارك سقطت إشبيلية الجميلة بعد سبعة

عشـــر شهرًا من الحصار القشتالي المدعوم بجيش غرناطة وقائده ابن الأحمر (الغالب بالله).

وعاد الغالب بالله بجيشه المنتصر شكليًا والمهزوم نفسيًا إلى غرناطة واستقبله شعبه، وهنـــا الألم أوجع، اســتقبله أهالي غرناطة وهـــم يهتفون الغالب الغالـــب الغالب، ولكن ابـــن الأحمـــر يدرك في قرارة نفســـه أنه في حال أســـوأ حتى من حال الإشبيلي المغلوب، فرد عليهم بانكسار: لا غالب إلا الله.

منـــذ ذاك صـــارت عبارتـــه هذه شـــعارًا لدولتـــه ومن ثم شـــعارًا للأندلســـيين حتى بعـــد أن اختفوا مـــن جغرافيـــا الأمم تمامًا ولـــم يتبـــق منهـــم الآن ســـوى شـــتات هنـــا وهناك وسوى تأريخهم يذكرنا بجمال ذاك الشـــعب العظيـــم وحضارته، ولكنـــه يذكرنا أيضًا ويوجعنـــا بتلك اللطخات المخزية وفي مقدمتهـــا شـــعار (لا غالـــب إلا الله)، نعـــم لا غالـــب إلا الله ولكنهـــا كلمـــة حق وجمال تخفـــي خلفها باطلًا وقباحـــة، عارًا وخيانة ما زلت تتناسل وتتكرر من يوم استقبال ابن الأحمر -وهو عائد من ســـقوط إشـــبيلية- من قِبل الغرناطيين، وقبل ذاك اليوم وحتى يومنا هـــذا، خيانات وغـــدر وعمالة، ورحم الله شاعرنا بدر شاكر السياب وهو يتساءل مندهشًا:

إني لأعجب كيف يمكن أن يخون الخائنون

أيخون إنسان بلاده؟

إن خـــان معنى أن يكـــون، فكيف يمكن أن يكون؟

وبعـــده قـــال نـــزار قباني وهـــو يتوجع من الخونة والعمـــلاء وينتصر لأطفال انتفاضة الحجـــارة الفلســـطينيين أواخـــر ثمانينـــات القرن العشرين:

آه يا جيل الخيانات

و يا جيل العمولات

و يا جيل الدعارةْ

سوف يجتاحك مهما أبطأ التأريخ أطفالُ الحجارةْ !

ونقـــول له: لـــم يزل التأريـــخُ بطيئًا، ولكن أطفال الحجارة يكبرون ويكبرون ويكبرون.

ونعـــود إلى غرناطـــة وإلـــى نقائش قصر الحمراء وأوجاعها، فإلى جانب شـــعار بني الأحمـــر (لا غالـــب إلا الله) تزدان الحمراء



بنقائش أخرى لمدائح الشعراء لسلاطينها وكأنما يريدون بتلك القصائد المدائح محو عار ولطخة حصار إشبيلية وسقوطها.

قصائد مطولات نقشت على جدران الحمراء وزينت أفاريزها كتبها شعراء عدة تزلفًا لسلاطين غرناطة وطمعًا بعطاياهم وجوائزهم لكن أغلبها -أو حصة الأسد منها- كانت لوزيرهم أديب السلطنة وشاعرها محمد بن يوسف بن زمرك، أشعار وقصائد ينظمها موضوع واحد وهو مدح السلطان، سلطان غرناطة طبعًا، وابن زمرك هذا التحق للعمل عند السلطان بمساعدة ورعاية تامة من أستاذه ابن الخطيب الوزير والمتنفذ في البلاط الغرناطي، وليس ابن زمرك وحده من وفر له ابن الخطيب المساعدة والرعاية فهناك ابن مالقا المدينة القريبة من غرناطة: القاضي علي بن عبد الله النباهي (أو البناهي على رأي الباحث المغربي محمد بنشريفة) ومعهما أحمد بن سليمان بن فركون، وقد تدرج الثلاثة بل ترقّوا بسرعة ونالوا حظوة عند السلطان بفضل ابن الخطيب وشغلوا وظائف عالية، لكنهم وخاصة ابن زمرك والنباهي كادوا لأستاذهم أيما كيد، وبغوا عليه أشد البغي، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ وكيف يسيء تلميذ إلى أستاذه ؟ هلا قرؤوا قصة ابن المقفع الأديب العراقي البصري البارع مع أستاذه عبد الحميد الكاتب وكان آخر كتّاب الأمويين، حين دخل الحرس العباسي يريدون عبد الحميد لقتله، فوجدوهما معًا ولم يتبينوا من هو المطلوب منهما فسألوهما: أيكم عبد الحميد الكاتب؟ وحالًا أجابا معًا بكلمة: أنا! كلاهما قال أنا عبد الحميد، قالها الأستاذ كي لا يقتل تلميذه، وقالها التلميذُ ليفتدي أستاذه!

ولكنها النفوس الضعاف المتدنيات وقبيح الفعائل، فقد جدّ القاضي النباهي المتفقه وأكثر منه الشاعر الأديب ابن زمرك، واجتهدا كل الجد والاجتهاد للإيقاع بسيدهما وأستاذهما، فكفره النباهي بمبررات واهية، وسعى ابن زمرك للقبض عليه مستغلًا حنق ابن الأحمر من لجوء ابن الخطيب للمغرب، وما أن تمكن سلطان غرناطة منه، حتى عبرا البحر طائرين فأُحضِرَ شيخهما أمامهما مستضعفًا مقيدًا وقد تجاوز الستين من عمره وحاكماه بتعجّل المتعطّش إلأى دم أستاذه والمحترق بنار أحقاده عليه، وتم كل ذاك بإشراف

شخصي مباشـر من تلميذه ابن زمرك من دون أدنـى خجـل أو حيـاء ولا ذرة رحمـة، وأودع ابن الخطيب السجن.

ولم يكتف ابن زمرك بذلك ولم يهدأ حتى أرسـل إليه من يخنقه في سـجنه، وهكذا تم دفنـه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولكـن ابن زمرك بقـي متقدًا بجمـرة حقـد أعمى ولـم يتوقـف عند هذا الانتقام، ولم يشفِ موت الرجلِ غليله، فأخرج جثمان ابن الخطيب وأحرقه مع كتبه!

وإذا كنـا اسـتغربنا مـن الفعـل المشـين لمحمد بن يوسـف بن هود وهو يترك قرطبة عاصمـة الأندلس تواجـه مصيرها ويذهب للمريـة قصـد أن يسـتمتع بجاريـة جميلة فكانـت نهايته بسـببها عادلـة إذ قُتل خنقًا قبـل أن ينـال وطره منهـا، وإذا اسـتنكرنا خيانة محمد بن يوسـف بن الأحمر مؤسس سـلطنة غرناطـة حـين شـارك بجيشـه -مضطرًا كما نتوقع- مع الجيش القشتالي في محاصرة إشبيلية سبعة عشر شهرًا حد القتل والتجويع حتى سـقطت بيد الإسبان، فإن العجب العجـاب هو مما فعله القاضي والمثقـف -بمصطلـح اليـوم- ابـن النباهي بمن أعانه وسـاعده، وبما اقترفه محمد بن يوسـف بن زمـرك وهو شـاعر لامع وأديب بارع بأسـتاذه مؤرخ الأندلس وأديبها الكبير ابـن الخطيب، وليّ نعمتـه وصاحب الفضل عليه، حتى بلغ به الحقد وانحدرت به شهوة الانتقام حد أن يخنقه ويحرق كتبه وجثمانه!

هكـذا وأنا أقرأ عبارة (لا غالب إلا اللّه) المنقوشـة على واجهة مسجد مار دل بيلاتا تذكرت محمد بن يوسـف ابن الأحمر وفعله المشين مع إشبيلية وشعبها، وأخذتني الذاكرة لأشعار محمد بن يوسف بن زمرك وجريمته الشنعاء مع أستاذه ابن الخطيب وكتبه التي طالما تعلم منه ومن أفكاره ومعارفه، وقادني هـذان الخائنـان إلى اسـتحضار سـميّهما محمد بن يوسف بن هود، نعم هكذا وجدت نفسـي أمام أولئك الثلاثة المسمين بمحمد بن يوسـف: ابـن الأحمر وابن زمـرك وابن هود، وقلتُ: نَعم لا غالب إلا اللّه، ونِعم باللّه مـن منتقـم جبار فقد نال ابـن هود جزاءه، وقضى ابن الأحمر جريحًا بسـيف غرناطي وهو في الثمانين مـن عمره، وكان جزاء ابن زمرك قاسيًا وعنيفًا ودمويًا كفعلته بأستاذه، فقـد غضب عليه سـلطان غرناطة ومزقته السـيوف وهـو يحمـل المصحف بـين يديه علهـم يرأفون به، بل وقتلـوا حتى من كانوا



معه ببيته عدا النسـاء المرعوبـات الثكالى، ولعـل محبـي ابـن الخطيـب حينهـا وعلى تعاقب الأجيال وحتى عصرنا هذا وما بعده على يقـين قاطع بـأن العدالـة الإلهية هي من اقتصـت من ابن زمرك وليس سـلطان غرناطة، ولا شك أنهم في يقينهم على حق.

تـرى هل كان مشـيّدوا مسـجد مار دل بيلاتـا يعرفـون ما وراء نقائش مسـجدهم من حكايات ؟

وهل سيتسـنى لمصليه أن يـروا يومًا ما أخفتـه العبـارة التي زينوا بهـا واجهته من ظـلال مظلمة بعيدة كل البعـد عن معناها وما تلطخت به حروفها من دماء؟

وهـل يعـرف السـياح المتزاحمـون على مشـاهدة الحمراء في غرناطة ما وراء تلك النقائش من غدر وخيانات؟

أنا واثق أنهم لم يعرفوا بعد، ولا أدري ما هي ردة فعلهم لو عرفوا، ولكنني أتوقع أنهم كحد أدنى سيعيدون صبغ واجهة مسجدهم -وربمـا حتـى جدرانه- بالأحمـر بدلًا عن الأبيـض والأزرق، تمامًـا كما هو حال قصر غرناطـة الشـهير، وسـيلعنون محمـد بـن يوسف الثلاثة، أولاد هود والأحمر وزمرك، وسيقرؤون سورة الفاتحة المنقوشة بالداخل ولو بعربية مكسـرة لروح ابن الخطيب ولكل شـهداء إشـبيلية والأندلس، ويقيمون -مع قلتهم على ساحل الأطلسي البعيد- الصلاة.

حقا لا غالب إلا الله بدءًا ودائمًا وأبدًا..

لا غالب إلا اللّه: هكذا تتحدثُ لنا وقائع التأريخ..

وهكذا تقولها واضحة بإشارتها: نقائشُ الحمراء.








في ذكرى سقوط الأندلس

محمد الصاوي[*]

في يوم ٢ يناير كانت ذكرى سقوط الدولة العظيمة، والفتاة المدللة، والمثال الذي تطلعت إليه العيون والأفئدة، حاضنة العلماء، وجامعة الأولياء، ومهوى العشاق والشعراء، وزينة مجالس الأمراء والأدباء: الأندلس (٩٢هـ - ٨٩٨هـ).

وهذه الذكرى ربما أحياها بعض الناس بذكر مآثر الأندلس، وشعرها وموشحها، ومذاهبها وعلومها وعلمائها، وبعض الناس يكتب عنها لاطمًا متحسرًا نادبًا حظها ومآلها، وكلاهما على حق فيما كتب وقال وفعل، فهي الأثيرة الحبيبة، وهي من أجمل الحاضرات، ومن أعز المفقودات.

ولكني مع ذلك أجد في هذه الذكرى شيئًا آخر غير هذين السابقين، ولي في إحيائها مذهب غير هذين المذهبين.

إن سقوط الأندلس لم يكن بين عشية وضحاها، بل قامت دول وسقطت دول، وجاءت سياسات وذهبت سياسات، وتوالى على الحكم فيها صالحون وطالحون، وكثر فيها الذهَب الخالِص حينًا والخَبَثُ حينًا، وكان العدو القريب متربص في كل هذا، منتظر فرصةً يستعيد فيها ملكه الضائع وبلاده المسلوبة، لم ينم عما يراه حقًّا له -وإن تناوم-، ولكن بعض أمراء الأندلس وملوكها ناموا وسكروا وغرقوا في سكرتهم حتى صَبَّحَهُم ما لم يعدّوا له عدته ولم يحسبوا حسابه.

(*) كاتب وباحث في الدراسات العربية والإسلامية، من مصر.

إن سـقوط الأندلس كان نهاية سلسلة طويلـة مـن الانتكاسـات والغفلـة علـى مسـتوى الحكام والمحكومـين، والخاصة والعامـة، والعلماء والعـوام. صاحبَ ذلك تيّقُـظٌ وتنبُّهٌ مـن العدو القريـب، يحيك الحيل، ويتربص الدوائر، وينتظر الفرصة الملائمة.

لم تُفتح الأندلس حين فُتِحت بملازمة الفِراش، وملاعبة الفَراش، وإنما فُتِحَتْ بـالـعـزم والمـثـابـرة، والجـد والاجـتـهـاد، والمغامرة والشجاعة، فتحول الحلم إلى حقيقة، وقامت الحضارة العريقة التي ما زلنا نتغنى بها فخرًا وتيهًا حينًا، ونرثيها وNندبها حينًا.

إن مـن حـق الأندلس علينـا، ومن حق الإسـلام علينـا، أن نعرف من أيـن نُؤتى، ومـن الذي يكيد لنا، وكيـف يكيد لنا، وأن يعيش الواحد منا هذه القضية ويموت بها، يموت وهو متشـبث بأصله الذي ما انفرط عقد دول الإسلام إلا بالتفريط فيه.

إن سـقوط الأندلس ليـس مجرد حدث تاريخـي مـر وانتهـى، بـل كل يوم تسـقط أندلس جديدة، كل يوم يُغَيَّبُ فيه المسلم عن الحق هو سقوطُ أندلس، وكل يوم يرتفع فيه سـفيه وينزل حليم هو سقوطُ أندلس، وكل يوم نعيشه بأخلاق فاسدة وأدب فاسد ودينٍ منتحَل وصفوةٍ فاسقة هو سقوطُ أندلس.

والواجب الآن أن ينحت كل واحد منا في الصخر مستجلبًا تلك الحقيقة التي يراد لها أن تختفـي، وأن يصـل إلى ذلك الكنز الذي أريـد له أن يظل مدفونًا، وألا نخضع لمناهج فاسـدة لوثت هـواء العلـم والأدب والثقافة والديـن بسـموم يسـمُّونها علمًـا (زعموا) ويسمونها تجديدًا (زعموا) ويسمونها تنويرًا (زعموا) ويسمونها حداثةً (زعموا).

ذكـرى سـقوط الأندلس عنـدي فرصة لبدء اسـتعادة الأندلـس وكل أندلس أخرى سقطت، وليسـت ذكرى للندب والعويل، أو التفاخـر والمباهاة المجردة عن كل معنى، إلا ما يريده الضعيف بقوله: (كان أبي وكان).



جولة عاشقٍ في الأندلس

محمد زياد الفناطسة(*)

لِمَ أشتاقُ إلى ذاك الزمن الذي ما عشتُه ولا حتى كنتُ قريبًا منه؟ إنَّها الأندلس، عاصمةُ العواصمِ، ومنارة العلم والمعرفة.

لمّا كانَ ذاك الزمان، كان التنوعُ الثقافي يجوب الأندلسَ من شرقها إلى غربها، كانتْ الأندلس محط أنظار العالم أجمع وقِبلة العالم في العلوم المتنوعة، فكان الغرب ينظرون إلى من يُجيد اللغةَ العربيّة أو من درَس في الأندلس نظرّة تقدير وتبجيل، كيف لا وهو قد تعلم على أيدي أشهر الفلاسفة والكُتّاب والمؤلفين في زمنه!

حين ننظرُ إلى المساقي، والقصورِ، والقناطر.. أهذهِ دولةٌ عربيّة أم جنّة من جنان الله في أرضه؟

أُعرّج قليلًا على قرطبة عاصمة الحضارة، فإشبيلية، فمالقة، ثم أمرّ بحيّ البيّازين في غرناطةَ الحمراء، تلك التي لها وقعٌ خاص في القلب. تنظرُ إلى الزقاقِ فتسرح بعيدًا عن هذا الزمن وتعود وكأنَّك داخل آلة الزمن إلى الخانات المُنتشرة في أرجاء قُرطبة، وتنظرُ إلى بعض المحال كيف كان هذا يعرض القماش، وذاك يصنع الخبز، هُنا كانت تسير الناس في هذه الزقاق وتتحدثُ إلى بعضها بعضًا بتلك اللهجة التي لم أسمعها يومًا، لكن لطالما ظننتها تُشبه المغربيّة والجزائرية لقرب الأندلس منهما.

حين تقرأ في تاريخ الأندلس، فإنك ستسرح في مخيلتك قليلًا عندما ذهب ذاكَ

(*) كاتب وباحث في التاريخ، من الأردن.



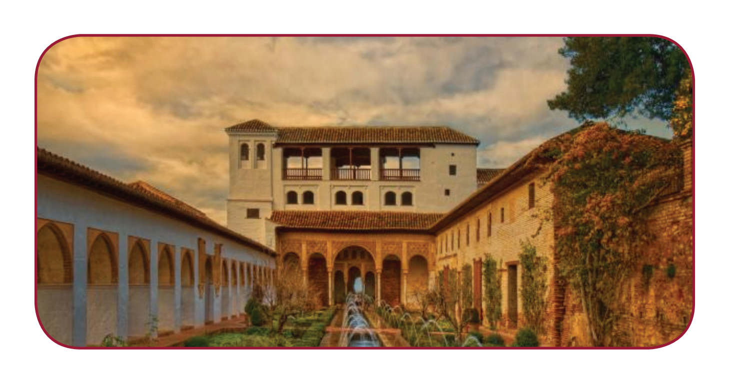
القائد العظيم «طارق بن زياد» بسبعة آلاف مقاتل ثم ألحقه «موسى بن نُصير» بخمسةِ آلاف فانتصر بهذا الجيش على جيشِ «لُذريق» الذي كان قِوامه مئة ألف مقاتل، كيف لا وقد كانت قلوبهم في ذاكَ الفتحِ معلَّقةٌ بربهم جلَّ في عُلاه!

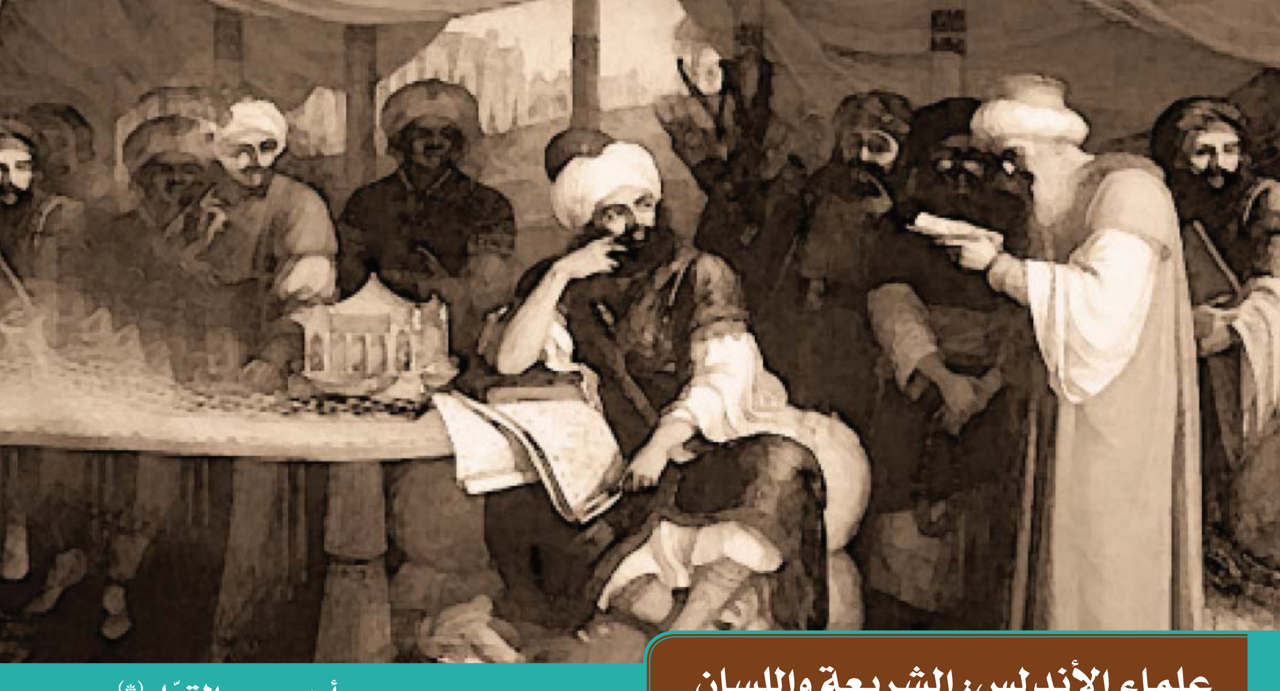
ثمَّ تُعرّج قليلًا على أزمنةٍ في الأندلس، فترى بعد ذلك التشتت والضياعِ حتى كاد ينتهي الإسلام بالكليَّة من بلاد الأندلس، فانطلق ذاكَ الصقر «عبد الرحمن الداخل» إلى الأندلسِ ليجمع شملها بعد الشتاتِ لتُصبح بعد ذلك أعظم دولة في أوروبا، فتصير الأندلس إلى حُقباتٍ زمنية تارةً تصعد إلى السماء وتارةً تنحدرُ إلى أسفلِ القاع، إلى أن جاءَ دور ملوك الطوائف فيها فأصبحت كالجُثة التي قُطِّعت وصارت أشلاء!

وحين فزَع لها القائد العظيم «يوسف بن تاشفين» وصدَّ عنها أذلَّة القوط وقتذاك، تاريخٌ حين تقرؤه لا تدري أتضحك أم تبكي على عزٍ ومجدٍ قد حبانا الله إياه وأضعناه بلمح البصر بعد أن وصلنا فيه إلى مكانةٍ ما وصلها أحدٌ قبلنا.

حتى نصل إلى قصة غرناطة وضياعِ الأندلسِ بعدها، في هذه المرحلة تشعر وكأنَّ الروح تُنزع من جسدكَ، وقلبُك ينفطر من المشهد الذي يحدث بعد تسليم غرناطة «لفرناندو» من تنكيلٍ للمسلمين، وإنشاء محاكم التفتيش التي ما تركتْ نوعًا من أنواع التعذيب إلا وأذاقته المسلمين!







علماء الأندلس: الشريعة واللسان

أ.د. عمر القيّام(*)

كنت أتعجب من ذلك الجمع النادر العجيب بين فهم الشريعة والبصر النافذ في علوم العربية الذي جزم به فخر المالكية الإمام أبو إسحاق الشاطبي (ت ٧٩٠ هجرية) رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين ذهب إلى إحكام الربط بين العِلمين، وله في ذلك العبارة المشهورة في كتابه العُجاب «الموافقات»: (الشريعة عربية، فلا يفهمها حق الفهم إلا مَن فهم العربية حق الفهم)، ثم وضّح هذا التلازم البديع بقوله: (فإذا فرضنا مبتدِئًا في فهم العربية فهو مبتدِئ في فهم الشريعة، أو متوسطًا فهو متوسط في فهم الشريعة، فإذا انتهى إلى درجة الغاية في فهم العربية، كان كذلك في الشريعة، فكان فهمه فيها حُجة كما كان فهم الصحابة وغيرهم من الفصحاء الذين فهموا القرآن حجةً). إلى آخر كلامه الذي انتهى فيه إلى أنّ بإمكان العالم أن يكون في مرتبة الخليل وسيبويه وغيرهما من أرباب اللسان.

وهذا الذي قاله الشاطبي ربما لم يسبقه إليه أحد، ولا سيّما في دائرة علماء أصول الفقه، ولعل ضخامة علوم الشاطبي في العربية، واتساع دائرته فيها كانت وراء هذا الرأي الذاتي، فقد كان الشاطبي -وعلى الرغم من تأخُّر زمانه- صاحبَ بصيرة فذة لا نظير لها في علوم اللسان، ولعل شرحه الضخم على «ألفية ابن مالك» الموسوم بـ: «المقاصد الشافية» أن يكون أوسع شروح الألفية، بل هو أوسعها جزمًا، ومَن نظر في هذا الشرح ودقق في مسائله، وتبصَّر في تفكير الشاطبي رأى ثقوب نظره ونفوذ بصيرته وقدرته على الاعتراض على المتقدمين:

(*) محقق وأديب وناقد وأكاديمي، من الأردن.



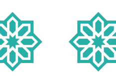
المبرّد فمَن بعدَه من أســاطين اللسان، وبَلورة رأيه العِلمي الخاص به.

وعلماء المغرب فيهم جرأة وجســارة وعمق في الســجال مع المشــارقة، وقد بَلوتُ ذلك في كلام إمــام العربيــة في الأندلس أبي الحســين بــن الطــراوة (٥٢٨ هجرية) الذي كان شــديد الاعتــراض على مدرســة أبي علي الفارســي، وله معــه محاققات ومناقشــات عميقة، وكذا فعَل تلميذه الإمام الســهيلي (ت ٥٨١ هجرية) لا ســيّما في كتابه الرصين البديع «نتائج الفكر في النحو» وفي مواطن تســتعصي على الحصر في كتابــه العظيــم «الــروض الأُنــف»، فجــرى الشاطبي على سَنَن أهل بلده، وصاوَل المشارقة وناطحهم في معتركات النحو ومضايق النظر.

وهذا الــذي دعا إليه الشــاطبي قد أصبح نســيًا منســيًا في أيامنا هذه، حيث نستمع إلى مَــن يحمــل درجة الأســتاذية في الفقه، ودرجة الابتدائية في العربية، فيأتي في كلامه بالعجيب الغريــب من الأخطاء، ولا يتأتّــى له فهم الفقه بحال من الأحوال، وهو داء وبيل قد استشــرى بين الخاصة والعامة ولا ســيّما مع تيسُّــر سبل الحديــث في العلــم كمنصــات اليوتيــوب التي ظهر عليها مَن يخلط الســمين بالغــث، ويرقّع الجديد بالرثّ، فانصبّ البلاء على علوم الفقه علــى وجــه الخصوص، وكــم أرثــي واللّه لهذا الفقــه الحنفي تحديدًا الذي قام على شــؤونه والتكلــم باســمه رجــالٌ أعاجــم لا يعرفون من علوم العربية مبادئ اللسان، فشوّهوا وجه هذا المذهــب النضيــر الــذي كان لا ينتمــي إليه إلا فحول اللسان ورجال العربية والبيان.

وتــاللّه ما رأيتُ فقيهًا نابغًا في الفقه وعلوم الشريعة من رجال عصرنا، إلا وكان من أصحاب القدم الراسخة في علوم العربية واللسان، ورحم اللّه فقيــه العصــر وأســتاذ الأســتاذين الفقيه العلامة الشيخ الدكتور مصطفى الزرقاء الذي افتتح حياته العلمية قبل ســبعة وتســعين عامًا بنشر كتاب «المذكر والمؤنث» لإمام الكوفيين أبي زكريا الفراء، ليكون ذلك مفتاحًا لا يخيب لفهم أســرار الشــريعة التي بلغ فيها مرتبة المجتهد بكل أصالة واقتدار.

هــذه نفثة مصــدور، كتبتهــا تفريجًا عما يمور في الصدر من الأســف على ما آلت إليه علوم الشريعة من السطحية والترهُّل، بسبب الاســتخفاف بعلوم العربية التي هي بحســب عبارة شــيخ المفســرين ابن عطية الأندلسي: (أسُّ الشريعة وقاعدتها).






مختصَر السِّيرَة الحَزميَّة

عمر ماجد السنوي(*)

ابـنُ حزمٍ الأندَلسـيّ، ذاك الرجل الذي لا يُمكـن أن يُغفَـل ذِكرُه وقد حلَّ ذِكـر الأندَلس وتاريـخ الأندَلس وأعلام الأندَلس... ابنُ حزمٍ الأندَلسـيّ ذاك الرجـل المَوسـوعيّ الذي كان أمّـةً بذاتـه، والـذي دار حوله الجـدل وطال، وتنوّعت عنه الدراسات، حتى استغرقت شتّى المَجالات: الأدبية واللغوية والفكرية والفلسفية والمنطقيـة والطبيعية والاجتماعية والتاريخية والفقهية والأصولية والحديثيـة والقرآنية... فـكان محلّ تسـليط الأضـواء، واتجهت إليه أنظار طلبـة العلم والباحثـين، واحتاج الناس إلى تعريفٍ شامل به، يشمل نواحيه الشخصية والعلميـة والاجتماعيـة... فلأجل ذلك جاءت هذه السيرة المختصرة تذكيرًا وتقديرًا:

١ التعريف بابن حزم الأندلسي:

هُـوَ (أَبُو مُحَمّد) عَلِيُّ بنُ أَحْمَدَ بْنِ سَـعِيْدِ بْنِ حَزْمِ بْنِ غَالِبِ بْنِ صَالِحِ بْنِ خَلَفِ بْنِ مَعْدَانَ بْنِ سُـفْيَانَ بْـنِ يَزِيد، الفَارِسِـيُّ الأَصْـل، ثُمّ الأَنْدَلُسِـيُّ القُرْطُبِيُّ مولدًا ونشأةً، الظّاهِرِيّ منهجًا، الْيَزِيـدِيُّ ولاءً؛ فَكَانَ جَدُّهُ يَزِيدُ مَوْلًى لِلصَّحابِيّ يَزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ -أَخِي مُعَاوِيَةَ، رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا-، وَكَانَ جَـدُّهُ خَلَفُ بْنُ مَعْدَانَ هُوَ أَوَّلَ مَـنْ دَخَلَ الْأَنْدَلُـسَ فِي صَحَابَةِ مَلِكِ الْأَنْدَلُسِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّاخِلِ(١).

وُلِـدَ أَبُـو مُحَمّـدٍ بقُرطبة سَـنَةَ ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م، وعـاشَ فِي الأَنْدَلُـسِ. ونَشَـأَ فِي تَنَعُّمٍ وَرَفَاهِيَـةٍ، وَرُزِقَ ذَكَاءً مُفْرطًـا، وَذِهْنًا سَـيَّالًا،

(*) محقق وباحث في اللغة العربية وآدابها، من العراق.

(١) يُنظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، (١٨/١٨٤-١٨٥).

وَكُتُبًا نَفِيسَةً كَثِيرَةً، وَكَانَ وَالِدُهُ مِنْ كُبَرَاءِ أَهْلِ قُرْطُبَةَ؛ عَمِلَ الْوِزَارَةَ فِي الدَّوْلَةِ الْعَامِرِيَّةِ الَّتِي حَكَمَتِ الأَنْدَلُسَ بِاسْمِ الْخَلِيفَةِ الأُمَوِيِّ «هشام المؤيد»، وَكَذَلِكَ وَزَرَ أَبُو مُحَمَّدٍ فِي شَبِيبَتِهِ، وَكَانَ قَدْ مَهَرَ أَوَّلًا فِي الأَدَبِ وَالأَخْبَارِ وَالشِّعْرِ، وَفِي الْمَنْطِقِ وَأَجْزَاءِ الْفَلْسَفَةِ[1].

وقد هيّأ اللهُ لهُ نساءً فُضْلَيَاتٍ في القصر قُمْنَ على تربيتِهِ وتعليمِهِ -كما روى هو عن نفسه-، فحفظَ القرآن على أيديهنَّ[2].

وقد كانَ زوالُ الدولة العامرية (الأموية) واستيلاء البربر على قرطبة عام ٤٠٠هـ وتعاقُب الفتن فيها (مع بدء ما يسمى بملوك الطوائف)، كل ذلك أدّى إلى إلحاقِ أذًى كبيرٍ بأسرة ابن حزم. ومما زاد الأمر سوءًا على ابن حزم: وفاة أخيه الأكبر بالطاعون عام ٤٠١هـ، ثم وفاة أبيه عام ٤٠٢هـ، ثمّ زوجتُهُ «نِعَم» التي فُجع بموتها ابن حزم وكتبَ فيها مراثيه. كل ذلك ولم يبلغ العشرين من عمره حينها؛ وهذه الظروف جعلت ابن حزم يتحمل مسؤولية أسرته، وقد اضطُّر -شأن كثير من الأسر القرطبية- أن ينزح إلى «المرية» عام ٤٠٤هـ. وكتب يصفُ حالَه: «ما انتفعتُ بعيشٍ، ولا فارقني الإطراق والانغلاق مذ ذقت طعم فراق الأحبة... ولقد نغّص تذكّري ما مضى كلَّ عيشٍ أستأنفه. وإنّي لقتيل الهموم في عداد الأحياء، ودفين الأسى بين أهل الدنيا»[3].

وبعدَ عمّر ناهز اثنتين وسبعين عامًا توفي ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حيث وافته المنية وهو مُبعَد إلى بادية «لبلة» في الأندلس، عشيّة يوم الأحد لليلتين بقيتا من شعبان، سنة (٤٥٦هـ)[4].

وفي رثائه لنفسه قال[5]:

كأنكَ بالزوار لي قد تبادروا
وقيل لهم أودَى عليُّ بنُ أحمدِ

فيا رُب محزون هناك وضاحكٍ
وكم أدمعٍ تذرى وخدّ مخدّدِ

عفا الله عني يوم أرحل ظاعنًا
عن الأهل محمولًا إلى ضِيق ملحدِ

وأترك ما قد كنت مغتبطًا بهِ
وألقى الذي آنست منه بمرصدِ

فوا راحتي إن كان زادي مقدمًا
ويا نصَبي إن كنتُ لم أتزودِ

(١) يُنظَر: السابق، (١٨/١٨٥-١٨٧).

(٢) يُنظَر: ابن حزم: رسائل ابن حزم الأندلسي. (١/١٦٦).

(٣) ابن حزم: رسائل ابن حزم الأندلسي. (١/١٢٥). ويُنظر: الزعبي: ظاهرية ابن حزم الأندلسي. (ص٢٩).

(٤) يُنظَر: ابن بشكوال: الصلة في تاريخ أئمة الأندلس. (ص٣٩٦).

(٥) ابن حزم: ديوان ابن حزم الأندلسي. (ص٩٦).

٢ عِلْميّة ابن حزم، ومؤلفاته:

اتسمت علمية ابن حزم بأنها موسوعية، فلا تجد فنًا إلا وقد طرقه وبرع فيه، وسيتبين ذلك من خلال كلام العلماء والمؤرخين عنه، ومن خلال كتبه التي تركها عقب حياةٍ مليئة بالعلم والفكر والعمل، تزيد عن السبعين عامًا.. بعد أن نعرض سريعًا إلى طلبه العلم وشيوخه.

طلب ابن حزم العلمَ:

كان ابن حزم في أول عمره قد عاش في القصر، وكانت النساء والجواري يلقّنّه ويؤدّبنه، وقد حفظ عليهنّ القرآن، وتلقّى الشعر، وتعلّم الخطّ. كما تعلّم من جدّه أيضًا. وكان والده أستاذًا له في الأدب والفقه والتاريخ بخاصة إذ كانت له اليد الطولى والتأثير القوي في تشكيل ثقافة ابنه التاريخية حيث كان يحدثه بالأحداث التاريخية المهمة بحكم شخصه ومكانته في الدولة، كما لعب دورًا في غرس معالم الزهد والصبر في قلبه من خلال موعظته إياه. وصحِب ابن حزم في أول طلبه أبا الحسن بن علي الفاسي ويصفه بأنه كان عاقلًا عاملًا عالمًا ممن تقدّم في الصلاح والنسك الصحيح في الزهد في الدنيا.

وأما شيوخه فكُثر، فقد وصلت إحصائية مشايخه في بعض المراجع إلى ستين شيخًا في التخصصات المتنوعة، من أشهرهم: أحمد بن محمد بن سعيد بن الجسور القرطبي (٣٢٠-٤٠١هـ) أول شيخ سمع منه ابن حزم قبل سنة ٤٠٠هـ كان شيخًا له في الفقه والحديث والتاريخ. ومسعود بن سليمان الشنتريني المعروف بأبي الخيار (ت ٤٢٦هـ) كان شيخًا له في الفقه والحديث وعلومه وعنه أخذ الفكر الظاهري والدعوة إلى الاجتهاد ونبذ التقليد[١].

أقوال العلماء والمؤرخين في ابن حزم الأندلسي:

قال تلميذه أبو القاسم صاعد بن أحمد الأندلسي: كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام وأوسعهم، مع توسعه في علم اللسان والبلاغة والشعر والسير والأخبار، أخبرني ابنه الفضل أنه اجتمع عنده بخط أبيه من تآليفه نحو أربعمئة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة[٢].

وقال تلميذه الآخَر الحافظ الحميدي الميورقي: كان حافظًا عالمًا بعلوم الحديث

(١) يُنظر -على سبيل المثال-: إحسان عباس: أخبار وتراجم أندلسية، (ص٥٢).

(٢) نقلاً عن الذهبي: سير أعلام النبلاء، (١٨/١٨٧).



وفقهه مستنبطًا للأحكام من الكتاب والسنة متفننًا في علوم جمة، عاملًا بعلمه زاهدًا في الدنيا بعد الرئاسة التي كانت له ولأبيه مِن قَبله في الوزارة وتدبير الممالك، متواضعًا ذا فضائل جمة وتواليف كثيرة في كل ما تحقق به من العلوم، وجمع من الكتب في علم الحديث والمصنفات والمسندات شيئًا كثيرًا وسمع سماعًا جمًا... وما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ وكرم النفس والتديّن(١).

وقال أبو حامد الغزالي: وجدت في أسماء اللّه الحسنى كتابًا لأبي محمد بن حزم يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه(٢).

وقال ابن بشكوال: كان أبو محمد أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار أخبر ولده أبو رافع الفضل أنه اجتمع عنده بخط أبيه من تأليفه نحو أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة(٣).

(١) الحميدي: جذوة المقتبس، (ترجمة ابن حزم).

(٢) نقلاً عن الذهبي: سير أعلام النبلاء، (١٨/١٨٧).

(٣) ابن بشكوال: الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، (ص٣٩٥).

وقال عبد الواحد المراكشي: نَبَذَ الوزارة واطّرحها اختيارًا، وأقبلَ على قراءة العلوم وتقييد الآثار والسنن، فنال من ذلك ما لم ينل أحد قبله بالأندلس، وكان على مذهب الإمام أبي عبد اللّه الشافعي أقام على ذلك زمانًا ثم انتقل إلى القول بالظاهر وأفرط في ذلك حتى أربى على أبي سليمان داود الظاهري وغيره من أهل الظاهر، وله مصنفات كثيرة جليلة القدر شريفة المقصد في أصول الفقه وفروعه على مهيعه الذي يسلكه ومذهبه الذي يتقلده وهو مذهب داود بن علي بن خلف الأصبهاني الظاهري ومن قال بقوله من أهل الظاهر ونفاة القياس والتعليل، بلغني عن غير واحد من علماء الأندلس أن مبلغ تصانيفه في الفقه والحديث والأصول والنحل والملل وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الأدب والرد على المخالفين له نحو من أربعمئة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة وهذا شيء ما علمناه لأحد ممن كان في مدة الإسلام قبله إلا لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري فإنه أكثر أهل الإسلام تصنيفًا فقد ذكر أبو محمد عبد اللّه بن محمد بن جعفر الفرغاني في كتابه المعروف

بالصلة وهو الذي وصل به تاريخ أبي جعفر الطبري الكبير أن قومًا من تلاميذ أبي جعفر لخّصوا أيام حياته منذ بلغ الحلم إلى أن توفي في سنة ٣١٠ وهو ابن ست وثمانين سنة ثم قسموا عليها أوراق مصنفاته فصار لكل يوم أربع عشرة ورقة وهذا لا يتهيأ لمخلوق إلا بكريم عناية الباري تعالى وحسن تأييده له، ولأبي محمد بن حزم بعد هذا نصيب وافر من علم النحو واللغة وقسم صالح من قرض الشعر وصناعة الخطابة... وإنما أوردت هذه النبذة من أخبار هذا الرجل وإن كانت قاطعة للنسق مزيحة عن بعض الغرض لأنه أشهر علماء الأندلس اليوم وأكثرهم ذكرًا في مجالس الرؤساء وعلى ألسنة العلماء وذلك لمخالفته مذهب مالك بالمغرب واستبداده بعلم الظاهر ولم يشتهر به قبله عندنا أحد ممن علمت وقد كثر أهل مذهبه وأتباعه عندنا بالأندلس اليوم[١].

وقال العز بن عبد السلام: ما رأيت في كتب الإسلام في العلم مثل «المحلى» لابن حزم و«المغني» لابن قدامة[٢].

(١) المراكشي: المعجب، (ص٤٦- ٤٩).

(٢) نقلاً عن الذهبي: سير أعلام النبلاء، (١٨/١٨٧).

وقال عنه ابن خلكان: كان حافظًا عالمًا بعلوم الحديث مستنبطًا للأحكام من الكتاب والسنة بعد أن كان شافعي المذهب فانتقل إلى مذهب أهل الظاهر وكان متفننًا في علوم جمة عاملًا بعلمه زاهدًا في الدنيا بعد الرياسة التي كانت له ولأبيه مِن قَبله في الوزارة وتدبير الملك متواضعًا ذا فضائل وتآليف كثيرة، وجمع من الكتب في علم الحديث والمصنفات والمسندات شيئًا كثيرًا، وسمع سماعًا جمًا، وألف في فقه الحديث كتابًا سماه كتاب الإيصال إلى الفهم، وكتاب الخصال الجامعة نحل شرائع الإسلام في الواجب والحلال والحرام والسنة والإجماع أورد فيه أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة المسلمين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين، وله كتاب في مراتب العلوم وكيفية طلبها وتعلق بعضها ببعض، وكتاب إظهار تبديل اليهود والنصارى التوراة والإنجيل وبيان ناقص ما بأيديهم من ذلك مما لا يحتمل التأويل وهذا معنى لم يسبق إليه، وكتاب التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية، إلى غير ذلك مما لا يحصى كثرة، وكان له كتاب صغير سماه نقط العروس جمع فيه كل غريبة ونادرة[٣].

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، (٣/٣٢٥-٣٣٠).

وقال عنه الذهبي: الإمام الأوحد، البحر، ذو الفنون والمعارف أبو محمد، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم(١).

وقال ابن مفلح: كان إليه المنتهى في الذكاء والحفظ وكثرة العلم وكان متفننًا في علوم جمة وله التصانيف الفاخرة في علوم شتى حتى في المنطق، وشرح المحلى في اثني عشر مجلدًا، ومن طالع كتابه هذا وجد فيه تأدبه مع الإمام أحمد ومتابعته(٢).

وقال ابن كثير: قرأ القرآن واشتغل بالعلوم النافعة الشرعية وبرز فيها وفاق أهل زمانه وصنف الكتب المشهورة يقال إنه صنف أربعمئة مجلد في قريب من ثمانين ألف ورقة وكان أديبًا طبيبًا شاعرًا فصيحًا له في الطب والمنطق كتب وكان من بيت وزارة ورياسة ووجاهة ومال وثروة(٣).

وقال عنه الفيروزابادي: إمامٌ في الفنون، وزرَ هو بعد أبيه للمظفر، وترك الوزارة وأقبل على التصنيف ونشر العلم...(٤).

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، (١٨/١٨٧).

(٢) ابن مفلح: المقصد الأرشد، (٢/٢١٤،٢١٣).

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، (١٢/١١٣).

(٤) الفيروزابادي: البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، (ص١٤٦).

وقال جلال الدين السيوطي: كان صاحب فنون وورع وزهد وإليه المنتهى في الذكاء والحفظ وسعة الدائرة في العلوم، أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام وأوسعهم مع توسعه في علوم اللسان والبلاغة والشعر والسير والأخبار(٥).

وقال ابن العماد الحنبلي: كان إليه المنتهى في الذكاء وحدة الذهن وسعة العلم بالكتاب والسنة والمذاهب والملل والنحل والعربية والآداب والمنطق والشعر مع الصدق والديانة والحشمة والسؤدد والرياسة والثروة وكثرة الكتب(٦).

مؤلفات ابن حزم:

أما مؤلفاته؛ فكما أشار مترجموه أنها كثيرة، وبعضها فُقد، وبعضها مخطوط لم يطبع بعد، وهذه قائمةٌ ببعضها -مما ذكره الفيروزابادي في تتمة كلامه الآنف-(٧):

ومن تصانيفه كتاب «التقريب في بيان حدود الكلام وكيفية إقامة البرهان» في كل ما يحتاج إليه منه وتمييزه مما يظن

(٥) السيوطي: طبقات الحفاظ، (ص٤٣٦،٤٣٥).

(٦) ابن العماد الحنبلي: شذرات من الذهب، (٣/٢٩٩).

(٧) الفيروزابادي: البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، (ص١٤٧).

أنه برهـان وليس برهـانـا، وكتاب «الأخلاق والسـير» صغير وكتـاب «الفصل بين النحل والملـل» وكتـاب «الدرة في الاعتقـاد» صغير ورسالة «التوفيق على شارع النجاة باختصار الطريـق» وكتـاب «التحقيـق في نقض كلام الـرازي» وكتـاب «التزهيـد في بعـض كتاب الفريد» وكتاب «اليقين في النقض على عطاف في كتابه عمدة الأبرار» وكتاب «النقض على عبـد الحق الصقلـي» وكتاب «زجـر العاوي وإخسـائه ودحر الغـاوي وإخزائـه» وكتاب «روايـة أبـان يزيـد العطار عـن عاصم» في القـراءات وكتـاب «الـرد علـى من قـال إن ترتيب السـور ليس من عند الله بل هو فعل الصحابة» وكتاب «الإحكام لأصول الأحكام» وكتـاب «النبـذ في الأصول» وكتـاب «النكت الموجـزة في إبطال القياس والتعليل والرأي» وكتاب «النقض على أبي العباس بن سـريج» وكتـاب «الرد على المالكية» في الموطأ خاصة وكتاب «الرد على الطحاوي في الاستحسان» وكتـاب «صلـة الدامـع الـذي ابتـدأه أبـو الحسـن بـن المفلـس» وكتـاب «الخصال في المسـائل المجردة وصلتـه في الفتوح والتاريخ والسـير» وكتـاب «الاتصال في شـرح كتاب الخصـال» نحـو أربعـة آلاف ورقـة وكتاب «المحلى» و«شـرحه» وكتاب «المعلى في شـرح المحلـى» بإيجاز وكتاب «حجة الوداع» صغير ورسـالة في التلخيص في تلخيـص الأعمال وكتـاب «مراتـب العلمـاء» وكتـاب «مراتب التواليـف» و«اختصار كتـاب العلل» للباجي و«التاريخ الصغير» في أخبار الأندلس وكتاب «الجماهير» في النسـب ورسـالة في النفس ورسالة في النقس ورسالة في الطب ورسالة في النساء ورسالة في الغناء وكتاب «الإعراب عـن كشـف الالتبـاس الموجـود في مذاهب أصحـاب الرأي والقيـاس» وكتاب «القواعد في المسـائل المجردة» علـى طريقة أصحاب الظاهر نحو ثلاثة آلاف ورقة وكتاب «تأليف الأخبـار المأثـورة عـن رسـول الله ﷺ التي ظاهرها التعارض» ونفي التناقض عنها نحو عشرة آلاف ورقة ورسالة الاستحالات وكتاب في الألوان ورسالة في الروح والنفس ورسالة في مراعـاة أحوال الإمام ورسـالة في فضل الأندلس وذكـر علمائها وتواليفهم ورسـالة الكشف عن حقيقة البلاغة وحين الاستعادة في النظـم والنثـر وكتاب «غلـط أبي عمرو المقرئ في كتابه المسـند والمرسل» وكتاب في العروض صغير وكتاب «طوق الحمامة» نحو ثلاثمئة ورقة عارض كتاب الزهرة لأبي بكر

بن داود وكتاب «دعوة الملل في أبيات المثل» فيه أربعون ألف بيت وكتاب «التعقيب على ابن الإفليلي» في شرح شعر المتنبي وكتاب في الوعد والوعيد ورسالة «الإيمان» وكتاب «الإجماع».

ومن ثمّ يظهر جليًا: أنه رجل موسوعيٌّ؛ فهو فقيه محدّث أصولي مؤرّخ فيلسوف لغوي أديب طبيب.

٣ إضاءة على فكر ابن حزم:

خاض الناس فيما سمّوه (مذهب ابن حزم الفقهي) وهو (الظاهرية)، والحقيقة أنّ الظاهرية هي منهج فكري لدى أهل الظاهر الأصَلاء، وهذا ما أشار إليه محقق كتاب «طوق الحمامة» عبد الحق التركماني حيث قال[١]: (يمكنني أن أزعم -في ضوء قراءاتي ودراساتي للمذهب الظَّاهري- أن الظاهرية ليست مذهبًا فقهيًا حسب، بل هي طريقة في التفكير، قد ارتضاها أصحابها لأنفسهم، لا لجمودهم وحَرْفيتهم، ولا لضيق نظرهم وتفكيرهم، وإنما لبراهين عقلية تقرَّرت عندهم، وترجَّحت لديهم، بشواهد من الكتاب والسنة! فالظاهرية تخفي وراءها نزعة عقلية، يمكن رصد بعض أبعادها من خلال ملاحظة عوامل التكوين الفكرية والعلمية لأئمتها، ودراسةِ تراثها المتميز بالأصالة والتنوع والإبداع).

ويصرّح باحث آخر فيقول: (ولا بد لي من الجرأة هنا لأقول: إن فكر ابن حزم قد تعرّض لسوء فهم وقصور إحاطة من غالبية مَن عالجوه قديمًا وحديثًا، بسببٍ من نكهته اللامألوفة اللاذعة، ولأن جهده العظيم لم يتوفر جهدٌ يوازيه ويواكبه ليمكّن الإحاطة بما فيه من أصالة وعمق وشمول)[٢].

وقبلهما قال العلامة الشوكاني -في ترجمة أبي حيان صاحب التفسير-: (وكان ظاهريًا ... قال ابن حجر «كان أبو حيان يقول: محال أن يرجع عن مذهب الظاهر من علق بذهنه» انتهى. ولقد صدق في مقاله، فمذهب الظاهر هو أول الفكر وآخر العمل عند من مُنح الإنصاف ولم يَرد على فطرته ما يغيّرها عن أصلها، وليس هو مذهب داوود الظاهري وأتباعه، بل هو مذهب أكابر العلماء المتقيّدين بنصوص الشرع من عصر الصحابة إلى الآن، وداوود الظاهري واحدٌ منهم...)[٣].

---

(١) في مقدمته عليه، (ص٣٩).

(٢) الزعبي: ظاهرية ابن حزم الأندلسي، (ص٩).

(٣) الشوكاني: البدر الطالع، (٢/ ٢٨١).

٤ ملامح شخصية ابن حزم:

أوّل وَصفٍ لابن حزم يخطر على بال جمهور القرّاء، أنه ذو شخصية عنيفة، وهذا الوصف يرجع إلى ما زعمه ابن العريف الأندلسي (المتوفى ٥٢٦هـ)، إذ قال: كان لسان علي بن حزم وسيف الحجاج شقيقين[١]. يعني بذلك كثرة وقوعه في العلماء، كما قد عُرف من صنيع الحجاج بهم وسفكه دماءَهم. وهذا تصريحٌ جليٌّ بعنف شخصية ابن حزم، حيث قُرن لسانه بسيف الحجاج.

والحق أنه لم يكن كذلك، ولم يكن وقّاعًا في العلماء والأئمة، وإنما هي من تُهم الخصوم، فمن راجع كتبه لم يجد ذلك، والبيّنة على من ادّعى، إنما شأنه في الردود مع الأقوال لا مع أصحابها، فكان يصف القول الباطل في نظره بأوصاف تبيّن شناعته، وقلّ أن يذكر أحدًا باسمه -طعنًا- إلا بعض رؤوس أصحاب البدع، لا سيما خصومه من أهل الجهالة في زمانه.

وقد عُرف عنه أنه مبجّل للعلماء والأئمة كما أنه كتب رسالة مفردة في ذلك تُدعَى «الرسالة الباهرة» فقد سرَد فيها عددًا من أسماء الأئمة والحفاظ والعلماء منذ عهد التابعين إلى قُبَيل عصره، وأثنى عليهم ثناءً بالغًا. بل أفرَدَ في كتابه «الإحكام في أصول الأحاكم» فصلًا سمّاه: (فصلٌ فيهِ بيانُ سبب الاختلاف الواقع بين الأئمة في صدر هذه الأمة)، بحيث أبانَ فيه عن عذر العلماء فيما خالفوا فيه النص؛ ومادّةُ هذا الفصل هي الأساس الذي بَنَى عليه أبو العباس ابن تيمية كتابَه: (رفع الملام عن الأئمة الأعلام).

ومع ذلك لا يُنكَر أنّ لهجة ابن حزم في الردّ على خصومه من أهل الجهل والتقليد كانت شديدة في مواضع عديدة، ولذلك أسباب وعوامل، منها العامل الاجتماعي والسياسي وما توالد منهما من عنف وطول لسان في ذلك الزمان.

والصواب الذي يجب أن يُقال في هذا الموضع أنّ ابن حزم كان حازمًا شديدًا في الحق الذي يعتقده، لا يداهن فيه ولا يواري ولا يداري، وكان صلبًا في استقلاله الفكري وتحرره المعنوي، معتدًّا بنفسه لا يرى مسوغًا لطاعة أحد سوى نفسهِ بما فهِمَه عن كتاب الله وسنّة رسول الله بالطرق العلمية الثابتة اليقينية.

(١) رواها ابن خلكان في: وفيات الأعيان، (٣/٣٢٨).



ولذلك لا يُعوَّل على كتب التراجم التي غمطت ابن حزم حقه في هذه القضيّة، وأساءت إليه بالفِرية العَريّة، فاجترؤوا عليه بكلامٍ بَنوه على قول ابن العريف المذكور آنفًا، فزعَم بعضُهم أنّ اللّه جازاه على إساءته للعلماء بأنْ أساءَ الناسُ إليه وأحرقوا كتبه، وقضية الإحراق فرية أخرى، هي وإن حدَثت في وقتٍ ما في زمنه بسبب نزاعات سياسية، إلا أنها لم تشمل جميع كتبه ولم تكن بسبب مذهبه ولا بسبب ردوده العلمية، بل إنّ الأندلس عمومًا بعد وفاته بوقتٍ قريب انتشر فيها فِكر الظاهرية وسادَ، وضُيِّق على أهل التقليد، وحُرِّقت كتبُهم، وعُظِّمَت كُتب ابن حزم، وأُعلي شأنه، وما زال كذلك في عيون المنصفين من أهل العلم حتى زماننا هذا. فما كان ينبغي لبعض المؤرخين -كالذهبي وغيره- أن ينزلقوا منزلَق عدم الإنصاف في حق ابن حزم، فيعتمدوا على أقوالٍ قيلت فيه دون تمحيصٍ ولا نظرٍ دقيق، في الوقت الذي يجب أن يكونوا هم مظنة الإنصاف لأنّهم من المفترَض أنهم أعلم من غيرهم بحوادث التاريخ وبأحوال الرجال!!

وأما ما جاء في كتاب «طوق الحمامة» -الذي سجّل فيه ابن حزم كثيرًا من حوادث حياته- قوله: «فأنتَ تعلم أن ذهني متقلب وبالي مهصر، بما نحن فيه من نبو الديار والخلاء عن الأوطان، وتغير الزمان ونكبات لسلطان...». فهذا تابعٌ لقضيةٍ سابقة في التأثير على المزاج، وهذا لا يعني أن ذلك صار طبعًا له، ولا يعني أن كُتبَه كُتبت بذهن متقلّب! كيف وهو من أبرَز الأعلام الناظرين في كُتبهم والمدققين فيها والستدركين على أنفسهم، ولو كان غير ذلك لرأينا اختلافًا كثيرًا وتناقضًا كبيرًا.

وربما استشهد البعضُ على عنفه بعلته التي شكا منها، والتي أصابته في طحاله، كما قال في رسالته «مداواة النفوس»: «لقد أصابتني علة شديدة، ولّدت فيّ ربوًا في الطحال شديدًا، فولّد ذلك عليّ من الضجر، وضيق الخُلق، وقلة الصبر، والنزق، أمرًا هاشت نفسي فيه، وأنكرتُ تبدّل خُلقي، واشتدّ عجَبي من مفارقتي لطبعي، وصحّ عندي أن الطحال موضع الفرَح، وإذا فسد تولّد ضده». فهذا لا يدل على ما زعموا، بل يدل على عكسه تمامًا، فقد قال (اشتدّ عجَبي من مفارقتي لطبعي)، فطبعه

بخلاف ذلك، فبانَ أنها علة طارئة، وهي وإن كانت مؤثرة في وقتٍ ما، إلا أنها لا تؤثر على تراث ابن حزم الذي كان يدرِّس كتبَه وتُقرَأ عليه ويُعيد النظر فيها.

ومما يؤكَّد عليه في هذا الصدد: الرسالتان المذكورتان آنفًا «طوق الحمامة» و«مداواة النفوس»، فمَن تأمَّلهما ظهَرت له ملامح كثيرة من شخصية ابن حزم الأندلسي. ولذلك قال عبدالحق التركماني[١]: (أستطيع الزعم بأنَّ هذا الكتاب كما هو كتاب حبٍّ، فهو -أيضًا- كتاب سيرة وذكريات واعترافات شخصية، وهو -أيضًا- كتاب أخلاق وقيم. لهذا تجدني أكرر ما ذكرته في مقدمة كتابه الآخر: «الأخلاق والسير» من أنَّه يمكن استخراج كثير من الفوائد منه، خاصَّة فيما يتعلَّق بشخصية ابن حزم وحبِّه للحق والعدل والصِّدق، وبغضه الشديد للباطل والظُّلم والكذب).

وقال أيضًا[٢]: (وقد اتصف ابن حزم بخصلتين جُبل عليهما، هما الوفاء وعزة النفس، وكل واحدة من هاتين السَّجيَّتين تدعو لنفسها، فالوفاء يدعو إلى الثبات وعدم التلون والنسيان، وعزة النفس لا تقرُّ الضيم، وتهتم بأقل ما يرد عليها من تغير المعارف، فتدعو -بطبيعة الحال- إلى الهجر والنسيان...).

هذا، وقد اجتمعت في ابن حزم مواهب وسجايا وأخلاق مميزة، من أهمها: تميزه بحافظة قوية مستوعبة، وبديهة سريعة حاضرة تسعفه بالمعلومات الشاردة في وقت الحاجة إليها، وقوة ملاحظة، وقدرة استدلالية هائلة، وكان هذا كافيًا لأن يكون راويةً أمينًا، ومحققًا نزيهًا، ومؤرخًا واسع الأفق. وكذلك أوتي من الصفات عمقًا في التفكير وغوصًا على الحقائق، وحدّة في الذكاء، فهو لا يكتفي بالاستقراء والإحصاء، حتى يعرف كل مسألة ليعرف أسرارها، ولا يكتفي بمعرفة الوقائع حتى يعرف بواعثها والدافع إليها. ومن صفاته انصرافه كليًا منذ صباه إلى طلب العلم وتحصيله، ولذلك جد فيه وصبر في طلبه، وهو فوق ذلك سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، فجعل همه طلب العلم والتقرب إلى الله ببيان الحق والنطق به. وقد وهبه الله عَزَّوَجَلَّ صفة الإخلاص، ولذلك كان لفرط

---

(١) كما في مقدمة تحقيقه لكتاب ابن حزم: طوق الحمامة، (ص٥٧).

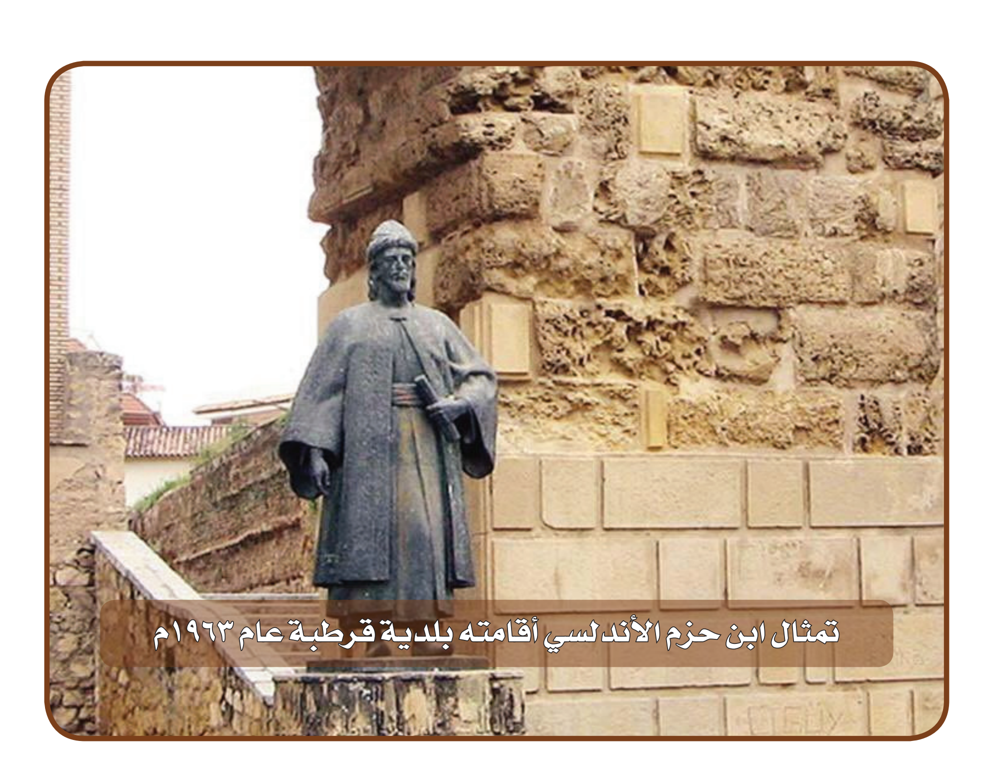
(٢) السابق، (ص٥٩).

إخلاصه يباعد بين نفسه وبين العجب بها والاغترار بما وصل إليه من علم، وكان يعدّ العجب آفة الإخلاص، وآفة الرأي، وآفة الأخلاق الفاضلة، ويدعو كل امرئ إلى تعديل خطئه قبل تقدير صوابه، فيقول: «إن أعجبت بآرائك فتفكر في سقطاتك، والأغلب أن خطأك أكثر من صوابك». وقد أجمع الذين أرخو لابن حزم أنه كان صريحًا في قوله الحق ولا يخاف في الحق لومة لائم، فيقول: «فأغْضِب الناس ونافِرهم، ولا تُغضِب ربك ولا تنافِر الحق».

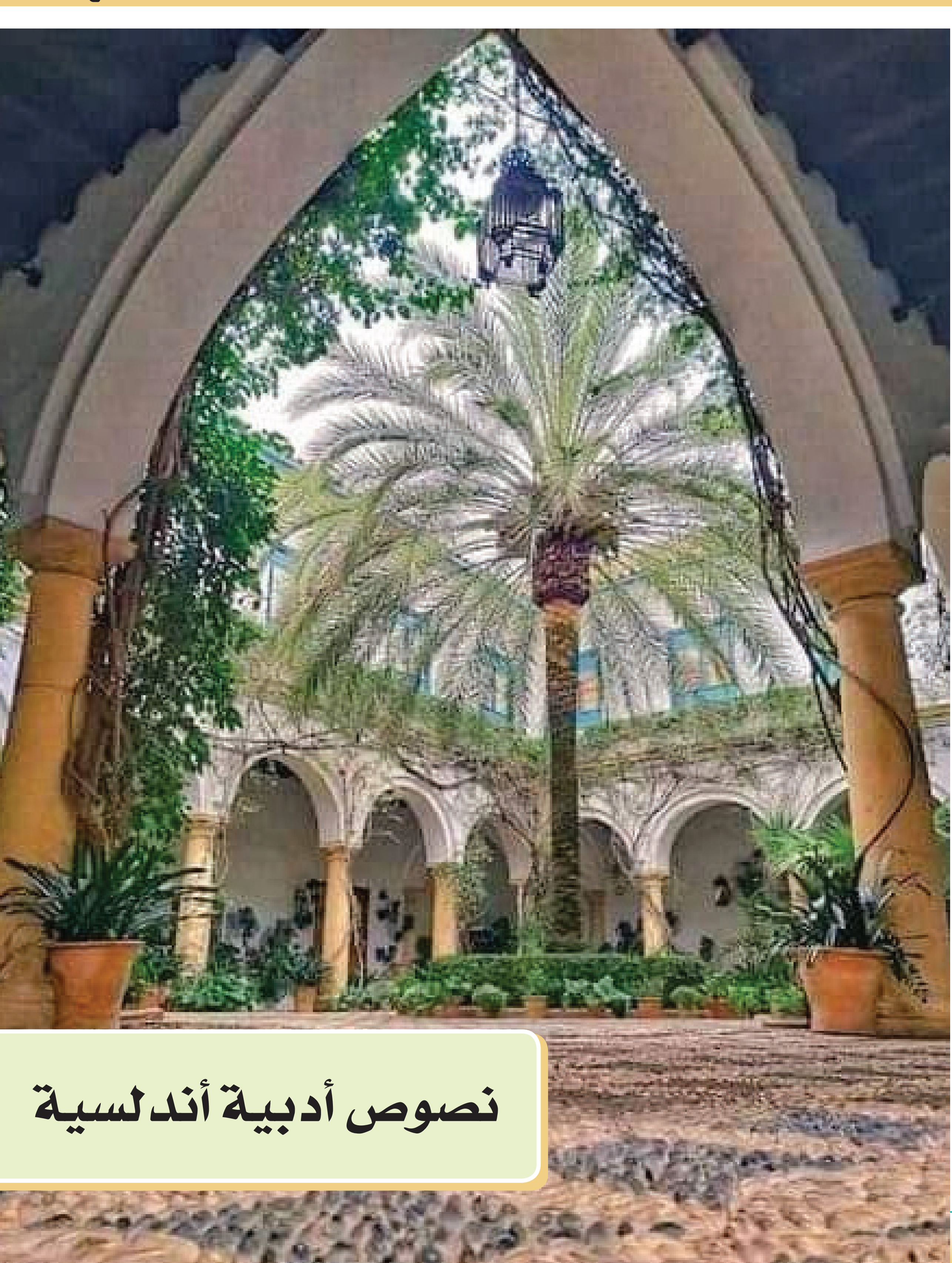
ومن صفاته أنه كان معتزًا بنفسه من غير عُجب، ولا خيلاء، معتمدًا على اللّه في السراء والضراء، وكان مستقيم الرأي، سليم الفكرة، بريء الساحة، ذا ديانة وحشمة وسؤدد، وكان يؤمن بأن سلامة العقيدة والشرف فوق الحياة نفسها(١).

(١) يُنظر: محمد هشام النعسان: مصادر علم ابن حزم الأندلسي ومؤلفاته. ويُنظر: محمد أبو زهرة: ابن حزم حياته وعصره آراؤه وفقهه. دار الفكر العربي، القاهرة.





تمثال ابن حزم الأندلسي أقامته بلدية قرطبة عام ١٩٦٣م



نصوص أدبية أندلسية



رجوعُ المُسافِرِ مِن/ وإلى نفسِهِ

(عن الجُرحِ القرمزيِّ جَيئةً وذَهابًا: بورتريه فلوكلوريّ قصير، متعدِّد الأصوات، لسيرة أبي عبد اللّهِ الصّغيرِ آخرِ ملوكِ الأندلس)

د. إيمان عبد الهادي(*)

عَتَبَة:

عائشة (أمُّ أبي عبد اللّهِ الصّغير)

كانَ ذلكَ يومَ الثّلاثاءْ

بتقويمِ يوليانَ، والسّاعةُ البِكرُ تفتحُ للأندَلُسْ

زمَناً بينَ قوسَينِ: سبعَ قرونٍ تجسّدنَ في قالبِ الشّمسِ مثلَ النّساءْ

يتناسلنَ في الضّوءِ: عامٌ يولِّدُ عاماً، وسيّدةٌ- سَنَةٌ ترتدي نفسَها من جديدٍ أمامَ العراءْ

وتخلَعُ ثَوبَ المشيمةِ، تقطعُ حبلَ اللقاءْ

وتُقذَفُ في رَحمِها، نُطَفُ الكَونِ، تَنضجُ مثلَ الكواكِبِ في نارِها وتُضاءْ

وها طفلُها الآنَ:

قَرنٌ أمامَ القرونْ

وإخوتُهُ السّابقونْ

يهتَدونَ لأفلاكِهم، إذ تدورُ بهم... لا يعودُ أخٌ منهمُ للوراءْ...

وها طِفلُها المتحدِّرُ من غيمةٍ فوقَ (مَالَقة)، يُجبَلُ في مطَرٍ فوقَ أرضِ الأوائِلِ: طينٌ وماءْ وعائِشَةٌ

تتأمّلُ ما كانَ من طِفلِها: يرفسُ الأرضَ تحتَ يَديهِ ورجليهِ، يفرُكُ بالرأسِ سقفَ الرَّحِمْ

ويخرمِشُ داخلَها، ذلكَ الولَدُ المستحلُّ لأوجاعها، العفريتُ، القَزَمْ

يركلُ الآنَ غيمةَ صيفِ السّماءْ

(*) شاعرة وناقدة وأكاديمية من الأردن.

ويعضُّ بحبلِ الأمومةِ، إذ ينقلُ الأكسجينَ لهُ والغِذاءْ

وتشـارِفُ أمُّ الجنـينِ -المُضـاءَةُ بالفَـرَحِ الملَكيِّ- هنالِكَ: ما كانَ من سَفَرٍ وانتهاءْ

شَهادة:

الزّغبيّ (تعني المشؤوم: كما أسماهُ منجِّمو بلاطِ قصرِ الحمراء)

لا حـولَ لي في هذه الأكـوانِ، أرفعُ نجمةً وأحطُّها في خاطِري!

خَوفي سدائمُ من غبارِ الطّلعِ، حزني وردةٌ للنّاظِرِ

ما زلتُ أجتـرِحُ الممالِكَ في خيالِ الأمسِ، أبرؤها هُنالِكَ بالحنينِ الفاترِ

قشتالةٌ تمتدُّ فيَّ لآخري!

والأُفقُ ذاكَ مزاجُهُ التّسنيمُ، قانٍ من دماءِ الطّائِرِ

سـكّينةُ الشّـفقِ امتدادٌ فوقَ سرجِ حصانِ طروادٍ بوقعِ الحافِرِ

سأسـيرُ، كم أنا واحـدٌ غِرٌّ وحيـدٌ أعزَلٌ متأمّلٌ أثَري الضّريرَ على الممرِّ الآسِرِ

مصباح:

عائشة

وجِئتُـكَ من وَهـمِ أن يسـقُطَ الوَهمُ، مِن ألفِ طفلٍ عداكَ نَجَا

وأجاءَ المخاضُ، وسـالَ كخيطِ دمٍ ضَيِّئٍ في الدُّجى

كنتُ في العتمةِ الخلّبيّةِ أرعى خيالَكَ

أطلِقُ سَمتَكَ في السّابقينَ وأهلِ الحِجى

حينما بالمصادفةِ المرّةِ، انتبَهَ الموتُ للأندَلُسْ

وانطفـى في عيـونِ المدينـةِ آخرُ مـا تَركَ المُنتهى في قناديلها من قَبَسْ

ولكن على الجسرِ بينَ النّجاةِ وبين الظنّونِ التي علّقتني بخيطِ التّوسّلِ: خابَ الرّجا!

كنتُ سـيّدةً حُرَّةً؛ ولسـرٍّ بسـيطٍ، تداعت بِلادُ الهوى لِبلادِ النّوى والسِّوى

صرتُ أسطورةً في كتابِ الشَّجى

.

وتخبّطـتَ في لجّـةِ الليـلِ، مـوجُ القتـالِ سيرديكَ يا ولدي فتشّبَّث بآخرِ ما ظلَّ لَكْ

أنتَ لستَ سِواكَ المخلِّصَ، أنتَ النّبيُّ وأنتَ المِلكْ

وتراخـت يـداكَ: تعـالَ إلـى رحـمِ الأمّ فالظّلمات الثّلاثُ تُرى!

تعـالَ فلّمـا تَعُـد مَلِـكاً للمدائِنِ متروسَـةً بالخيولِ، ولا للقُرى

- ابكِ مثلَ النّساءِ

- ولكنّني رجلٌ، تعرفينَ بأنّ الحكايةَ بيعَتْ بمهرٍ حرَامٍ، وأنَّ المسافةَ بينَ الحقيقةِ والوهمِ لا تُشتَرى



أُمنيَّة:

مريَمة (زوجةُ أبي عبد اللّه)

عِدني بأنْ تجِدَ الطّريقَ لقُرطبَةْ

النّصرُ لحنُ موشَّحٍ ما أعذبَهْ

عِدني بماربيا، بشمسِ الصّبحِ فوقَ بني رزينٍ، بساحلِ أُوربونة الذي يتعدَّدُ

جئني كريحِ ترابادور

اتّخذني حاسّةً للحبِّ إنْ (ضاعَ) القرنفلُ في طُليطلَةٍ، و(ضاعَ) المشهَدُ

لنْ أرجئَ الزّمنَ السّعيدَ، إلى «هنالكَ»، فالسّعادةُ دربُ عدّاءٍ إلى حرّيّةٍ/ جبلٍ... يُناكِفُهُ السُّقوطُ الجيِّدُ

ومسافةُ الملِكِ الذي قادتهُ أحداسُ البصيرةِ والرّحيلُ الأبعَدُ

عيناهُ ذاكَ الموعِدُ!

زيتونة١:

أبو عبد اللّه الصّغير

أمامَكَ مئذنةُ اللّهِ، عاليةً، تحتَها: مثلَ عُمرٍ قصيرٍ، صدىً، مثلَ بيتٍ من الشّعرِ، عُرسٍ مَهيبٍ بُعيدَ الظّهيرةِ، مثلَ يدينِ مفتّحتينِ على الشّمسِ: مئذنةٌ / مسجِدُ

.

وزيتونةٌ جذرُها في السّماءِ وأغصانُها سَرمَدُ

زيتونة٢:

أبو عبد اللّه الصّغير

زيتونةٌ تحتلُّ ذاكرتي، الغبارُ يهيجُ في الإدراكِ، والحقلُ الذي في دمعةِ الذّكرى... دماً يتورَّدُ

لو قلت: حزني الدربُ؟

- ليسَ الدربُ

حزني أبعدُ...

.

لا أستطيع الآن إفشاءَ المجردِ، فهو إن أفشيتُهُ يتجسَّدُ!

من كلِّ ما أوقدتُهُ في النّارِ: ظِلّي، كوكبي المنشودَ، شِعري، منجنيقَ الحربِ، أحلامي، مجازاتِ المعاني المُستفيضةِ... ظلَّ وجهُكِ يَخمُدُ

فعلُ المضارعِ كانَ يمشي تحتَ جلدي، عكسَ مجرى الدّمِ، والسّاعاتِ:

آهٍ أيّها الملِكُ العزيزُ المُفرَدُ

رَكْض:

أنطونيو غالا (صاحبُ روايةِ المخطوطِ القرمزيّ – يوميّات أبي عبد اللّه الصّغير)

عذبتُ أبطالي الذين كتبتُهم بالحبر، حين أردتُ أن يتجلدوا

لكنّهم: سالوا، وضلّوا واهتَدَوا

فاجَأْتُهم بالمحوِ، أنسخُ ظلّهم عن جذعِ أشجاري، ليُبتَكَرَ العزاءُ السّيّدُ

وقتلْتُهمْ من فرطِ ما «موتُ المؤلِّفِ» يُولَدُ

فتأبدوا!

.

أتخيلُ المعنى جنيناً ناقِصاً... سيظلُّ في رَحْمِ التّأمُّلِ يصعَدُ

وأراكَ مرآةً تُطِلُّ بداخلي كالبِئرِ، ليسَ لها غَدُ

بستان:

محمد الثاني عشر

لي غربةٌ بكماءُ... أجنادٌ تعسكِرُ في مسافةِ حبّيَ المأنوسِ

ثرثرةٌ بلا لغةٍ، أخمّنُ كيفَ يفهمها الفراغُ؟

يعيدُها للحكيِ، قاموسُ الغريبِ، فَمُ الحياةِ الأدْرَدُ

.

أمهلتُ لصَّ الليلِ نصّاً كيَ يتوبَ، ويدفِنَ الكلماتِ خلفَ مجرَّةٍ قُصوى، بِها الثقبُ العنيدُ الأسوَدُ

فتكاثرتْ كفّاهُ مثلَ المدِّ في آهِ الثّواكِلِ، ثمَّ ردّدتِ الطّبيعَةُ جَوقةَ اللحنِ الخفيِّ: الضّفدَعُ المسحورُ، والبجَعُ- الأميرُ، وقبّراتُ الشّرفةِ المغزولِ باطِنُها بأرتالِ الحريرِ، وسلحفاةُ الحقلِ، والطّنّانُ، والمُهرُ الذي... والجُدْجُدُ

فَتْح:

الملِكة إيزابيلا الأولى (ملكةُ قشتالة وأراجوان/ أبقى زوجُها الملِكُ فرديناند الثّاني أبا عبد اللّه في الأسر بعد هزيمتِه)

أعطِني الكلماتِ التي ستقولُ (انهزِمْ)

و(انقَسِمْ)

ومفاتيحَ غرناطةَ الأبديّةَ... ما هوَ شكلُ الأبَدْ؟

من هُمُ الأمراءُ الذينَ يصلّونَ يومَ الأحَدْ؟

والأميراتُ والمِلكاتُ، اللواتي سيقتُلُهنَّ الحَسَدْ

حينما يُلجِمونَ جميعاً أمامَيَ

قُدّامَ فرديناند قلبِ الأسدْ

غُربة:

الموريسكيّون

نحنُ من نحنُ؟

نحنُ أنفُسُنا: الكلماتُ المضيئةُ في مصحفِ الجدْ

«ولكن كونوا ربّانيّين بما كنتم تعلّمونَ الكتاب»

نحنُ أيضاً خيوطُ الحريرِ القويّةُ تنسجُها الأمهاتُ، ويصبغنَها بدمٍ سالَ من كلِّ يَدْ

نحنُ أرضُ الزّوالِ التي حُفِرَتْ في اليقينِ، وما لبِثت، قُطِّعتْ كِسَفاً وبِدَدْ

مسلِمونَ قُدامى، نصارى جُدُدْ

دَمُنا ناصِعٌ: نحنُ لا شيءَ إلّا الفناءُ المُعَدّْ

ومن ولَدٍ لوَلَدْ

نحنُ لا شيءَ:

تعرِفُنا في غاليسيةَ حمّالةُ الحطَبِ الجاليكيّةِ

نعرِفُها بالكلاليبِ والسّوطِ، والوطَنِ المُستعارِ وحبلِ المَسَدْ

وَلَه:

أبو عبد الله

أجّلتُ موعِدتي لسِفْرِ الكائنِ البشريّ، لا أصفُ الحياةَ ولا أخلدُها، فموتي أخلَدُ

سأقولُ لاسمي: سيّدي، لا حظَّ للأنسابِ، كُنْ أو لا تكنْ: دَربَ الأُفولِ، سؤالَكَ المقتولَ، محبرَةَ القتيلِ القرمزيةَ، (زَفرَةَ البَطَلِ الأخيرَةِ)، لا تكُنْ تاريخَ نفسِكَ، كنْ وسادَةَ خائفٍ من حُلمِهِ:

نفسٌ منوّرةٌ، وليلٌ مُسهَدُ

....

هذي المالِكُ لي، نثرتُ على المسافةِ حِنطتي، لهُنيهةٍ ظلَّ البنفسَجُ صامتاً، هذي الشّوارعُ لي، نقشتُ على المفارقِ قِصّتي:

أنا راسِخٌ ومشرَّدُ

لي غربةٌ بكماءُ... ظلٌّ في الحديقةِ... مَقعدُ

ومسافةٌ ما بينَ عينيَّ اللتينِ أرينَني... ما لا يراهُ السّيّدُ!

قاعٌ مُغامِرَةٌ وصرحٌ أمرَدُ

تعويذةٌ لعودَةِ غرناطة:

التّاريخ

تُوشِكُ الكلماتُ – المداميكُ أنْ تتصدَّعَ من حُزنِها، قبلَ موعِدِها مع مساجَلةِ الشّاعِرِ

وإذا زُلزِلَ النّصُّ زِلزالَهُ: أينَ –ويحي– أخبِّئُ حُكمَ بني الأحمَرِ المستقرّينَ، من حظِّهِ العاثِرِ

توشِكُ النّظرةُ القُدُسيّةُ أنْ تحنيَ الأفقَ: في داخلي النّارُ، نارُ المجوسِ التي خبأتها النّوائِبُ في بِزَّةِ الثّائِرِ

قيثارة:

أبو عبد الله بن الأحمر

لا حولَ لي... أقفلتُ مِزلاجَ البِلادِ على السّكونِ الباهِرِ

وسلبتُ عينَ الصُّبحِ آخرَ نجمةٍ

سأسيرُ يا ليلَ الرّؤى للآخرِ!

(*) الزّغبيّ أو الزّغابيُّ، ومحمد الثاني عشر، وأبو عبد الله بن الأحمر، في القصيدة: كلّها أسماءٌ وكنىً لأبي عبد الله الصّغيرِ عينِه.



ذكرى الأندلس

د. صفاء الشمري (*)

أفلت شموسُ الأندلسْ ... ذكرى تعودُ بيوم بؤسْ

كانت تُنيرُ حضارةً ... كُبرى وأمست دون حِسْ

فبفقدها شُقّ القلم ... ودواتُهُ ثكلى كرمسْ

وتوشحت سودًا على ... عتبات باب الأندلسْ

لا أُمّةٌ تصحو ولا ... ترضى بأن تحيا القدُسْ

بغدادُ صارت مرتعًا ... والرومُ أهدت كلَّ قسْ

لا النومُ يُنسينا ولا ... هذا السباتُ وكلّ دسْ

إنّا نذرنا أنفسًا ... شُمًّا، لها وقعٌ وبأسْ

لا لن نهادنَ مَن قَتَل ... كلّا ولا نلهو بِكأسْ

لا لن نُساومَ بلدةً ... فُقِدَت بيومٍ -كان- نحسْ

سنُضمّد الجرحَ المُعتّـ ... قَ دائمًا بالله (بَسْ)

والله يُورثُ أرضَهُ ... مَن جاد توحيدًا ونفسْ

(١) أديب وباحث في اللغة العربية وآدابها، من العراق.



لأنّه أندلسي

كوكب البدري[*]

أصابَني بالخَرَسِ   بلحظهِ المفتَرِسِ

ووجههُ فاضَ أسى   بحزنهِ الأندلسي

فإنْ مضى حيثُ مضى

مغاضِبًا أو مُرمِضا

أو رافضًا حكم القضا

فسوف يبقى هَوَسي   وكاتمًا لي نَفَسي

في كلّ صبح ومسا   بحسنهِ الأندلسي

. . . . .

رسمتُ حتفي بِيَدي

مِن غصنِ بانٍ أغيَدِ

سمّيتُهُ يا سيّدي

فزادني في وَجَسي   وحقّ فيه حَدَسي

فرمشه قد عبسا   لأنّه أندلسي

. . . .

أسمعتُه من كُرَبِي

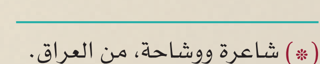
(موَشّحةْ) لم تكذبِ

فسُلَّ سهمُ مختبي

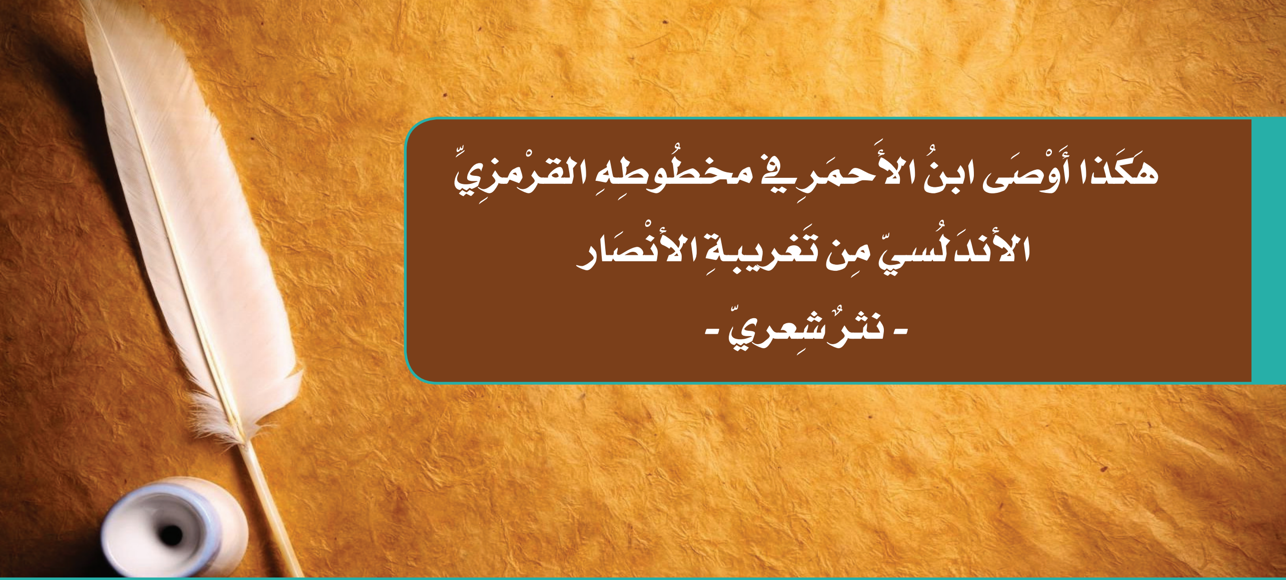
لكنّ سهمَ الحَرَسِ   مضى ولم ينْغَرِسِ

وسيفُ قلبي هَمَسَا   لسيفهِ الأندلسي



(*) شاعرة ووشاحة، من العراق.



هكَذا أَوْصَى ابنُ الأَحمَرِ في مخطُوطِهِ القرْمزيِّ الأندَلُسيّ مِن تَغريبَةِ الأنْصَار
- نثرٌ شِعريّ -

أ.د. جمال بن عمار الأحمر (ابن الأحمر)(*)

وتَسْـأَلُني بَلَاغَـةُ العَيْنَـينِ عنـكَ؛ أيـنَ البريـقُ، يابنَ أَبـي، -وكان يسكُنُنا-؟! هل أخطـأَ الزَّقْزَاقُ روضتَـهُ أم أنكرتْ أجْفَانَها المُقَـلُ؟! مَا كَانَ أحْلَى لَوْ لَقِيتَني طَيْفًا مِنْ إبَـاء، مُتَوَشِّحًا زَرَدَ الْمُنَى، يَسْعَى بِأقدامِ الأتقيَـاء! وعيناك، يابْنَ أبي، أَرَاها بِلا أَلَقٍ، عُذرًا، والمُحَيَّا خائفٌ وَجِلُ! وَبَنو أبيكَ.. أما زِلـتَ تذكرُهمْ؟ مـا خطبُهمْ؟ قـلْ لي.. وما صَنَعُوا؟! ما بالُ عَينِكَ منْها الماءُ يَنسَكِبُ؟!

تَخِنُّ، وتَتَوَصَّبُ كأنّكَ مُعْوِلٌ يَشكُو بَلابِلَهُ،

لكنَّ صِدقًا تقولُ عَيْناكَ:

«عَـينُ العَذولِ عَـنِ المَحاسِـنِ مُغْضِيَة..

أَلَـمْ يَأنِ للعُـذّالِ أنْ يَتوقَّفُوا عن اللَّوْمِ إذْ لم يُنصِفوا؟! أَفي جَنْبِ صَمْتٍ قَطَّعْتَنِي مَلَامَةً؟! لا تلُمْني!

«هَـذِي ضُلوعي مِن مَغِيبِكَ أجْدَبتْ، وذَا شَـوقٌ قديمٌ هـاجَ بي، فبَقيتُ أَنْتَظِـرُ اللِّقَاءَ بِكُلِّ آمَالِ اللِّقَاءِ، ورُغْمَ القُنُوطِ فَإِنَّ فِي عَيْنَيَّ بَحْرًا مِنْ رَجَاءٍ، وأَفْنَانُ قَلْبِيَ بَعْدُ مَا جَفَّتْ، يُعلِّلُها الحنين، تَهْفُو إِلَى الآتي الطَّرِيفِ وَكَمْ تَحِـنُّ إِلَى التَّليد! وفاضَ حُزْنِيَ فِي الأحْدَاقِ حتـى تدفَّقَ مَـاؤُهُ فِي المُقْلَتَيْنِ، وكُنتُ بالدَّمعِ قَبْلًا شَحيحَ العَطَا!

«يا بَاكِيَ الدارِ والإيمانِ، أشباهٌ عَوَادِينَا!

«مِن أين أبدأُ قِصتي؟ كلُّها غُصَصٌ!

«مذْ غادرَ الأنصارُ جنَّتَهُم وجراحُهُم تَنمُو وتَتصـلُ؛ عِلَلٌ تمادتْ في سَـرَادِبِها وتمزَّقَتْ

(*) باحث موسوعي وأديب وأكاديمي، من الجزائر.



مِـن دُونهـا الحيَلُ؛ إذ جَفَّـتْ وُرُودُ الدارِ في يدِنـا، وذَوَىٰ بهـا عـودُ النَّـدىٰ الخَضِلُ. إن الصحـراءَ لا تعِـي ما نفْـعُ النَّـدى، ويُنكِرُهُ ثرَاها المُجْدِبُ!

«كَرِهَ شَـتَّامُ اللّهِ وقَومُهُ البَـدوُ الأَجْلَافُ أنّـا بِنَهجِ المصطفَى نتأدّبُ، ومَنْ ضَاقَ قَلْبُهُ اتَّسَـعَ لِسَـانُهُ، وقَصُرَ ذراعُه الجبَاءُ إلَّا عنِ التَّقرُّبِ بِرَسَـائلِ السِّـعايَة إلـى كُلِّ جِلْوازٍ. واجتِمـاعُ البَعُـوضِ عَلى المغْـدُورِ في غَفْوَتِهِ مَزْعَجَة! فَنَهَشُـوا أَعْراضَنَا نَهْشَ الأَرَاقِط، وسَلَقُونا بِأَلْسِـنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةٍ علَى الخَيْر. وعَضُّ الكَـلامِ إذا تَأتَّى مُحـرِقٌ؛ فاللَّفظُ لفـظُ الجَمرِ قبلَ الأحرُفِ! ورُبَّ قَولٍ أَشَـدَّ مِن صَوْلٍ! ومَا أودَعُوا أَحْشَـاءَ اللَّيَالِي أَضَرَّ عَلَيْهِم مِن مَكْرِ الرِّجَال! وفِيهِمْ كُلُّ عُكْسُـومٍ نَبَـحَ اللّهَ تَعَالَـى، فَغَـرَّهُ أَنَّهُ مَا ذَاقَ أَبْؤُسًـا. ولَوْلَا أنَّ اللّه يَسْمَعُهُمْ لَأَجْبَنَاهُم! فَلا يَأمَنُنَّ الدَّهـرَ جَبَّـارَ السَّـمَاءِ، ولا مُؤمِنًـا ظَلَمُوه! سَرطَنَ اللّهُ سَوْءَاتِهِم وأَسَاءَهُم!

«ونفِـسَ الغِرُّ الحقـودُ وقومُـهُ علينَا أن أرحـامَ أصولِنا حُرّة، وأنَّـا مِن أكْرمِ الناسِ أعْرَاقًا وعِيدَانا؛ صُروحٌ مِنَ التُّقى شَامخَاتٍ، عَبرت بنُوها اليَمَّ فانشقَّت لهم سُدُفُ البِحار بأقمُرٍ غَرَّاءَ، إذْ نَبَغَ فيهم (بِالأندلسِ) مُلوكُ العَـرَبِ، أَهـلُ الرِّياسـةِ والْحَسَـب، من كُلِّ صَلْـبٍ تَميمٍ يُبْهِرُ الكَيِّدَ عَدلُه. وشَـرَّدَ اللّه بهم اللَّيلَ عَنِ المسلِمينَ فَاتَّضَحَتْ سُطُورُهُم البيضُ في أَلْوَاحِهِ السُّودِ. مَنَازِلُهم مَعروفَة، ومَحاسِنُهم مَوصُوفَة.

«ومِنْهُـم كلُّ فَـارِسٍ في حَمْـيِ الحِمَـى مُجتَهِـدٍ، مُعتَقِـلٍ رُمحَهُ، كَأنّهُ قَـوسٌ مَوتُورٌ بِالمَنَايَـا يَرْمِـي، أو خِنجَرٌ مُرهَـفُ النَّصْلَيْنِ يُصْمِـي، أو ذُبَـابُ سَـيفٍ خَرَجَ مِـن جَفْنِهِ يَسـتَعجِلُ الكُرَّارَ، أو مِنْجَلٌ مَسْنُونٌ مُسْتَوفِزٌ لحَصَادِ أعْمَارِ الكُفَّار.

«وبَـرَز فِيهِم مَن لم يُقصِّـر في الْمَكَارِم، ولَا عَجِـزَ عَـن حَملِ المغَارِم. وكَـم فِيهِم مِن بَـدرٍ كامِـلٍ، فَضلُـه للبريَّةِ شـامِل. قَدرُهُم أَثِيثٌ أَثِيـلٌ، ومُحبُّهُم نَبِيهٌ نَبِيـلٌ، ووجُوهُهُم نُورٌ جَميـل. وذِي صُرُوحُ (قَصْـرِ الحمْرَاء) مَاثِلَاتٌ شَوَاهِدٌ!

«وعَلِمَ الأَعْـداءُ أن عُروبَتي حَسْـراءَ في لُغتي وفي أَسـمائي؛ صَوْتي الغَضَا.. زَوَّادَتي أَنْبَائي! فقالَتِ الأَضَاةُ: ‹ما كُلُّ موجٍ قد أتاكَ سَيُغرِقُ›!

«وكانَ بَدرُنـا التِّـمُّ بين الغَيمِ مُنشـغلٌ،
فـإذا بِـحَتْفِـي يسـتثِير مظِنَّتـي ويلفُّهـا
بهواجِـسي ورِدائي. ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾. ومَـا لَبِـثَ
حَتـى تَحقَّـقَ واقِعًا مَا رَأَتْـه بَصِيرَتِي؛ إِذْ
وَلَغَـتْ عُلوجُ الشِّـرْكِ في دَمِنـا. وازدانتْ
أسـفارُ (تَغْرِيبَتِنَـا) بجُرحِنـا، كضَفيـرةٍ
تـزدانُ بالحنَّاءِ! (رُمَّانُ) كُلُومِنا شُـهُبٌ (يا
غَرْناطَة)، وسُؤْرُ كؤوسِـها (جُلَّنارُ) الفِداءِ
وصادقُ الأنباءِ (يا أنْدَلُس)!

«وتقاسمتْ أطرافَنا زُبَرُ الدوَلِ المُتقطِّعَةِ
المتَقَاطِعَـةِ، فصِرنا نَسـيرُ من بلـدٍ إلىٰ بلدٍ
أقْصىٰ حتَّى لَعِبتْ بِنا التَّنَائِفُ، ورَقصَتْ بِنا
المفاوِزُ، ورمَتْنا في أحْضانِها السُبُلُ، وغدَونَا
فيهَـا أَتْوَاءً مِـن كُلِّ تَارٍّ، ولَـم يكُن زادُنا في
النَّوىٰ إلَّا عَلَلٌ!

«وأضحـىٰ التَّنَائِـي بَديـلًا مِـن تَدانِينا؛
فأنـا -بهـذا الطَّيـف- يتبعُنـي ظِلِّي؛ فلا
خَيلٌ ولا إبِلٌ. وسَـفَائِنِي في مَعْمَعانِ الصَّيفِ
عَصْفُ الرِّمَالِ وسَـفْوُها. أنا هَا هُنَا وَحْدِي
يُحَاصِرُنِـي الغِيَابُ؛ ظِلًّا يُنَـادِمُ صَمْتَهُ، أَوْ
كَالسُّـؤَالِ بِلَا جَوَابٌ.

«تَطَـاوَلَ هـذَا اللَّيْلُ وَلَـمْ يُدْهَـمْ بِطَلْعَةِ
فَجْرِهِ! ذابَ الكلامُ واستُشْهِدتِ الجُمَلُ!»



يا بَنِي أَبي، سَتذكُرونَ ما أقُولُ لكُم!

لَقَد رأَيْتُ مَن نَبَّهَ بِالخطأِ عَلَى الصَّوَابِ،
فَعَكَسَ البَابَ!

يا سَليلَ الأنصارِ، يا أخَا المَفَاوِزِ والتَّـنَائفَ،
يا مُنخَرِقَ السِّـرْبَال، عُد إلـى المدِينَةِ! إلامَ
تَنْأىٰ؟ أمَا تَحُطُّ عَصَا التَّرحَالِ؟!







هل لي أوبة لأندلس؟

زينب الأزبكي(*)

وأخيرًا أنا سائحٌ أوربيٌّ في الأندلس، أقول (أوروبي) وهذا ما تثبته أوراقي الرسمية. كان حلم السفر الأوربي يراودني ويأخذني بعيدًا أيامّ الإعدادي.. وما كنت أظن أني سأقف على ناصية الحلم دون قتالٍ وأجعله واقعًا وأنتصر ولكن بذراعٍ مفقودة جرّاء القصف على مدينتي..

تخيّلوا أنا في إسبانيا مع مجموعة من السيّاح ووصلت غرناطة.. مدينة السّحر والعطر، والجمال والظلال، والمياه المنْسابة، والموسيقى الحالمة، بلد الفلامنكو (الفلاح المنكوب) والمَواويل ذات النغمات الرّخيمة، فيها «قصر الحمراء»، مَعلَمة حضارية طبّقت شهرتها الآفاق. هذا ما افتتحتْ به دليلتُنا السياحية كلامَها.. فتاةٌ ثلاثينية متوسّطة الطول ممشوقة القامة بيضاء ببشرة عربية، شعر بنيّ طويل، عينان ساحرتان، عشوائية الشامات.. تلبس زيًّا رسميًّا بلون نيلي ذكّرني بالبحر ليلًا حين عبرناه سباحةً، كنتُ أتلو ما حفظتُ من الأدعية متوسّلًا لننجو من هول ما عانيناه بعدَ أن غرق الزورق ونجوتُ بأعجوبة..

كانت دليلتُنا جميلة ربّما ليست الأجمل بين الحضور الأنثوي، ولكنها جميلة بصورة غير محددة، بصورة خاصة، لا يُمكن شرحها بالكلمات، مثلَ بيتِ شِعرٍ يَفلتُ مَعناهُ مِن المُترجِم لأنه عاجز.

أرى في عروقها دمًا عربيًّا.. ولكني ظللتُ مستمعًا نبهًا لما ستقول... وكعادة

(*) قاصة وكاتبة، من العراق.

المرشد السياحي سيمجّد كل شيء في بلاده وينسب كل شيء إلى أجداده، أكملَت الحسناء وصفَ قصر الحمراء وأتت على ذِكر زفرة العربي الأخير أو ما أسمتها: زفرة المورو..

وهنا.. لا بد من أحد يرى الزاوية الأخرى التي غطاها المنتصر بسجف من الكذبات المحبوكة..

كان ساذجًا ربما لكنه لم يخن قط.. أبو عبد الله الصغير آخر ملوك بني الأحمر وآخر ملوك المسلمين في الأندلس..

وبين كذبة البداية التي عزى بها النصارى هزيمتهم في معركة وادي برباط الخالدة وسقوط غرناطة كُتبَ لنا مشهد النهاية بعين المنتصر..

أرى ضعف القول بأن غرناطة إنما سلمها أبو عبد الله جبنًا وطوعًا ولولا خيانته لكنا نصول ونجول في البلاد بلا حد ولا قيد اليوم..

ما أشده من بلاء أن كونك آخر الملوك سبب كافٍ لتحميلك وزر سقوط حضارة بكاملها..

ولو بكى هذا الرجل ألا يبكي أقلّنا وطنية واعتزازًا بوطنه إذا أجبرته الحياة على الاغتراب فكيف بخارجٍ من غرناطة..

لم يسأل أحد ما الذي دفع أبا عبد الله إلى الموافقة على قرار التسليم، لا أحد يدري ما الذي يعني أن ترى شعبك محاصرًا ثماني سنين، فاليد قصيرة والأعداء يحيطون بك من كل جانب والحرب دامت عشر سنين بلا عون ولا مدد خارج حدود البلاد ولم تُبقِ شيئًا ولم تذر إلا الجوع والعويل.

لا أملك أن أدافع عن الرجل فالتاريخ ظالمٌ على المغلوب، إنما نريد أن يُنصف الرجل وأهله ولو بعد حين، سذاجة أبي عبد الله جعلته يصدّق أن القشتالين سيلتزمون بما جاء في المعاهدة من احترام للمسلمين وعدم المسّ بدينهم وتقاليدهم كأن لم يزل حكم الإسلام قط، وتجنب إراقة الدماء وإزهاق الأرواح... وهنا خانته فطنته التي أعمته في أن يستشعر مكرهم وأن يتبصر ما لا يرى من خداع حدث سابقًا في طليطلة وقرطبة وأشبيلية والمدن التي سبقت سقوط غرناطة بوقت طويل وما فُعل بها، ولو علم كمّ الدماء التي أريقت بعدها والأعراض

التي انتهكت ما فكّر لحظة في التسليم ولو دام ما دام ولم يجدْ لهم عزمًا، ومع ذلك فلقد فعل ما استطاع ليفعله بَصير عين، قصير يد، حيث لم تخرق بنود المعاهدة إلا بعد عشر سنوات..

ما ذنبه إن لم يكن لهم توقير للعهود؟

غرناطة التي أراها الآن كانت آخر حبة لؤلؤ في عقد الأندلس النفيس، فلماذا لا نلوم من سمَح بتناثر حبات اللؤلؤ الأولى، الذين سبقوه، لِمَا عاثوه من فسادٍ بأرضٍ وزّعوها بينهم كما تُوزّع الذبيحة ونقّصوها من أطرافها بجحدٍ من الدنيا قليل، وكيف لبُنيان خرّ من فوقه ومن تحته أن يظلّ واقفًا إلا أن تهبّ عليه ريح خفيفة فتذره قاعًا صفصفًا!!

كانت تلك زفرةُ العربي الأخير أو زفرةُ المورو التي لم تحدُث إلا في خيال المنتصرِ حين كتبَ تاريخَ سقوط الأندلس، وهو كل ما نتذكر من تاريخها، وكأنما يودّون إخبارنا أن المجد الذي كسبناه بالقوّة سُلب منّا من غير حولٍ لنا ولا قوة، بالخيانة وتواطؤ مع الأعداء.

فهل كانت جملة «ابْكِ مثلَ النساء مُلكًا مضاعًا لم تحافظ عليه مثل الرجال» حقيقيةً؟؟

ثمّ إنْ كنّا نلوم هذا المِلك.. فما بال بلادنا الآن؟؟ لو كانت لنا مِن زفراتٍ فلتكُن على البلاد التي أصبحتْ على شَفا حفرةٍ من الضياع قبل تلقّي الطعنة مرّتين..

غادرتُ المجموعةَ وأكملتُ مَسيرتي في شوارع غَرناطة وحيدًا مع صَمتِ تلك الأزقّة، وشعرتُ بصوتٍ يهمسُ في أذني ويقول لي: مرحبًا بك أيّها العربيّ مرةً أخرى بعد فراقٍ دام قرون..




ستعلو مآذن الأندلس قريبًا



لمياء أحمد فؤاد(*)

كان يتجول في شوارع غرناطة ويعتصر الألمُ قلبَهُ، وكأن أحدهم قام بطعنه في أقصى قلبه بخنجر مسموم وأعاد الكرّة حتى مزّق شرايين قلبه، إذ كيف له أن يُصدّق ما وصل إليه حال بلاده!

فتلك الأندلس -جنة الله على الأرض- كيف لمثل هذا أن يحدث بها!

قد سقطت طليطلة، وقرطبة، وإشبيلية، وسائر الحواضر الإسلامية في الأندلس، لم يتبقَّ للمسلمين من أرض الأندلس الواسعة سوى غرناطة وما حولها!

شرد ذهنه قليلاً ليرجع إلى سنوات مضت ويتذكر ما حدث؛ ليُحيي في قلبه الأمل من جديد، يتذكر صولاته وجولاته مع العدو، يتذكر الانتصارات التي حققها هو ومن معه من الجنود البواسل الذين سقط منهم في جوف طيرٍ ما سقط، وبقي منهم على قيد الحياة ما بقي؛ في سبيل تحرير البلاد، فتارة يفرح قلبه ويبعث فيه الأمل بالنصر من جديد، وتارة يحزن قلبه عندما يتذكر تلك الهزائم السحيقة التي أسقطت سائر الحواضر الإسلامية في الأندلس في غياهب الجُبّ.

لم يلبث سوى سويعات قليلة لتعود به ذاكرته إلى الواقع الأليم، يتنهد بألم وحسرة ثم يكمل خطواته في حواري غرناطة، ينظر إلى وجوه الناس، فقد أصابهم الغم والهم ورضوا بالدنية في دينهم والعيش والمذلة، هو يكره الأمراء الظالمين، والتجار الذين يلهثون وراء الأموال، وأصحاب المناصب الخائنين، يكرههم كثيرًا؛ فقد تخلوا عن أرضهم

(*) كاتبة وباحثة في اللغة العربية وآدابها، من مصر.

-بل باعوها بثمن بخس- كي يحتفظوا بمكانتهم ويحظوا بمكانة عالية عند العدو الذي اغتصب أرضهم وشرّد أطفالهم، وسبى بناتهم، ورمل أمهاتهم، هم لا يكترثون لكل هذا، أهم شيء بالنسة لهم مكانتهم، ومناصبهم، وأموالهم، واللهث وراء دُنيا فانية!

هم -كما قال- مثل الدمية المتحركة يحركها العدو كيفما شاء ومتى يشاء، فتارة يطلبون من أميرٍ منهم التخلي عن إمارة إشبيلية مثلاً؛ ليسيطروا عليها ويطلبون منه الذهاب إلى إمارة حصن آخر من الحصون المجاورة، وهكذا يفعلون بهم ما يريدون!

زفر بضيق شديد عندما تذكر خيانتهم، وتلعثمت أفكاره، ولم يجد له مأوى سوى أنه امتطى صهوة جواده وذهب إلى ساحة التدريب، استل سيفه وبدأ بالمبارزة والمصارعة مع أحد الشبان الذين قبِلوا التحدي، وكعادته يُبدع في ساحة التدريب وكأنه فارس مغوار، كانت جميع عيون الحاضرين تتابعه بانبهار شديد، إلا أن هناك من كان يُتابعه بألم وأمل وعيناه لا تعدوه، أنهى السباق وإذ به يشعر وكأن أحدًا ما يراقبه!

التف خلفه، وقبل أن يراه، امتطى الآخر على جواده وذهب راكضًا وكأن خلفه كتيبة من جنود العدو تطارده! أحس في قلبه بوخزة من الألم، وظلّ يحدّث نفسه: «أيعقل أن يكون هو!»".

نفض غبار الأفكار من عقله، وعاد ليتنقل بين شوارع البلدة؛ لتستقر قدماه عند قصر الحمراء -وهو قصرٌ أثري وحصنٌ وأحدُ أهم صروح العمارة الإسلامية السليبة في الأندلس- ذاك القصر الذي شهد الكثير من الذكريات الجميلة والحزينة، نظر بعينيه إلى القصر والذكرياتُ الأليمة تملأ عقله وقلبه، وتذكّر حينها مسجدَ قرطبة الذي كان أوسع المساجد في العالم في زمانه، كيف استولى عليه الأعداء والخائنون!

وكيف مضى به الحال حتى تحول إلى كنيسة!

كيف له أن ينسى أيامه التي قضاها في مسجد قرطبة قبل ذهابه إلى غرناطة! كيف ينسى شيخه الذي تلقىٰ على يديه العلم والمعرفة منذ نعومة أظافره!

كيف ينسى مسجد إشبيلية الذي يسحرك جماله!

وكيف ينسى ارتحاله مع شيخه عندما كان يصطحبه معه في رحلاته الدعوية العلمية!

شرد بذهنه قليلاً ليتذكر شيخه وهو يردد بألم وحسرة:

يـا وجهَ قرطبةَ الحبيـبِ، أنا هنا
بشـموخ أيـام انتصـارك أفخـرُ
وأنـا حزيـنٌ حـين جئـتُ لأنني
أبصـرتُ آثـارَ السـقوط تُكـدِّرُ

ذرفت دموعه بحزن وأســى على ما وصل إليــه حال البلاد والعباد، وعاد إلى شــردوه، وتذكــر قصر الزهراء ومدينــة الزهراء كيف ينسى هذا الجمال البديع!

كيف لمثل هذا أن يُنسى!

في تلك اللحظة لم يجد ما يفعله سوى أن يمشي بأسى وهو يردد:

أبكي على شــرف المَساجد بعدمَا
صــارت كنائــسَ بالعَقيـدة تكفرُ
تتنابــحُ الأجــراسُ في شــرفاتها
ومناظـر الصُلبـان فيهـا تقهَـرُ

تنهد ببطء وظلّ يمشي خطوات قليلة إلى أن أسند ظهره تحت ظل شجرة، وظلَّ يتأمل ما حولــه، وإذ به يجد يــدًا تُربِّتُ على كتفه، هــو يعلم جيدًا تلك اليد الحنون، نظر بوجهه مســرعًا إلى الخلــف؛ حيث ما لبــث ثواني، وعندمــا رآه كأن الزمن قــد توقف عند تلك اللحظة!

صمتٌ يُخيّم على المكان، لا شــيء ســوى تلاقــي العيون الدامعــة الحالمة، قطع صمته صوت شيخه وهو يقول: «بُنيّ أنا هنا!».

وكأن شــيخه يخبره أنك لســت وحدك يا فتى، فأنا هنا معك منذ زمن أراقبك.

أجابه بصوت مبحــوح ممزوج بألم وأمل: «شيخي، أأنت هنا من جديد!».

قال بحنــو: «أنا بجانبــك، جئت لأخبرك بما سيحدث قريبًا فلتتجهز يا بني، ولا تنس أن هــذه البلاد فُتحت في موقعة وادي برباط –تلك الموقعة التي فُتحت فيها بلاد الأندلس وهي من أهم المواقع في التاريخ الإســلامي– تلــك موقعــة ضارية شرســة يا بني وتُشــبه موقعة القادســية واليرمــوك، تذكّر ما حدث في القادســية واليرمــوك وتذكّر ما حدث في موقعة وادي برباط هنا، للّهِ في كونه ســنَنٌ يا بني وســينتصر الحق وإن طال الزمان، وكما أخبرتك سابقًا لم يتبقَّ إلا القليل».

ثــم نظــر إلى عينيــه بأمــلٍ وكأنّ في هذه اللحظة قد سطعت شمس الإسلام من جديد، ثم قال بأمل وعزم وهو ينظر إلى عينيه:

«قريبًا ستعلو مآذن الأندلس»